فتوكل على الله . وقوله تعالى : ﴿ نعم المولى ﴾ يؤكد أن الله قوى قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى: ﴿ ونعم النصير ﴾ .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يغيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يلهمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته . ،يعطيكم مددا من السماء وهذا المدد هو الذى يحقق لكم النصر .

ويتحدث الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن الغنائم فيقول :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

ما سبب ذكر الغنيمة هنا ؟ . وما المناسبة ؟ .ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن القتال . ونهاية كل معركة ينتصر فيها المسلمون يكون فيها غنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن الغنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدده للمؤمنين . وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن الغنائم لا تجيء إلا نتيجة للنصر ، فكأن الله يريد من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم ؛ بدليل أن الحديث انتقل إلى الغنائم . والغنيمة هى كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر ، والثابت أن الغنائم لم تكن تحل لأحد من الأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

إذن فلله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذى هو لله كيف نقسمه ؟

لقد ذكر القرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء ؛ فالآية تقول :

﴿ فان لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

ثم تزيد :

﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وقد قال بعض العلماء تمسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يوزع على من سماهم الله تعالى فى كتابه العزيز وهم ستة : (الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل) فتكون الأسهم ستة ، وجمهور العلماء على أنّ خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم فيكون لله وللرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة (ذى القربى - اليتامى - المساكين - ابن السبيل) لكل نوع منهم سهم .

واختلفوا أيضاً فى معنى ﴿ ولذى القربى ﴾ هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم ممن ؟

ثم بعد ذلك جاء نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل فلم يحدث خلاف فيه - والخلاصة : أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها الباقية للجيش المقاتل ؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقى فدل ذلك على أنه للغانمين ثم يقول الحق :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهم بطبيعة الحال مؤمنون بالله ، وكأن هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا اعترضوا على هذا التقسيم . فإن طمع أحد منهم فى الخمس الذى هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة الأخماس المقسمة - كما قال الله تعالى - يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ، وسبحانه هو الذى أنزل هذا التقسيم . فمن زاغ وتطلعت عينه إلى شىء فليرد هذا الزيغ ؛ لأن الذى قسم هو الله الذى نصر المقاتلين . وإذا كان النصر هو الذى جاء بالغنائم ، فالذى أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمة الله .

ومثال ذلك ما أراده الله للإنسان المسلم من حسن التصرف فى ماله ، فهو فى حياته حر ويملك حق التصرف فى هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية فى البيئة التى تحيا فيها ، جعل الله لك الحق فى الوصية بأن تخصص ثلث مالك لما تريد ومن تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لن يرثك ، ولكنه خدمك فى حياتك أو فى مرضك أو فى شيخوختك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له ، اعترافاً بجميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أبنائك ، فتخصص لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع للعواطف الإيمانية الإنسانية فى الناس مجالاً ،

فترك لك الحرية فى أن تتصرف فى ثلث التركة ثم قسم الله سبحانه الثلثين على الورثة .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع الغنائم بالشكل الذى حدده الله عز وجل ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

والفرقان هو الشىء الذى يفرق بين الحق والباطل ؛ فرقاً واضحاً بشدة بحيث يكون ظاهراً للجميع . وقد أطلق الله الفرقان على القرآن الكريم فى سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

(من الآيتين ٣ , ٤ سورة آل عمران)

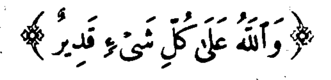
فحينما أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل جاءت التوراة لتفرق بين الحق والباطل ، وأيضاً جاء الإنجيل ليفرق بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تطلق كلمة " الفرقان " إلا على القرآن الكريم ؛ لأن القرآن هو الفارق النهائى الذى لن يأتى فارق من بعده ، فلن ينزل كتاب سماوى آخر .

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

الله سبحانه وتعالى يقصد هنا بيوم الفرقان يوم بدر الذى كان فرقاً بين حق وباطل ؛ فرقاً لافتا للأنظار ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق

بين الحق والباطل، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة، والمسلمون كانوا خارجين للاستيلاء على القافلة والعير ولم يكن لديهم أى عدة أو عتاد للحرب، بينما استعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة قريش لهم، وهى قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال، لا شوكة لهم، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يواجه المسلمون وهم قلة جيشاً له شوكة أى له عدة وعتاد؛ لأن المسلمين ظنوا أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتا طويلا أو جهداً كبيراً، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوى. لكن شاء الله عز وجل أن يخوض المؤمنون المعركة وهم قلة وأن ينتصروا، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انتصرت بلا عدد ولا عُدَّة على من يملكون العدد والعدة، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمانً والكفر، وبين نصر الله وزيف الشيطان، ولو استولى المسلمون على قافلة قريش لقيل : إن أية مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تنهب هذه القافلة، ولذلك لم يعطهم الله العير، بل ابتلاهم بالنفير وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلفت النظر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد انتصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها. وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفاً، فإذا جاء النصر، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير والمسلح، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى :



(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهذه المشيئة الإلهية هى التى قلبت الموازين.

وفى أول سورة البقرة يحكى الحق سبحانه وتعالى لنا قصة طالوت وجالوت، ويروى كيف طلب بنو إسرائيل من نبى لهم أن تحدد السماء شخصاً

يكون ملكاً عليهم ، ليقودهم فى معركة ضد طاغية اسمه جالوت ؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم ، فلما جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك ، جادل بنو إسرائيل فى قيادته لهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك ، فلما جاء طالوت باختيار الله اعترضوا عليه. ثم خرج طالوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بنهر وهم عطاش ، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن مروا على نهر وهم عطاش ، وطلب منهم ألا يشربوا إلا أن يأخذ كل منهم قليلاً من الماء فى كف يده ليرطب به فمه ، فلما وصلوا إلى النهر ، اندفعت أغلبيتهم ليعبوا ويشربوا ما شاء لهم ، والأقلية فقط هى التى امتثلت لأمر الله تعالى ولم تشرب ، وهؤلاء هم الذين بقوا مع طالوت وعبروا النهر ، لكنهم حين رأوا جيش الأعداء ، قالت أغلبيتهم ما جاء فى القرآن الكريم وحكاه لنا :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم خافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال، إلا الأقلية منهم، وهكذا حدثت لهم التصفية مرتين بالاختيار والابتلاء؛ الأولى بالصبر على العطش، والثانية بمواجهة جيش العدو، وهذه هى الأقلية الصافية التى رسخ إيمانها، وقالوا ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن هذه الفئة المؤمنة التى بقيت والتى تخشى حساب الله فى الآخرة لم تخفهم قلتهم ولا كثرة جنود جالوت، بل قالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وانتصروا بالفعل، وكان هذا فرقاناً ظاهراً من الله عز وجل .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى يوم التقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار، وتحقق نصر المؤمنين، رغم قلة العدد والعتاد. ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم :

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أن الله عز وجل قادر على أن ينصر المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

ساعة تسمع « إذ » تعرف أنها ظرف، ومعناها : اذكر هذا الوقت، اذكر إذ أنتم بالعدوة الدنيا، والعدوة شاطىء الوادى وجانبه. وهى جبل مرتفع؛ لأن الجبال إن كان بينها فضاء نسمى هذا الفضاء وادياً، فيكون الوادى هو الفضاء بين جبلين، ويكون المكان العالى الذى على يمين الوادى وعلى شماله عدوة.

وقوله تعالى :

﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

توضيح وبيان لجغرافية المعركة، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة، وقوله تعالى : « دنيا » تأنيث الأدنى أى الأقرب، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة. وكان الكفار قادمين من مكة، ونزلوا فى المكان الأبعد.

فقوله تعالى :

﴿ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى فى مكان قريب، وموقع غزوة بدر - كما نعلم - قريب من المدينة، أما كفار قريش فقد جاءوا من مكة. وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سماه الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى فى المكان البعيد عن مكة، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله : ﴿ والركب أسفل منكم ﴾

والركب هو العير أى الجمال التى تحمل التجارة، وكان المسلمون قد خرجوا ليأخذوها. ولما عرف أبو سفيان بذلك غيّر سير القافلة واتجه إلى ساحل البحر، ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سلوك أبى سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر. وساحل البحر - كما هو معلوم - يكون دائماً أسفل من أى أرض يابسة. ويتُخذ سطح البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية، فيقال : هذا ارتفاعه مائة متر أو مائتا متر أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر. وساحل البحر بالنسبة لسطح البحر متساو، أما الأرض والجبال والوديان فهى تختلف فى العلو والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات، بينما سطح البحر مستطرق استطراقاً سليماً، بحيث لا توجد فى سطح الماء بقعة عالية وأخرى منخفضة.

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما فى الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة فتم اللقاء فى الموعد والمكان المحددين ليتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى، والأمر هو معركة بدر، وليلقى المؤمنون الكافرين، لينتصروا عليهم.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وهل يعنى قول الحق ﴿ ليهلك من هلك ﴾ أن الهلاك هنا هو الموت ؟ لقد مات أيضاً بعض المؤمنين واستشهدوا. وقول الحق : ﴿ ويحيى من حىّ ﴾ وهل الحياة هنا تعنى مجرد البقاء على قيد الدنيا ؟. لقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر. إذن فليس معنى الهلاك هنا الموت، وليس معنى الحياة النجاة، ولكن قول الحق : ﴿ ليهلك من هلك عن بيّنة ﴾ تنطبق على الكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا؛ لأن الهلاك هنا هلاك معنوى، فمن قتل من الكفار هلك. ومن نجا هلك أيضاً ؛ لأنه بقتاله المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة بالعذاب الذى ينتظره فى الآخرة، إلا إذا أدركته رحمة الله وآمن قبل أن يأتى أجله. والذين حيوا هم المؤمنون، والمراد - إذن - ليكفر من كفر، ويؤمن من آمن عن يقين.

ولقد قلنا من قبل : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة، فهناك الحياة التى فيها الحركة والحس، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة. وهذه الحياة هى للمؤمن والكافر. ولكن الحياة بهذا الشكل؛ حياة منتهية إلى موت غير موقوت ننتظره فى أى لحظة. ولكن الحياة المطلوبة لله هى الحياة التى لا يأتى فيها موت. ولا يكون فيها تعب وشقاء، تلك هى الحياة الآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذى يؤمن إيماناً حقيقيا يعطيه الله تعالى حياة الخلود فى الجنة. ولذلك نستمع جميعاً إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ومنا من يتساءل : كيف يخاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم : إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة خالدة فى الجنة . ثم يختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما فى الصدر يعلمه ، وما هو فى أى حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به ؛ لأنه أحاط بكل شىء علما .

ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، هذه هى الحواس الخمس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾

(سورة النحل)

أى أن هذه الحواس هى التى تعطى الإنسان ما لم يكن قد علمه ، وكلما علم شيئاً ، فليقل : الحمد لله .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصلة ، يجعل الخواطر فى كل قوم مهيجة على الحرب ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد للفئتين أن يشتبكوا ، ويفصل الحق فى المسألة ، وهذا الاشتباك لو حدث بالمقاييس العادية ربما جَبُنَتْ الفئة القليلة عن أن تواجه الفئة الكثيرة. ولكى تتم المعركة لابد أن يكون كل من الفريقين المتحاربين واثقا من النصر ؛ لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لما دخل إلى المعركة.

والله سبحانه وتعالى يُعلم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد النفسى للمعركة ، فأرى النبى فى الرؤيا أن عدد الكفار قليل حتى يؤمن أن المؤمنين سينتصرون عليهم بسهولة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه رؤيا توضح أن عدد الكفار قليل فى أعين المؤمنين ، وأخبر قومه بذلك ، ولقد قلل الله عدد الكفار فى أعين المؤمنين ، وقلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار ، ليتم اللقاء وتحدث المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

إذن رأى المؤمنون الكفار قليلاً، ورأى الكفار المؤمنين قليلاً، ولو كثّر الله الكفار فى أعين المؤمنين، أو كثّر المؤمنين فى أعين الكفار ما حدثت المعركة. ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق فى نظر الآخر ليبدأ القتال، ويحكى سيدنا عبدالله بن مسعود :

لقد قلت لجار لى أظنهم سبعين، فقال : لا بل مائة .

وهكذا كان عدد الكافرين قليلاً فى نظر المؤمنين، وكان عدد المؤمنين بالفعل قليلاً فى عيون الكافرين.

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل فى ذلك بلاغاً من إعلامات النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رأى النبى عدد الكافرين فى المنام وهم قليل، وأخبر صلى الله عليه وسلم قومه بذلك. ودار القتال الذى أراده الله تعالى :

﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنفال)

والأمر الحاسم هو التقاء الفئتين المتقاتلتين فى معركة بدر ليفصل الله بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر ؛ حتى ترجع الأمور إلى الله، فلكل واحد من جنود المعركة جزاءٌ من عند الله سبحانه وتعالى ؛ المؤمنون لهم جزاء على قدر نياتهم وإخلاصهم فى الجهاد، والكافرون عليهم غضب من الله تعالى . والغضب منازل، كل منزلة من الغضب حسب أحوال صاحبها.

وقول الحق سبحانه و تعالى : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ نجد فيه كلمة «الأمور » وهى جمع أمر ، وفى المعارك ألوان مختلفة من الأوامر ؛ فلكل جندى أمر ، وهناك أمر عام تنتهى إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر. ولكى يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا فى المعركة ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « فئة » فاعلم أن معناها جماعة اختصت بخوض المعارك فى ميدان القتال ، فليست مطلق جماعة ، بل هى جماعة مترابطة من المقاتلين ؛ لأن كل مقاتل يفىء لغيره من زملائه ، أى جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا ، أما المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم ، ويحاو ل كل منهم أن يحمى زميله ، إذن فكل منهم يفىء إلى الآخرين.

والحق تبارك يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

إذن فالفئة هى جماعة فى الحرب.

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأنفال)

يُقصد به ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال ؛ لأن الحرب تقتضى أولاً إعداداً ، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى : ﴿ إذا لقيتم ﴾ أى أن المسألة قد وصلت إلى المواجهة مع الكفار. ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فاثبتوا ﴾ والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة ، لأن الإنسان إذا ما كان ثابتاً فى القتال ، فالعدو يخشاه ويهابه ، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص ، وهذا ما يُجرىء الكفار عليكم.

ومادمتم قد جئتم إلى القتال ، فلابد أن يشهد الأعداء شجاعتكم ؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم.

ولذلك لابد من التدريب على الثبات والقتال ، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب ؛ بالتدريب القوى والتخطيط الدقيق ، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكبائر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

﴿ يولهم ﴾ أى يعطيهم ، و ﴿ دبره ﴾ أى ظهره ، وهذا تقبيح لعملية الفرار ؛ لأن الدبر محل الصيانة ومحل المحافظة. ونعلم أن هناك من قال للإمام علىّ - كرم الله وجهه - : إن درعك له صدار وليس له ظهر ، أى أن الدرع يحمى

صدرك إنما وراءك لا يوجد جزء من الدرع ليحمى ظهرك. فقال : ﴿ لا كنت إن مكنت خَصمى من ظهرى ﴾ ، أى أنه - كرّم الله وجهه - يفضل الاستشهاد على أن يُمَكِّن خصمه من ظهره، فلو أنَّ درعه من الأمام ومن الخلف، ففى هذه الحالة يكون فى نيته أن يمكِّن خصمه من ظهره، ولذلك جعل الدرع يحمى الصدر فقط، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه، ويسمون تلك الحالة الأخرى «ظاهرة ضبط النفس» أى أنها طريق لمنع الشىء أن يحدث ولو فى ساعة الشدة؛ لأن المقاتل حين يدخل المعركة، وهو يحمى صدره فقط فهو لا يتولى ليفر؛ لأنه يعلم أنه لو تولى فسيكشف لهم ظهره وسيتمكن منه عدوه وسوف يُقتل.

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فاثبتوا ﴾ لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة فى القتال. أما إذا كانت الفئة التى يواجهها المؤمنون كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وهنا طلب الحق الثبات ليعلم المؤمنون يقيناً ؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذى يجاهدون من أجله. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ ، أى تذكروا وأنتم تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره ، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتى بالنصر ، فإن خالق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتى بالنصر.

وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع فى كونه الأسباب ، فإذا استنفدنا أسبابنا ، اتجهنا إلى خالق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خانته الأسباب ينتحر أو ينهار تماماً أو يصاب بالجنون ، ولكن المؤمن يقول : إذا خانتنى الأسباب فمعى رب الأسباب وخالقها ، ويأوى إلى ركن شديد.

إن الطفل الصغير إذا اعتدى عليه أحد يقول: إن لى أباً أو أخاً سيرد عنى الإيذاء ؛ لأن الأسباب لا تعطيه قدرة الرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة

الكون كله ، وقوته موجودة دائماً . ولذلك نجد قوم موسى حين وصلوا إلى شاطىء البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا خلفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾

وكانوا منطقيين فيما قالوه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس لهم من طريق للنجاة باستخدام الأسباب العادية فى هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ قال كلا ﴾ .

أى إن فرعون وجنوده لن يدركونا ، ولم يفهم قوم موسى ؛ لأن البحر أمامهم وجنود فرعون وراءهم ، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بملء فيه قوله :

﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

أى أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب ، وإذا بالله يأمره أن يضرب بعصاه البحر ؛ فينفلق ؛ وتظهر الأرض اليابسة. ويعبر بنو إسرائيل البحر ، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطىء البحر بعد أن عبروا ، أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق. فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أى لا تتعجل وتضرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً فما أنجى الله به بنى إسرائيل سيغرق به آل فرعون ، وبذلك أنجى وأهلك بالشىء الواحد ، وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى .

و هنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها وكيف تعانى النفس من كرب عظيم، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال، ولذلك طلب من المؤمنين أن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم، فليذكروا هذا كثيراً ليوالى نصرهم على عدوهم؛ لأنهم إذا ما داوموا على ذكر الله تعالى فسيقوى هذا الذكر إيمانهم، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر.

وذكْرُ الحق كلمة ﴿ كثيراً ﴾ هنا يعنى أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد سبحانه وتعالى هنا أن يكون ذكر الله كثيراً، ليوالى الله نصر المؤمن على عدوه. ومثال ذلك : أننا نجده سبحانه وتعالى حينما يستحضر الخلق المؤمنين للصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

يطلب الحق سبحانه وتعالى ذلك من المؤمنين وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات .

ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى، وينبهنا أن نداوم على ذكره فكأنه يقول ؛ إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله، أو تعتقدوا أن ذكر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذكر الله فى كل أحداث الحياة. فإن فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين.

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به. وهكذا تكون الصلة دائمة بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

مثال ذلك ما حدث فى عام ١٩٧٣ فى معركة العاشر من رمضان، كان ذكر الله يملأ القلوب واستمد الجند من قولهم : ﴿ الله أكبر ﴾ طاقة هائلة واجهوا بها العدو، واقتحموا خط « بارليف ». وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده، وأوجد فى نفس كل منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر ؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل فى تنفيذ ما أمر به فى المنهج، وطاعة الرسول هى طاعة تطبيقية فى السلوك، وهى طاعة لله أيضاً ؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه، ولابد للطائع أن يبتعد عن التنازع مع إخوته المؤمنين ؛ لأن التنازع هو تعاند القوى، أى توجد قوة تعاند قوة أخرى، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض، فالتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة. فكونوا يداً واحدة ؛ لأنكم إن تنازعتم فستضيع قوتكم

وتقابلون الفشل ، أى لن تحققوا شيئاً مما تريدون ؛ لأنكم أهدرتم قوتكم فى التنازع ، ولم تعد لكم قوة تحققون بها ما تريدون وستذهب ريحكم فى هذه الحالة. والفشل هو إخفاق الإنسان دون المهمة التى كان يرجوها من نفسه.

وانظروا إلى عبارة الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذى حيزه الفضاء على سطح الأرض ، إذن فمكان الهواء هو أى مكان خال على سطح الأرض ، ولذلك نجد العمود المكون من الأسمنت والحديد مثلاً ، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فراغ ، أما الفواصل التى بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً. ونعلم أن مقومات الحياة طعام وشراب وهواء ، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة ؛ لأنك لا تستطيع أن تصبر على الهواء مقدار شهيق وزفير.

إذن فالهواء هو المقوم الأول لحياتك وحياة كل من فى هذا الكون ، ومادام الهواء محيطاً بالشىء بحيث يتساوى الضغط من جميع نواحيه يكون الشىء ثابتاً ، فإذا فرّغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتحطيم هذا الشىء. وفى التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء ، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلى على النار ، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود فى الجزء الفارغ من الصفيحة ليملأ البخار هذا الفراغ ، ثم يغلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً ؛ فيتكثف البخار ، ويقل حجمه ، ويصبح جزء من الصفيحة خالياً من الهواء ، فتنهار جدران الصفيحة إلى الداخل بسبب ضغط الهواء خارج الجدران ، وتفريغ الهواء داخل الصفيحة. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعذب قوماً أو ينزل بهم عقاباً ، فهو يرسل عليهم ريحاً. ويقول جل وعلا :

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾

(الآيتان سورة الحاقة)

وكذلك نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾

(من الآيتين ٢٤ ، ٢٥ سورة الأحقاف)

وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التى تغرق بأمواجها العالية :

﴿إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

إذن فكلمة ريح تعبر عن القوة المدمرة للهواء ؛ لأن الريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة. ولكن إن قابلتها ريح ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين. ولذلك حين يستخدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير. أما إن تكلم عنها للخير فسبحانه يأتى بكلمة « رياح » ؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة. فإذا أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الفرقان)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

أى أن الرياح تنقل اللقاح بين النبات، فيتم التلقيح وتنبت الثمار ويأتى الخير. ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة « ريح » وكانت تحمل الخير فى قوله تعالى :

﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة ﴿ ريح ﴾ فى هذه الآية وصفها بأنها ﴿ طيبة﴾ . وهنا فى الآية يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

و « ريحكم » أى قوتكم؛ لأن الريح هنا معناها القوة التى تدمر عدوكم. ونعلم أن السفن فى الماضى كانت تُبحر بقوة الريح. وعندما تقدّم العلم وجاء البخار والكهرباء أُلغى شراع المراكب واستخدم بدلاً منه ماكينات تدفع حركة السفينة.

وتطلق كلمة ﴿ الريح ﴾ على الرائحة، فيقال : ﴿ ريح عطرة ﴾، وهذه الرائحة تبقى فى المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة، ولكل إنسان منا رائحة خاصة، تماماً كما أنّ لكل إنسان بصمة خاصة، ولكننا لا نستطيع أن نميزها، ولكن الكلاب المدربة تميز الرائحة الخاصة بالإنسان، فيأتى الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتتبعه إلى المكان الذى ذهب إليه. أو يستطيع أن

يخـرجـه من بين عـشـرات الأشـخـاص. ولا تخـتلط رائحـة أحـد بأحـد رغم وجـودهم فى مكان واحـد، وإلا لما اسـتطاع الكلب المدرب أن يمـيـز رائحـة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين.

وقـول الحق سبـحـانه وتعـالى : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعنى بأن تنتهـوا ولا يكون لكـم أثر؛ لأنه مـادام لكـم أثر فى الأرض فلكـم ريح تميزكـم. وتـلك التى - كـمـا قلنا - أن الكلاب المدربة تميزها، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فـلا رائحـة له. ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلـم عن قصـة يوسف عليه السـلام حين ألقاه إخوته فى الجب. وعثرت عليه قافلة، ثم اشتراه ملك مصر، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عـزيز مصـر. وجـاءه إخـوته وأعطاهم يوسف عليه السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب؛ ليرتد بصيراً، بعد أن أذهب الحزن بصره، يقـول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كـان يعيش سيدنا يعقوب :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

أى أن القـافلة حين خرجـت من بين المبـانى التى يمـكن أن تكتم الـريـح بقـوة كتلتهـا ؛ لأن المبـانى لهـا إشـعـاعـات قد تكتم الـريـح وتحجبه ، وبعـد أن صـارت القـافلة فى الخلاء عـرف يعقـوب عليه السـلام ريح ابنه يوسـف من القـمـيـص الذى يحملونه : ﴿ قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

وهذه تتمة الصورة التى يريدنا الله أن نلتفت إليها ، فقد أمرهم الله أن يثبتوا فى القتال ، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد ؛ خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديد البأس.

إذن ففى المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات فى القتال وعدم الفرار ، وذكر الله كثيراً ، وعدم التنازع حتى لا تضيع قوة المؤمنين ، ويوصيهم سبحانه بالصبر ؛ لأن عدوهم قد يكون عنده صبر وجلد ، فلابد أن يمتلك المؤمن رصيداً من الجلد والصبر ؛ يُمكّنه من هزيمة عدوه ، وصفة الصبر تدل على المنافسة. وهى مأخوذة عندما كانوا يغطسون فى الماء ، فالذى يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول. ولذلك فسيدنا عباس وسيدنا عمر - رضى الله عنهما - دخلا فى منافسة فى الغطس. وقال له : نافسنى ، أى لنرى من الذى سيمكث تحت الماء أكثر - ويكون ﴿ صابرا ﴾ أى يتحمل أكثر فى المواقف الصعبة ويصبر صبراً فوق صبر الخصوم. وقوله الحق عز وجل هنا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

يثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذى انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه ، فلا تخور نفسه ؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوى ؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال ، تماماً كالولد الصغير ، إذا مشى فى الشارع وحده قد يعتدى عليه الأولاد الآخرون ، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد ، فما بالك بالإنسان الذى هو مع ربه ؛ لذلك يوصى الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه فى معية ربه وأن أى حدث ضار فى الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه.

ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة :

(يابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه.. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ؟ قال يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى) (١)

فإذا مرض إنسان فقد سُلبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ، بل يرقد فى فراشه ليتألم ، ويوضح لنا الحق سبحانه وتعالى : أنا إن سلبت منه العافية ، وهى نعمة فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة مادام المنعم معك. والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه.

وحين يكون المسلم فى معيّة الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجىء أبداً ، والمثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. هذا كلام منطقى مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطمئن أبا بكر وينفى عنه ما جاء فى باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المفروض أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر اطمئن ، إنهم لن ينظروا داخل الغار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفى ذلك قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن

(١) رواه الإمام مسلم (الترغيب والترهيب جـ ٤ صـ ٣١٧) .

فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما [١]

ومادام الله ثالثهما تكون المعيّة موجودة ، وإذا كنت فى معيّة من لا تدركه الأبصار ، أتدركك الأبصار ؟. طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم. اللهم اجعلنا فى معيّتك دائماً.

ثم يكمل الحق سبحانه وتعالى ما يريد ألا يكون عليه المؤمنون فى ساعات الشدة فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة ولم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها ، وهم قد خرجوا من مكة ليخلصوا القافلة من أيدى المسلمين ، فلما قيل لهم إنَّ القافلة نجت بقيادة أبى سفيان فارجعوا. قالوا : لا يكفينا هذا ، بل لابد أن نخرج ونقاتل محمدا ومن معه ، وننتصر عليهم وندق الطبول ونذبح الذبائح ليعلم أهل الجزيرة بخبر هزيمة محمد ومن معه فلا يجرؤ أحد أن يتعرض لقافلة من قوافلنا.

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم ، بل أرادوا أكثر مما يقتضى الموقف ، أرادوا أن يخرجوا فى مظاهرة ضلالية للمفاخرة والتكبر تُثبت أن لهم قوة.

---

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهى الأمر. وكان عليهم أن يرجعوا، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها.

إذن فالمسألة شماتة، وهذا لون من البطر؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها، وتحب أن تعلو عليها. ويقال فلان بطران إذا أحضروا له الإفطار من الفول مثلاً ويقول : إنه يريد المربى والزبد وعسل النحل. وهكذا فعل كفار قريش، فلم يكتفوا بنجاة القافلة، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ورئاء الناس﴾

أى يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا؛ السمعة بين الناس، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس فى الجزيرة العربية.

وقوله تعالى :

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا، وهم يرقصون ويغنون لانتصارهم، ويرون المسلمين وهم مختفون خائفون من مواجهة الكفار، فسوف يغرى ذلك الناس باتباع منهج الكفر، فكأن الكفار برغبتهم فى قتال رسول الله وصحبه إنما يصدون عن سبيل الله. ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى ليوضح : لا تحسبوا أنهم بعيدون عن علمى.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يغيب عنه عمل واحد مما يفعلونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفلتوا منه .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى دور الشيطان وأعوانه وما يفعله بالكافرين ؛ فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه الكفار وهم قليل وذلك من صنع الله تعالى لتتم المعركة ، وبدأ الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ويمتدحها ، ويغويهم : أنتم كثيرون ولا أحد مثلكم فى فنو ن القتال وستحصلون على النصر فى لمح البصر. لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يثبت المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار وهم قليل. والواقع أنهم قليل ؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل. ويحاول الشيطان أن يزين للكفار قتال المؤمنين ، أى يجعله محبباً إلى نفوسهم وأنهم سيحققون النصر ، ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة. وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال المسلمين فى صورة محببة إلى قلوبهم. وهنا نرى بوضوح غباء الشيطان وعجزه

عن أن يعلم قضاء الله، فلو علم ما ستنتهى إليه معركة بدر ما زين للكفار دخول المعركة؛ لأن المعركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش، وعلت صورة المؤمنين فى الجزيرة العربية كلها. ولم يكن النصر هو ما يريده الشيطان، ولكنه لجهله زين للكافرين المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أن وسوسة الشيطان للكفار كانت فى صورة تضخيم قوتهم وأن أحداً لن يغلبهم فى قتالهم ببدر، وأنه - أى الشيطان - سيناصرهم فى المعركة ويجيرهم إن حدث لهم سوء، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار ؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس له سلطان إلا التزيين فقط، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل ؟. إن الشيطان يأتى فى الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجيرهم من عذاب الله تعالى ؛ لأنه هو الذى أغواهم وزين لهم سوء أعمالهم وجرهم إلى طريق النار، فيتبرأ منهم ويقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أنه يقول للكافرين : أنا لم أجبركم على المعاصى، فلم يكن لى عليكم سلطان القهر؛ لأقهركم على أن تفعلوا شيئاً ولا سلطان الحجة لأقنعكم بأن

تفعلوا المعاصى، ولكنى بمجرد أن دعوتكم استجبتم لى ؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم . وقوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

وأصرخ فلاناً أى سمع صراخه فذهب إليه لينقذه، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتى لنجدته. والذى يسمع الصراخ إما أن يكون ضعيفاً فلا يستجيب؛ لأنه لا يستطيع أن ينقذ ذلك الذى يواجه الخطر، وإما أن يكون قوياً فيذهب لنجدته، فيقال: ﴿ أصرخه ﴾ أى أنقذه وأزال سبب صراخه، وقوله تعالى : حاكيا ما يقوله الشيطان ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

أى أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب وينقذهم منه، فيزيل سبب صراخهم : ﴿وما أنتم بمصرخى ﴾

أى أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عنى.

وقد أخذ الشيطان يزين لهم أعمالهم ويعدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويؤازرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العين.

﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أنه بمجرد الترائى بين المؤمنين والكفار، وقبل أن يلتحموا فى المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرأ من الكفار وجرى بعيداً، وهذا ما يشرحه الله تعالى فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهذا كلام منطقي مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه ؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم ؛ فقال له الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة ص)

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء أمام قوة الله ، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء ، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب ، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم ، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض ، هرب الشيطان وفزع ونكص على عقبيه ، وأعلن خوفه من الله ؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب.

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذى سيصيبه حتماً ، ولم يفزع الشيطان - إذن - حباً لله تعالى .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

« المنافق » كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش فى الجبال فى سراديب ، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه ، فهو يسرع إلى جحره الذى يشبه السرداب ، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له ، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية ، فينجو من الافتراس ، فكأنه فتح لنفسه نفقاً ، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به. ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه ؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به ، وبينما المؤمن منسجم النفس ؛ ينطق لسانه بما فى قلبه ، والكافر أيضا كذلك منسجم ينطق لسانه بما فى قلبه من الكفر ، ولكن المنافق متخبط مع نفسه ، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر ، وهكذا تتعاند ملكات المنافق ، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية ، وحسبك من المنافق أنه متعاند فى الملكات.

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالذاتية ضائعة ؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً ، ولكن الذى تتعاند ملكاته يعيش دائما فى قلق نفسى وحيرة. ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه ، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها ، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث ، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها ، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار ، ويقول الله تعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة فى أنفسهم، وتملؤهم عزة الإيمان، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد؛ لأنهم يكرهون المؤمنين؛ ولا يتمنون لهم خيراً، فهم فى نفاقهم كفار، فى قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون: أصاب هؤلاء الغرور بدينهم. ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوى العزيز، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه. والمؤمنون ينسبون كل شيء لله تبارك وتعالى؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التى لاتعد ولا تحصى، ومادامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله، فإن الله يزيده منها؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها، والمغرور يستعلى بأى خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذى لا يستعلى أبداً بها؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له، وأن الفضل لله تعالى، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والشدة هنا ليست غروراً، ولكنها طبع وملكة، ولو كانت غروراً لبقيت كما هى، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً، ولا يمكن أن يجعله إيمانه فى قالب جامد؛ لأن الإيمان يعطى المؤمنين مرونة أمام الأحداث، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة فى التعامل مع المؤمنين، ولا هو رحيم على إطلاقه؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة فى مواجهة الكفار.

وكان سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه مليء بالرحمة على المؤمنين. ولكن عندما جاءت

حـرب الردة لما نعى الزكـاة مـاذا حـدث ؟. جلس هو وعـمـر بن الخطاب ، والمعروف عن عمر أنه كـان شـديدا ، وجلسا يتشاوران ، وكـان رأى عـمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكا ة ؛ لأنهم قالوا : لا إله إلا الله ، فقال له أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعـونى عـقـالاً كـانوا يؤدونه إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ».

هذا هو أبو بكر الذى عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن فى قوة وشدة فى الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة. ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها ، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين ؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن فى مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة ، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين ، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين ، وعزيز حين تكون العزة للدين ، وذليل حين تكون الذلة للدين. إذن فقول المنافقين : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ لا يستند إلى حكم صحيح ، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم ، لماذا ؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائما وينسبون كل الفضل لله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

ومادام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

ومادام الله حكيماً فهو يعطى الحكمة للمؤمنين، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب، فلا تترك الأسباب أبداً، بل خذ بها دائما مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب . فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وأمرنا سبحانه وتعالى : بالسعى فقال عز وجل :

﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدى المؤمنين، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا فى سبيل الرزق.

وأنت حين تتواكل تنقل صفة إلى صفة؛ لأن التوكل عمل القلوب، والعمل تقوم به الجوارح، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقى للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلابد من العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل، ولابد لنا أن ننتبه إلى المنافقين فى بدر الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما فى صدورهم، أما الذين فى قلوبهم مرض فهم ضعيفو الإيمان؛ مسلمون ساعة الرخاء؛ فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك

فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى ؛ المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكاتهم متضاربة ؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة على المدينة. وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك ، وبمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تنتهى منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة ، وقد أوجد ذلك فى نفسه حقداً وغيظاً . ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان والدخول فى الإسلام ؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة ؛ لذلك نطقوا الشهادتين بألسنتهم وبقى فى قلوبهم حقد وضغينة على الإسلام ، فالواحد منهم تتجاذبه ناحيتان متعارضتان.

والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام ، وقد دخلوا إلى الدين ليأخذوا وهم لا يعطون ، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها ، وإذا أصابتهم شدة هربوا. ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا فى مكة. ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أن يهاجروا إلى المدينة ؛ خوفا من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا فى مكة ، ومرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة ؛ لأن المرض لا يعدم الحياة ، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان ، ولما جاءت عملية القتال فى غزوة بدر تشاوروا : أيذهبون مع الكفار أو لا يذهبون؟ ومع أى من الفريقين يقاتلون ؟. وقالوا : نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى كنا معهم ، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضممنا إليهم.

ومن هؤلاء قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصى ابن منيه بن الحجاج والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة . وتجمع هؤلاء مع بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر ، مؤمنا كان أو كافرا. وهم أخذوا هذا الموقف ؛ لأن صحة الإيمان فى قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا.

وما قاله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يدل على الرغبة فى اتقاء الضرر، مع أن هؤلاء فى المدينة وهؤلاء فى مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً. ولذلك اتحدت العبارة. وقال هؤلاء وهؤلاء : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين فى قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان، فبعضهم - كما علمنا - من مكة وبعضهم من المدينة. إذن فلابد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً، أى أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة. ولذلك كان الواجب أن ينتبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم.

وما معنى : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾

غررت فلاناً أى زينت له الأمر تزييناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له، وقويت استعداده لكى يقوم به، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة. فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقى بالتقسيط، كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذى كان ينوى القيام به.

ولكن ما وجه الغرور فى الدين ؟ .

إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل. فأقبلوا على الحرب بالرؤيا التى أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل، وبوعد الله لهم بالنصر، أو غرهم بأن أوضح لهم أنَّ الذى يموت مقتولاً فى هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة، وقد جعل ذلك القوى منهم والضعيف يقاتلان بقوة ؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة. وهكذا - فى رأى المنافقين - اغتر المؤمنون بدينهم.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

هذا هو الرد عليهم فى أن المؤمنين لم يغرهم دينهم، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه، وسبحانه عزيز لا يغلب، وحكيم يضع الهزيمة فى موضعها والنصر فى موضعه.

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم.

ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً ؟ . لا ، إنهم لم يجرءوا أن يعلنوها بل قالوها سرّاً فى أنفسهم، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث فى نفوسهم، وكانت هذه لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور فى نفوسهم؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح، خصوصاً إذا انتبهوا إلى قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ففى هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين فى كل معركة يخوضونها، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة، وكلّ من الأمرين خير. وكشف الحق ما يدور فى صدور المنافقين، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين بألا يؤثر فيهم كلام المنافقين؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

والذى يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر والملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث فى أبشع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا منا يتخيل أمراً عجيباً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفظيعاً لما سوف يحدث.

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت.

و ﴿يتوفى﴾ أى لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفى وهو قبض الأرواح يجيء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :
﴿ وهو الذى يتوفاكم ﴾ ومرة يأتى منسوباً لرسل من الله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ ومرة يأتى منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾

وبذلك يكون التوفى قد أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ونقول : لا تعارض فى هذه الأقوال ؛ لأن الأمر فى كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جنوده وهم كثيرون.

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقى المباشر من الله وهو عزرائيل ، ويُنسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات.

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهى اللحظة التى لا يكذب الإنسان فيها على نفسه ؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه فى الدنيا ، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول : سأشفى غداً ، ويعطى لنفسه الأمل فى الحياة ، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول : سوف أغتنى ؛ لأن الإنسان دائما يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار ، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفرَّ له من لقاء الله ، ولذلك تجد أن الذى ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده : أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوى وما ظلمته فيه ، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله. فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً ؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن. وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً ، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره.

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر ، وقال : إننى سأجيركم إذا دارت عليكم الدائرة ، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان ؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار ، وهذا هو موقف الشيطان دائماً ، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار ، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذى فى قلبه ؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم ، وهو الذى أوجب عليه العذاب الذى سيلاقيه. ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أى أنه أقسم بجلال الله وعزته . ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقه جميعاً لايحتاج لأحد منهم ، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد ، ولو آمن به الناس جميعاً

ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً. ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً. وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها. وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى مادام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار ، ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان ، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟ . لا ، ولذلك فهناك استثناء :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص فى إيمانه. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الشيطان الذى جاء على لسانه فى الآية الكريمة :

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

إذن فمادام إبليس يخاف الله ، ومادام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذى أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى ؟. خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب ، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية. ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى.

ونقول : إنه فى ساعة الكبر نسى إبليس كل شىء !!

فأنت فى حين يأخذك الكبر تتعالى ولو فى مواقع الشدة ، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد ، ولكن يختفى كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر.

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر فى نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ. ونجد إنساناً قد يتخذ فى لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله. وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (من الآية ٦١ سورة الإسراء)

إذن ففى لحظة الكبر نسى إبليس كل شىء، واندفع فى معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

وفى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

نجد أنه قد حذف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيعا، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار فى المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟ . كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه، فإذا أدار ،وجهه ليتقى الضرب، يضربونه على ظهره، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة ؛ فالمقبل عليهم

من المؤمنين يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه.

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين. ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة. أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة. ويقال: إن الملائكة معهم مقامع من حديد. أى قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم. ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جدا ولكن هذا الضرب رغم قسوته، والشرر الذى يخرج منه لا ينجيهم فى الآخرة من عذاب الحريق.

ولذلك أقبل صحابى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله.. لقد رأيت فى ظهر أبى جهل مثل شراك النعل. أى علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك ضرب الملائكة، وجاء صحابى آخر وقال: يا رسول الله.. لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفى، وقبل أن يصل سيفى إلى رقبته رأيت رأسه قدطار من فوق جسده. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبقك إليه الملك. وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

(سورة الأنفال)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

أى أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخذَ وعُذب ربما تحمل العذاب بجلد ، ولكنَّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدَ إهانة له ، فإذا كان الضرب من الذى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر.

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد فى الأرض.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاولها بيده ، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه ؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد ؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل. فسبحانه لم يفتئت عليهم.

و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذى ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

أى أن العذاب الذى يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين ؛ ما قدمت أيديهم أى بما كسبت من الآثام والمعاصى ، وعدل الله سبحانه وتعالى .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات فى القرآن الكريم ، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون : إنَّه جاء فى القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد . فهل هذا يعنى أن الله - معاذ الله - ظالم ؟. ونقول : لا ، فسبحانه ينفى الظلم عن نفسه على إطلاقه. والإنسان حين يظلم فهو ظالم ، فإذا اشتد ظلمه وتعدد ، يقال : « ظلاَّم ». إذن فهذه صيغة مبالغة فى الظلم ، مثلما تقول : فلان « آكل » وفلان « أكّال » أى كثير الأكل مبالغة فى تناول الطعام. وتقول : فلان « ناجر » أى أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً. ولكنك إذا قلت : « نجّار » كانت هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه فى صنعته ، كذلك « خائط » و « خيَّاط »، ونقول : فلان « جازر » أى يستطيع أن يذبح ، فإذا قلت : « جزَّار » أى عمله هو أن يذبح بإتقان.

إذن « فعَّال » صيغة مبالغة فى الفعل. وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفى. فأنت حين تقول : فلان « أكّال » أثبت له صفة المبالغة فى الأكل - أى كثرة الأكل ، ومن باب أولى صفة الأكل مطلقاً ، ومادمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، فإذا قلت : إن فلاناً «خياط» أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه « نجَّار » أثبت له أنه ناجر متقن للنجارة ، أما من ناحية النفى فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكَّالاً تنفى المبالغة ولكنها لا تنفى أنه يأكل ، فإذا قلت : إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للنجارة ولكنك لا تنفى عنه أنه قد يكون ناجراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علاّمة فقد يكون عالماً. وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفى الأعلى لا تنفى الأدنى . وعندما تقول : إن فلاناً ليس ظلاَّماً ، تكون قد نفيت الأعلى. ولكن لا يلزم نفى الأدنى فقد يكون ظالماً فقط وليس ظلاَّما. إذن فكلمة « ليس ظلّاماً » نفت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم. وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففى آية مثلاً يقول : ﴿ ليس بظلاَّم ﴾ فنفى الأعلى ولا يلزم من نفى الأعلى نفى الأدنى. ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النساء)

فنفى الأدنى والأعلى. وهذا فى رأيهم تضارب. نقول : هل إذا نفى الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى ؟ طبعاً لا ، إن نفى الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

نفى مبدأ الظلم، وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

نفى مبدأ المبالغة، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، فإذا قيل : إن الله نفى الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول : إن نفى الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى، إذن فلا هو بظلاَّم ولا هو بظالم. ولابد أن نلتفت إلى الإعجاز القرآنى فى الأسلوب، فالمتكلم هو الله. نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس بظلاَّم للعبد أم ليس بظلاَّم للعبيد؟ لقد قال الحق : ﴿ ليس بظلاَّم للعبيد ﴾ وهى هنا صيغة مبالغة، والمبالغة مرة تكون فى قوة الحدث وإن لم يتكرر، ومرة تكون فى المبالغة فى تكرار الحدث، والإنسان حين يظلم ظلماً بيّناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظلاَّم؛ لأنه بالغ فى الظلم، فإذا لم يبالغ فى الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاَّما نظراً لتعدد المظلومين.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ ليس بظلام للعبيد ﴾؛ ولم يقل : ليس بظلاَّم للعبد، وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة. نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادى، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقيل : ظلاَّم. وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة، إذن فهو ليس بظلاَّم للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد. ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلاَّم للعبيد.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر فى الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

و ﴿ الدأب ﴾ هو العادة التى تتكرر مع الإنسان ويقال : دؤوب على كذا ؛ أى يفعله باستمرار. ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أى عادتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسولهم ، أى أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام.

وقوله تعالى : ﴿ والذين من قبلهم ﴾

أى قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ، ما الذى حدث لهؤلاء ؟ ؛ هلاك أو استئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف. إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويقفون موقف الأذى منه ، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه السلام ، وكذلك الذين من قبلهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

فهل تركهم الله ؟ . لا . ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

فمنهم من أُغرقوا، ومنهم من أصابتهم الصاعقة، ومنهم من خسف الله بهم الأرض، ومادام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت. فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل، وقد حدثت سوابق مشابهة فى الكون وقضايا واقعية. فآل فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة فى عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح فى السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم فى صخور الجبال، ويقول الحق عن حضارة ثمود:

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وكل الحضارات القديمة قد زالت فى غالبيتها ولا أثر لها، وإن وجد أثر، فهو أثر قليل وبسيط لا يحمل كل سمات الحضارة، إلا آثار الفراعنة؛ حيث تحوى مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهى باقية، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شىء حتى الآن. لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التى يأتى إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم فى التصميم الهندسى، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار،

بل تم ذلك بتفريغ الهواء. فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين ضخمين؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولا يستطيع أحد أن يزحزحه، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسي باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهى حضارة راقية جدا. هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التى لا يعرف أحد سرها حتى الآن، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل. وكذلك إن نظرت إلى الألوان التى طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هى رغم كل ذلك الزمن الطويل، وإلى الحبوب التى حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أى تلف، بل وصالحة للطعام، هذه الحضارة التى احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن، لابد أن تكون حضارة قوية وعالية، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثارا.

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيرا وملكوا زمام الدنيا فى عصرهم ؟ لابد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم، قد دكتهم. ولماذا أتى الله بآل فرعون فى هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحضارات التى كانت قبلهم إجمالاً؟ ، فقال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورَغّبَ فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التى لم تستطع أن تحمى نفسها، وذلك الفرعون الذى ادعى أنه إله ولم يستطع أن يضمن لنفسه البقاء. وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً، ثم يروا أن الله عز وجل قد

أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً، وأن الألوهية لله وحده، وأن كل شيء هالك إلا الله؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخبر الحضارات الأخرى إجمالاً؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود. وكلهم : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الآيات الكونية التى تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وكذلك المعجزات التى يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، ثم آيات القرآن الكريم التى هى محكم منهج الله فى الأرض.

وقول الحق : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ ، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق، والأصل فى الكفر هو الستر، وكفر يعنى ستر. ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوى : كافر؛ لأنه يحضر الحب ويستره بالتراب، ويسمون الليل لغويا : كافر ؛ لأنه يستر الأشياء. والشاعر يقول :

لى فيك أجـــر مجـــاهد

إن صـــح أن اللـــيل كافـر

ومعنى « كفروا » أى ستروا وجود الله تعالى، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل أن يستروه بالكفر؛ لأن الإيمان أصل فى وجود الخلق، والخلق قد وجدوا على الإيمان، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان. إذن فكلمة

الكفر التى معناها الستر دليل من أدلة الإيمان، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟، فإذا قال لك أحد: إنه كفر - والعياذ بالله - تقول: الكفر هو الستر؛ فماذا سترت ؟ لابد أنك سترت ما هو موجود، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

أى كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة، ولم يصدقوا آيات الكتاب التى أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى:

وقوله تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم:

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

والأخذ فى قوله تعالى: ﴿ فأخذهم ﴾ كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد فى الأرض. والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفرّ منه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة القمر)

أى أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فرارا أو هروبا.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى أن الله أقوى من كل ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم. ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكنْ لكل جزاؤه على قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله ، فمهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

هذا القول لا يدخل فى الجبرية التى يقول عنها الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له

إيـاك إيـاك أن تبتل بالمـاء

ويخطىء من يظن أن الله قد كتب جبرا على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به فى نار جهنم ، لا ؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر. وعلى هذا نفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى بسبب ذنوبهم ، وما دام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحيثية لذلك فيقول تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة فى الأرض، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنسانى. وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما، ولو ساروا على المنهج الذى علمه آدم لهذه الذرية، لصارت البشرية إلى سعادة. ولكن الذرية تغيرت، وجحدوا النعمة وأنكروا أنَّ للنعمة خالقاً، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ماداموا قد تغيروا؛ لا. بل لابد - إذن - أن يغير الله نعمه عليهم، وإلا لما أصبح هناك أى منطق للدين؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم. بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة. وظل الإنسان فترة طويلة فى طفولة الحياة يرتع فى نعم الله، فقبل أن يعرف الزراعة؛ وجد الثمار التى يأكلها. وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذى يشربه، وعلمه الله كيف يعيش. وذلل له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم، وكل هذه النعم وغيرها كان لابد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم.

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة فى الأرض؟ طبعاً لا، ومادام الإنسان قد غير، لابد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر ، ومن شكر النعمة إلى جحودها ، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم ، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته ؛ لأعاد لهم الله نعَم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة.

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها ، فيقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وطبقاً لهذا القانون الإلهى نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لابد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة ، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً ، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط ، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب ؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى. ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذى يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هى قيمة المنهج ؟.

إذن لابد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان ، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً فى أعماقك وليس أمراً ظاهريا فقط ، فلا تدَّع الإصلاح وأنت تفسد ، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق ، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابى الغنى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطى نعمه الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون

باتباع المنهج الإلهى.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضى الله عز وجل فيغير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أى أن حالتهم الأولى أنهم كانوا فى نعمة ومنسجمين مع منهج الله، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة، أى أن هناك تغييرين أساسيين، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجهرهم، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر فى النفوس، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان فى أقصى الأرض.

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يتساءل البعض : لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها

مع الآية الأولى ؟. نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ وفي الآية الثانية يقول فيها :

﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التى أنزلت إليهم ، وفي هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أى لم يصونوا النعم التى أعطاها الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكاليفه ومنهجه عطاء ألوهية ، وهم فى الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أى كفروا بالله. وفي الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أى بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عَدم وأمَد من عُدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته. والله يساوى فى عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصى والطائع ، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

أى لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجى المؤمنين ويغرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التى بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذى لم نصل إلى كل أسراره حتى الآن. ولا يمكن أن تنتهى مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها. فكأن الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر

للبشرية أن تكتشف آثار آل فرعون، وآثارهم لافتة للعالم أجمع، ووضع فى قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهى الله سبحانه وتعالى، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالألوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله، وكفروا بنعمة الربوبية التى أعطاها الله لهم، والتى يذكر الله جزءا منها فى قوله الكريم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقتير، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : ﴿جنات وعيون﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التى تحفظ لهم كرامتهم؛ وتجعلهم أسياد الأرض فى عصرهم، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم، ولا أن يعتدى عليهم، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التى تحفظ لهم الكرامة فى قوله تعالى :

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان »

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة فى كل شىء، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ نجد فيها الذهب والكنوز، وقد دفنت مع موتاهم، ونجد فيها الحضارة والقوة فى المعارك التى صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان. ونرى فيها النعمة الهائلة التى كان يعيش فيها فرعون

وقومه، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخالق واهب النعم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ الدواب ﴾ جمع دابة، والدابة هى كل ما يدب على وجه الأرض، فإذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلاً فى هذا التعريف، ولكن العرف اللغوى حدد الدابة بذوات الأربع، أى الحيوانات. وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشى على أربع، فلا يدخل فى هذا التعريف. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأنفال)

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه خلق الدواب وباقى أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها فى الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛ والشىء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبداً، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

نجد أن الغراب الذى لا اختيار له، ولا عقل؛ علم الإنسان الذى له عقل

واختيار. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة. إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحيوان مقهور على التكاليف. ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة؛ تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل، ولكن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل يكفر ويعصى. رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار.

ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجبول عليه ويؤدى مهمته كما رسمت له تماماً، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليذبحوه فلا تنفعل؛ لأن هذه مهمتها فى الحياة أن تعطى للإنسان اللحم. والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرخ الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه؛ ليؤدى مهمته؛ لأنه محكوم بالغريزة. والغرائز لا تخطىء. ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له.

فإذا جئنا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشعر بالجوع، فهذه غريزة. وإذا عطش طلب الماء دون أن يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب. وكل واحد منا فى الغرائز متساو مع الآخر. ونجد الغنى والفقير والحاكم والغفير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء. فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير.

ومن العجيب - مثلاً - أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائيا ينظر إليه، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر. ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائيا لا يقدر على عبوره، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر. أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه :

سأجمع كل قوتى وأقفز قفزة هائلة ، وإن لم يكن قياسه صحيحاً ، يسقط فى الماء ، ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه. إذن فالمحكوم بالغريزة هو الأوعى.

وعندما نأتى إلى الأكل ، نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً ؛ لأنه يأكل فإذا شبع لا يذوق شيئاً. ولو جئت له بأشهى الأطعمة . فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحداً ، أو حفنة تبن ، أو حبة فول بعد أن يشبع ، وتجده يدوس على ما زاد عن حاجته بقدميه . وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه ، ثم قالوا له مثلا : أنت نسيت الفاكهة ، أو نسيت الحلوى ، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان ؛ فيتلف معدته ويتلف جسده. ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان ؛ لأنه يسرف فى أشياء كثيرة ، بل تجد أن الأمراض التى تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان.

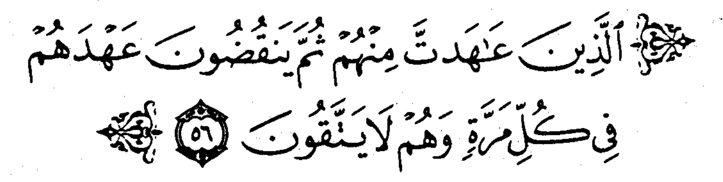
والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر ؛ لأن الدابة تؤدى مهمتها فى الحياة تماماً. بينما لا يؤدى الكافر مهمته فى الأرض ، بل يفسد فيها ويسفك الدماء ، وبذلك يكون شرا من الدابة. ولقد قلنا : إن الدّابة تحملك من مكان إلى مكان ولا تشكو ، وتحَمل أثقالك ولا تتبرم. وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض ، لقد خُلقت لهذه المهمة وهى تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر ؛ لأنهَا محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه. ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها ، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع فى حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً.

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان فى حياته منهج ربه الذى أنزله إليه ، لكن من البشر من كفر وأخذ يعربد فى الكون ، وبذلك يكون شراً من الدابة ؛

لأن الكافر لا يستخدم عقله فى أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كون قد أعد إعداداً دقيقاً ؛ شمس تضىء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليطل قمر يضىء بالليل يؤنسه فى الظلام ؛ ونجوم تهديه الطريق فى البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الزرع. وحيوان مسخر له يعطيه اللبن واللحم ويحمل أثقاله. كان لابد - إذن - للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذى خلق له كل هذه النعم ؟ لأن هذه هى من أولى مهمات العقل الذى يفكر ، ويدلنا على الخالق. وكان لابد فى هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذى صنع له كل هذه النعم وسخرها له لابد أنه يريد به خيراً. ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه ؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له ؛ لأنه جاء من خالقه.

وفى هذه الحالة كان لابد لأمور الكون أن تستقيم. ولكن بعضاً من بنى الإنسان ستروا وجود الله وكفروا به ولذلك يوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شرّ من الدواب، لأنهم لا يؤمنون.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :



وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتقل هنا للكلام عن الجماعة التى عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم، وألا يتعرض لهم الرسول، وهم اليهود، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد ؟ لا . بل نقضوا العهد .

بنو قريظة - مثلا - عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحدا، ولما جاءت موقعة بدر مدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً، وعندما جاءت غزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التى يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف فى ظهره، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنفال)

وهم قد فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا منهج الله وخافوا من رسول الله فحاولوا أن يخدعوه بنقض المعاهدات. وقوله تعالى : ﴿وهم لا يتقون﴾

إنهم لا يتقون الله - عز وجل - الذى يؤمنون به إلها ؛ لأنهم أهل كتاب ؛ جاءتهم التوراة، وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام، وهم ليسوا جماعة لم يأتها كتاب بل نزل عليهم كتاب سماوى هو التوراة، ومع ذلك لا يتبعون ما فى كتابهم ولا يتقون الله تعالى، فهم أولاً ينقضون العهد، والنقض ضد الإبرام، والإبرام هو أن تقوى الشيء تماماً كما تبرم الخيط أى تقويه، وعندما تقوى الخيط فأنت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً. فالخيط الذى طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا، فإذا فككته أي نقضته أصبح ضعيفاً، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة النحل)

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى الحكم فى هؤلاء؛ أولئك الذين لا يؤمنون،

ولا يتقون وينقضون عهدهم ؛ فيأتى فيهم القول الحق :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى إن وجدتهم فى أى حرب فشرد بهم من خلفهم .

ولنا أن نلحظ أن كلمة « إما » هى إن الشرطية المدغمة فى « ما » إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول : « إنْ مَا » ، وأدغمت نون « إن » فى «ما» ، مثلها مثل أن نقول : إن جاءك زيد فأكرمه ؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى. ولكن «ما» مع إن الشرطية تدلنا على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به ، كما نقول : كلما جاءك زيد فأكرمه ؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية ، مثل « كلما » فكلما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة ، ولو لم تجىء « ما » لكان يكفى أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى : « تثقفنهم فى الحرب » ، ثقف بمعنى وجد ، أى كلما وجدتهم فى الحرب : فشرد بهم من خلفهم ، أى اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم. وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم ، ويبتعدون عنكم ، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع ، وكما يقول المثل العامى : «اضرب المربوط يخاف السايب» . أى أن المطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة ، حتى لا يفكر فى مساندتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم فى القتال ، ولا تحدثهم أنفسهم فى أن يستمروا فى المعركة ، فشرد بهم ، والتشريد هو التشتيت والتفريق والإبعاد ولكن بقسوة. فحيثما يريدوا أن يذهبوا ؛ امنعهم وشتتهم على غير مرادهم. وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لعلهم يذكرون﴾

أى لكى تكون هذه التجربة درساً لهم ؛ كيلا يفكروا مرةً أخرى فى حربٍ

معك ؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم فيبتعدون عن مواجهتك.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله : « وإما » ومثلها مثل « فإما » فى الآية السابقة وقد تم التوضيح فيها ، وهنا يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب ، بل يدبرون لخيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونقول : هل هذه الخيانة مقطوع بها ؟ أو أنت أخذت بالشبهات ؟. الله سبحانه وتعالى هنا يفرق بعدالته فى خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة غير المقطوع بها ، فالخيانة المقطوع بها لها حكم ، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى بلغك أنهم سيخونونك ، ماذا تفعل فيهم ؟ .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى أنه مادام هناك عهد والعهد ملك لطرفين ، هذا عاهد وذاك عاهد ، فإياك أن تأخذهم على غرة ، بل انبذ إليهم ، والنبذ هو الطرح والإبعاد ، أى عليك أن تلغى العهد الذى بينك وبينهم ، وتنهيه ، وتبعده بكراهية. فساعة تخاف الخيانة

أبعدهم، ولكن لا تحاربهم قبل أن تعلِمَهُم أنك قد ألغيت العهد بسبب واضح معلوم.

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة - كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية - وكان الصلح يقضى ألا تهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وضربوهم، أى أن قريشاً خانت العهد، ونقضت الميثاق الذى كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بمعاونتها بنى بكر فى الاعتداء على خزاعة حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فماذا فعل الناجون من خزاعة ؟. أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعى يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة وقال: إن قريشاً أخلفتك الوعد ونقضت ميثاقك، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سراً، بل أبلغ قريشاً بما حدث. وأنه طرح العهد الذى تم فى صلح الحديبية بينه وبين قريش.

وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث. رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله.

إذن فإن وجدت من القوم الذين عاهدتهم بوادر خيانة فانبذ العهد، أما إن تأكدت أنهم خانوك فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب، تماماً كما فَعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه فى غزوة الخندق ونقضوا العهد والميثاق.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

فكأن الله تعالى برىء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم برىء، والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام جاء ليعدل الموازين فى الأرض؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة للناس جميعاً. ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

تلاحظ أن الآية لم تقل : بين المؤمنين . ، ولكن قالت : ﴿ بين الناس ﴾ ؛ حتى لا تكون هناك تفرقة فى العدل بين مؤمن وغير مؤمن ، فغير المؤمن مخلوق لله ، استدعاه الله إلى هذا الوجود ، وسبحانه قد أعد له مكانه فى هذا العالم ؛ لذلك لابد أن تراعى العدل معه فى كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه ؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله . وقد كان هذا السلوك العادل الذى أمر به الله سبباً فى دخول عدد كبير فى الإسلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

أى لا تناصر - يامحمد - الخائنين حتى وإن كانوا من أتباعك . وقد نزلت هذه الآية عندما سُرق درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار ، وحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من بيت يقال لهم : بنو أبيرق . فجاء صاحب الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعى ، فلما علم السارق بما حدث ، وضع الدرع فى جوال دقيق وأسرع وألقاه فى بيت رجل يهودى اسمه زيد بن السمين . وقال لعشيرته : إنى وضعت الدرع فى منزل اليهودى زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله إن صاحبنا برىء . والذى سرق الدرع هو فلان

اليهودى. وذهب الصحابة فوجدوا الدرع فى جوال دقيق فى بيت اليهودى. ولكن اليهودى أنكر أنه سرق الدرع وقال: لقد أتى به طعمة بن أبيرق ولم يلحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن بالجوال ثقباً صغيراً، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض، وذلك من غفلته؛ لأن الله لابد أن يترك دليلاً للحق يهتدى به القاضى حتى لا يضيع الحق؛ فتتبع المسلمون علامة الدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أبيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم. ولكنه اتهم اليهودى كذباً بالسرقة. وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن حكمت لليهودى على المسلم يكون المسلمون فى خسة ودناءة وحرج، وإذا بالوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه من تعدى خواطره فى هذه المسألة:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعا عن أى واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً. وهكذا كان عدل الإسلام فى أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهوديا، ألا يرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين الإسلامى دين العدالة والإنصاف ليكونوا فى أحضانه؟!

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أي قل لهم إني ألغيت هذا العهد الذي بيني وبينكم وأصبحت في حل منه .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾

يبين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسوبين للإسلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ ﴾

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار في حرب ، قُتل فريق من الكفار ، وأُسر فريق آخر منهم ، وفر فريق ثالث ، وأما الذين قتلوا والذين أسروا فقد أخذوا جزاءهم ، والذين فروا نجوا من القتل ومن الأسر ، فكأنهم سبقوا فلم يلحق بهم المسلمون الذين أرادوا أن يقتلوهم أو يأسروهم . والسبق أن يوجد شيء يريد أن يلحق بشيء أمامه فيسبقه ؛ ولا يستطيع اللحاق به . فكأن الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا بهم لقتلوهم أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التي يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هي أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبقوا ، ولم تلحقهم أيدي المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوف يأتيهم العذاب في وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما في معركة ثانية .

وعادة نجد أن كلاً من السابق والمسبوق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثاني ليلحق به. ولذلك عندما تراهما فقد تتعجب من القوة التي يجري كل

منهما بها، وهذه هى الطبيعة الإنسانية، فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة وقدرة. وساعة الأحداث المفاجئة تكون له أى للإنسان ملكات أخرى. فإذا غرقت سفينة فى البحر مثلاً وتعلق واحد من ركابها بقطعة خشب من حطام السفينة، تجده يسبح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب. فإذا وصل إلى الشاطىء خارت قواه.

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلى هى الغدة الكظرية، إذا وقع فى مأزق مفاجىء تفرز مادة « الادرينالين » وهذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التى يحتاجها الجسم، ولذلك تجد الإنسان الذى يصارع الموج فى البحر تمده هذه الغدة بالوقود، فإذا وصل إلى الشاطىء توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب.

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجرى وراء غزال ليأتيه به، والكلب يجرى يريد اللحاق بالغزال، والغزال يجرى طلباً للنجاة، وفجأة التفت الغزال إلى الكلب وقال له : لن تلحقنى؛ لأنى أجرى لحساب نفسى وأنت تجرى لحساب صاحبك.

فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قويا. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنفال)

أى إنهم فى قبضة المشيئة لايخرجون عن قدرة الله الذى سيحضرهم ويحاسبهم.

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عمن حارب، ومن عاهد وغدر، ومن

فر وسبق، ومن يريد أن يلحق به، أراد أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى ألا نقصر فى إعدادنا للقوة التى تعيننا على ملاقاة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب؛ لأننا قد نفاجأ بها فلا نستطيع أن نستعد، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتى ساعة القتال ذاتها، لا، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن
رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ﴾ يعنى أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم ، والذين أسروا ، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً ، كل هؤلاء لابد أن تعد لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة.

ولماذا قدر استطاعتهم ؟

لأن الإنسان محدود بطاقة، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه. ولذلك

أنت تعد قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك. وإذا ما صنعت قدر استطاعتك، إياك أن تقول: إن هذه الاستطاعة لن توصلنى إلى مواجهة ما يملكه خصمى من معدات يمكن أن يهاجمنى بها، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوى، ومادام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوى مهما كان عدوك، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح لهم: إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنكم أنى معكم، تذكروا آية واحدة أنزلتها، وهى:

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

وساعة يلقى الله عز وجل فى قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوى الأسلحة، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأية قوة أعدوها. وقوله تعالى:

﴿ ما استطعتم من قوة ﴾

هذه القوة قد تكون ذاتية فى النفس بحيث لا تخاف شيئاً، فجسم كل مقاتل قوى ممتلىء بالصحة وله عقل يعمل باقتدار وإقبال على القتال فى شجاعة، بالإضافة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شىء موصول بالقوة. وكان الهدف قديماً وحديثاً أن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه. وفى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمى السهام هو رمز القوة. فأول ماتبدأ الحرب يضربون العدو بالنبال، فإذا زحف العدو وتقدم يستخدمون له الرماح، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف. وكانت أحسن قوة فى الحرب هى

السهام التى ترمى بها خصمك فتناله وهو بعيد عنك، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك. ولذلك عندما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال فيما يرويه عنه عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، ثم قال : «ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى». [1]

لأنك بالرمى تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك، فإذا تفوقت فى الرمى كنت أنت المنتصر عليه .

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب فى العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة ؟ لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هى السلاح ؛ لأنها المحقق للنصر لبعد مداها، ثم جاءت الطائرات لتصبح هى السلاح الأقوى؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقى بقنابلها وتعود. وصارت قوة الطيران هى التى تحدد المنتصر فى الحرب؛ لأنها تلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عليها مادام غير متفوق فى الطيران، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات، إلى آخر الأسلحة المتطورة التى تتسابق على اختراعها الدول الآن، وكلها أسلحة بعيدة المدى، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال أرضها. ويضيف الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ورباط الخيل هو القوة التى تحتل الأرض، فمهما بلغت قدرتك فى الرمى فأنت لا تستطيع أن تستولى على أرض عدوك، ولكنَّ راكبى الخيل كانوا

(١) رواه الإمام مسلم وغيره.

يدخلون المعركة فى الماضى بعد الرمى ليحتلوا الأرض. وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن. فالمعركة تبدأ أولاً رمياً بالصواريخ والطائرات حتى إذا حطمت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطمه ولكنها لا تأخذ الأرض. ولكن الذى يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات، ورباط الخيل هو عقده للحرب، أى أن الخيل تُعد وتُعلف وتدرب وتكون مستعدة للحرب فى أية لحظة، تماماً كما تأتى للمدرعات وتعدها إعدادا جيداً بالذخيرة ، وتصلح ماكيناتها وتتدرب عليها لتكون مستعداً للقتال فى أى لحظة. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعةً أو فَزْعةً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مظانَّه ، ورجل فى غنيمة فى شَعَفَة من هذه الشعفاء وبطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى خير (١) .

أى أنه لا ينتظر بل ينطلق لأى صيحة. ومن الإعجاز فى الأداء القرآنى أنه أعطانا ترتيباً للحرب، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمى، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البرى، ولا يحدث العكس أبداً. ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال، فهى أولاً الرمى، وبه نهلك مكيناً ثم نستولى على المكان، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذى تقوم مقامه المدرعات الآن. ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى القرآن الكريم بالأداء الذى يعلم ما تأتى به الأيام من اختراعات الخلق، ونجد فى زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة

(١) رواه مسلم والنسائى ، وورد فى الترغيب والترهيب جـ ٢ صـ ٢٤٧ .

إنما تقاس منسوبة إلى الخيل، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان.

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالقصد - إذن - من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم؛ لأن مجرد الإعداد للقوة، هو أمر يسبب رهباً للعدو. ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة، وحين تبين لخصمك القوة التي تملكها لا يجترىء عليك، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر « التوازن السلمى » . والذى يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتى هو التوازن السلمى بين مجموعات من الدول، بالإضافة إلى العامل الاقتصادى المكلف للحرب، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما. وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب. وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى.

وهكذا صار الإعداد للحرب ينفى قيام الحرب.

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً ؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين. وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين. وأن ينكل بهم، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يغريهم على ذلك. فالحق سبحانه وتعالى لا يغضب ؛ لأنهم لم يؤمنوا به، بل لأنهم لا يطبقون المنهج

الذى يسعد الإنسان على الأرض ، فسبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد فى الأرض وبغيهم وطغيانهم.

﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكنَّ هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم ، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون فى ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين ، ولكنَّ هناك كثيراً ممن لا يظهرون فى ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين. وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة ، ولايزال يظهر للمسلمين ، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين ، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم. ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن. وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم.

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالى هواجس النفس البشرية ، وهى تنصت لهذه الآيات من الإعداد العسكرى ، فالذى يخطر على البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالاً ، ويتطلب جهداً ، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج. فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد ؛ لأن كل ما تنفقونه فى سبيل الله محسوب عند الله. وإياكم أن تقولوا : إنّ الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالاً ويقتر على الأبناء ؛ لأن الله يرزقكم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

أى أن ما تنفقونه مما يقال له : شيء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم ، ولقد جاء التعبير بـ ﴿ من شيء ﴾ في قوله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ أى مما يقال له شيء. ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة ، ولكن قوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾ أى من بداية ما يقال له شيء ، حتى قالوا : إن الخيط الذى يوجد عند العدو لابد أن يذهب للغنائم ، وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

. يعنى أى شيء تنفقونه فى سبيل الله تعالى مدخرلكم ما دمتم أنفقتموه وليس فى بالكم إلا الله عز وجل . أما الإنفاق الذى ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو الحصول على الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح. فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق فى سبيل الله ، لكن الإنفاق فى سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

أى أن ما تنفقونه فى سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً.

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء ؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فمادام لدينا استطاعة وأعددنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالغرور ونجترىء على خلق الله ؛ ولهذا فإن الله عز وجل ينبهنا إلى ذلك بقوله :

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

أى أن الله لم يطالبنا بأن نكون أقوياء لنفترى على غيرنا، فهو لا يريد منا إعداد القوة للاعتداء والعدوان، وإنما يريد القوة لمنع الحرب ليسود السلام ويعم الكون؛ لذلك ينهانا سبحانه وتعالى أن يكون استعدادنا للقتال وسيلة للاعتداء على الناس والافتراء عليهم. ولهذا فإن طلب الخصم السلم والسلام صار لزاماً علينا أن نسالمهم. وإياك أن تقول : إن هذه خديعة وإنهم يريدون أن يخدعونا؛ لأنك لا تحقق شيئاً بقوتك، ولكن بالتوكل على الله عز وجل والتأكد أنه معك، والله عز وجل يريد الكون متسانداً لا متعانداً. وهو سبحانه وتعالى يطلب منك القوة لترهب الخصوم. لا لتظلمهم بها فتقاتلهم دون سبب. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إن مالوا إلى السلم ودعوك إليه فاتجه أنت أيضاً إلى السلم، فلا داعى أن تتهمهم بالخداع أو تخشى أن ينقلبوا عليك فجأة؛ لأن الله تعالى معك بالرعاية والنصر، وأنت من بعد ذلك تأخذ استعدادك دائماً بما أعددته من قوتك.

وقول الحق :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إياك أن تتوكل أو تعتمد على شيء مما أعددت من قوة؛ لأن قصارى الأمر أن تنتهى فيه إلى التوكل على الله فهو يحميك. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك فيقول :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى أنه لا شيء يغيب عن سمعه إن كان كلاماً يقال، أو عن علمه إن كان فعلاً يتم. وإياك أن تخلط بين التوكل والتواكل، فالتوكل محله القلب والجوارح تعمل؛ فلا تترك عمل الجوارح وتدعى أنك تتوكل على الله، وليعلم المسلم أن الانتباه واجب، وإن رأيت من يفقد يقظته لابد أن تنبهه إلى ضرورة اليقظة والعمل، فالكلام له دور هنا، وكذلك الفعل له دور؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

ولنلحظ أن قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا القول إنما جاء بعد قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهى آية تحض على الاستعداد للقتال بإعداد العدة له.

ويريد الحق تبارك وتعالى أن ينبهنا إلى أن قوة المؤمنين واستعدادهم الحربى يجب ألا يكونا أداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال. ولذلك ينبهنا سبحانه وتعالى إلى أنهم لو مالوا إلى السلم فلا تخالفهم وتصر على الحرب؛ لأن الدين يريد سلام المجتمع، والإسلام لا ينتشر بالقوة وإنما ينتشر بالإقناع والحكمة. فلا ضرورة للحرب فى نشر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذى يقنع الناس بقوة

حجته ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان، لنكون على أهبة الاستعداد لملاقاة الكافرين، ولكن دو ن أن تبطرنا القوة أو تدعونا إلى مجاوزة الحد، فإن مالوا إلى السلم، علينا أن نميل إلى السلم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع الإنساني. وإن كنتم تخافون أن يكون جنوحهم إلى السلم خديعة منهم حتى نستنيم لهم، ثم يفاجئونا بغدر، فاعلم أن مكرهم سوف يبور؛ لأنهم يمكرون بفكر البشر، والمؤمنون يمكرون بفكر من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ ﴾

فإذا أحسست أن مبادرة السلم التى يعرضونها عليك هى مجرد خديعة حتى يستعدوا لك ويفاجئوك بغدر ومكر، فاعلم أن الله تعالى عليم بمكرهم، وأنه سيكشفه لك، ومادام الله معك فلن يستطيعوا خداعك، وإذا أردت أن يطمئن قلبك فاذكر معركة بدر التى جاءك النصر فيها من الله تعالى وتمثلت أسبابه المرئية فى استعداد المؤمنين للقتال ودخولهم المعركة. وتمثلت أسبابه غير المرئية فى جنود لم يرها أحد، وفى إلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وكان النصر حليفك بمشيئة الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾

والخداع هو إظهار الشيء المحبوب وإبطان الشيء المكروه، وتقول: «فلان يخادعنى» أى يأتى لى بشيء أحبه، ويبطن لى ما أكرهه، ولأن الخداع فى إخفاء ما هو مكروه، وإعلان ما هو محبوب، فهل أنت يا محمد متروك لهم، أم أن لك ربا هو سندك، وهو الركن الركين الذى تأوى إليه؟. وتأتى الإجابة

من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالله سبحانه وتعالى حسبك وسندك وهو يكفيك ؛ لأنه نصرك وآزرك. وأنت ترى أن هذه قضية دليلها معها ، فقد نصرك ببدر رغم قلة العدد والعُدد.

والتأييد تمكين بقوة من الفعل ليؤدى على أكمل وجه وأحسن حال ، ومادام الله عز وجل هو الذى يؤيد فلابد أن يأتى الفعل على أقوى توكيد ليؤدى المراد والغاية منه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

والتأييد هنا عناصره ثلاثة : الله يؤيد بنصره ، والله يؤيد بالمؤمنين ، والله يؤلف بين قلوب المؤمنين. والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل لقوم لهم عصبية وحمية ، وهم قبائل متفرقة تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب ؛ لأن عناصر التنافر موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف.

إن القبيلة مجتمعة تهب للدفاع عن أى فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف ، حتى إنه ليكفى أن يسب واحد من الأوس مثلاً واحداً من الخزرج لتقوم الحرب بين القبيلتين ، ولو أن القلوب ظلت على تنافرها لما استطاعت هذه

القبائل أن تواجه أعداء الإسلام، ولشغلتها حروبها الداخلية عن نصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار. ولكن الله ألف بينهم، وبعد أن كانوا أعداءً أصبحوا أحباباً. وبعد أن كانوا متنافرين أصبحوا متوادين.

وهكذا ألف الله بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم. فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب. وحين تتآلف القلوب؛ فهذا أقوى رباط؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة فى القلب.

إن القلب هو مصدر النية التى يتبعها السلوك، فالذى يحرك إنساناً مَوْتوراً منك ويثير جوارحه ضدك، إنما هو القلب، فإن وجدت إنساناً يعبس فى وجهك فافهم أن فى قلبه شيئاً، وإن لقيته وحاول أن يضربك فافهم أن فى قلبه شيئاً أكبر، وإن حاول أن يقتلك، يكون فى قلبه شعورٌ أعمق بالبغض والكراهية.

إذن فالينبوع لكل المشاعر هو القلب. ولذلك نرى الإنسان يُضَحِّى بكل شىء وربما ضحَّى بحريته وبماله فى سبيل ما آمن به واستقر فى قلبه، ونحن نرى العلماء فى معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من متع الحياة الدنيا لأن العلم قد تحول إلى عقيدة فى قلوبهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، فكأنما نية القلب وما يستقر فيها هى أقوى ما فى الحياة.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا فضل عظيم منه أن ألف بين قلوب المؤمنين؛ فيقول:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

(سورة الأنفال)

والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير رضى الله عنهما : (ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله).

والحديث بتمامه: « انّ الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »(١)

ولم تكن المسألة فى تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لايمكن أن يعطى الحب الحقيقى، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح وارتباط قلوب، وارتباط المصالح ينتهى بمجرد أن تهتز أو تنتهى هذه المصالح، لكن ارتباط القلوب يتحدى كل الأزمات، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك حقيقة مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب الحقيقى لا يشترى ولا يباع، إنما يشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية. والعرب الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما تهمهم الحمية والعصبية، فغالبيتهم يملكون الثروات، ولكن الفُرْقة فيما بينهم نابعة من الحمية والعصبية التى تجعل فى القلوب غلاً وحسداً وحقداً؛ لذلك تنفعل جوارحهم. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنفال)

ومادام الله سبحانه وتعالى له عزة فهو لا يغلب، ومادام حكيماً فهو يضع الأمور فى مكانها السليم، والله سبحانه وحده هو القادر على أن يجعل

(١) رواه الشيخان : البخارى ومسلم.

القلوب تتآلف ؛ لأن القلوب فى يد الرحمن يقلبها كما يشاء ، لذلك ندعو بدعاء رسول الله : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، فعن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة رضى الله عنها يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .(١)

وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى قضية إيمانية فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وإياك أن تظن أن الله عز وجل يعاقب الكفار لأنهم لم يؤمنوا برسل الله فقط ، ولكن لأن الكون يفسد بسلوكهم ، وهو سبحانه غير محتاج لأن يؤمن به أحد ، ثم إن دين الحق سينتصر سواء آمن الناس به أم لم يؤمنوا ، وسبحانه يريد بالمنهج الذى أنزله كل الخير والسعادة لعباده ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

فإذا دخل أحد فى الإسلام فلا يمن على الله أنه أسلم ؛ لأن إسلامه لن يزيد فى ملك الله شيئاً ، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليه بهدايته للإسلام وهى لصالحه. ويريد الله من رسوله ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم ؛ لأن

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

معه الأقوى، وهو الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول:

﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

أى يكفيك الله.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

هى داخلة فى ﴿ حسبك الله ﴾ . لأن الله هو الذى هدى هؤلاء المؤمنين للإيمان فآمنوا.

ويكون المعنى: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، أى يكفيكم الله، وعلى ذلك فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب. ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

وهذا النداء إنما يأتى فى الأحداث؛ أما البلاغ فيقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى ينادى الرسول بـ ﴿ يأيها النبى ﴾ حين يكون الأمر متعلقا بالأسوة السلوكية، أما إذا كان الأمر متعلقا بتنزيل تشريع، فالحق سبحانه يخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ يأيها الرسول ﴾ ذلك أن الرسل جاءوا مبلغين للمنهج عن الله، ويسيرون وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية. على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كل رسول باسمه فى القرآن الكريم

فقال: « يا موسى »، وقال: « يا عيسى بن مريم »، وقال: « يا إبراهيم ». إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد خاطبه بـ: « يأيها النبى »، وبـ« يأيها الرسول »، وهذه لفتة انتبه إليها أهل المعرفة، وهذا النداء فيه خصوصية لخطاب الحضرة المحمدية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وينادى سيدنا نوحاً قائلاً سبحانه:

﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وينادى سيدنا موسى فيقول:

﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وينادى سيدنا عيسى فيقول:

﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

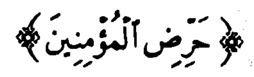
فكل نبى ناداه الحق تبارك وتعالى ناداه باسمه مجرداً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل له قط: يا محمد، وإنما قال: « يأيها النبى »، و« يأيها الرسول». والحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها أراد أن يلفت نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يعلم أنه يكفيه الله والمؤمنين مهما قل عددهم لينتصروا على الكفار.

ثم يأتى النداء الثانى من المولى تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وساعة تسمع أن فلانا يحرض فلاناً، فهذا يعنى أنه يحثه، ويثير حماسه ويغريه على أن يفعل، وأنواع الطلب كثيرة، فهناك طلب نسميه نداء، أى تناديه، وطلب نسميه أمراً أى تفعله، وطلب نسميه نهياً، أى لا تفعله. هذه كلها أفعال طلب يسبقها النداء. هناك مثلاً طلب أن يُقبل عليه، وطلب آخر أن يبتعد عنه، وطلب ثالث أن يقضى له حاجة، كل هذا يعنى أن المتكلم يعرض على السامع أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا. وهناك لون من الطلب لا يحمل الإلزام، بل هو عَرْض فقط (وهو الطلب برفق ولين) كقولك لمن تعلوه : أنا لا آمرك، بل أعرض عليك فقط. وهناك لون ثالث من الطلب تحمله كلمة «حض» وهو الطلب بشدة؛ لأن المعروض معه دليل الإقبال عليه. فأنت حين تحض ابنك على المذاكرة مثلاً فهناك مبرر الإقبال على المذاكرة وهو النجاح. وأنت حين تحض الإنسان على فعل، فأنت لا تنهاه أو تأمره لأنك تريد أن يقبل على الشيء بحب، ولكن حين تأمره بقسوة قد يكره هذا الشيء. وقد تعرض على إنسان شيئاً فتجده يحب أن يفعله ولو بدون أمر منك.

إذن فقول الله تعالى :



(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى حثهم وحضهم وحمسهم، والفعل يتكون من الحاء والراء والضاد، ومنها « حرض » و « يحرض » ومادة هذه الكلمة معناها القرب من الهلاك. ونجد قول الحق تبارك وتعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم:

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(سورة يوسف)

أى أنك ستستمر فى ذكر يوسف حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل.

ولكن هل معنى « حرِّض » هنا يعنى : قرب المؤمنين من الهلاك ؟ نقول: لا؛ لأن ما يسمونه الإزالة، وهى أن يأتى الفعل على صورة يزيل أصل اشتقاقه، عندما تقول : « قشرت البرتقالة » أى أزلت قشرتها. وكذلك قولنا : «مرّض » الطبيب فلانا وليس المعنى أن الطبيب قد أحضر له المرض، ولكن معناها أزال المرض، إذن فهناك أفعال تأتى وفيها معنى الإزالة. ويأتى معنى الإزالة مرة بتضعيف الحرف الأوسط مثل « حرَّض » و « قشَّر » ومرة تأتى بهمزة، فتعطى معنى الإزالة، فإذا قلت: « أعجم الكتاب ». فمعناها أنه أزال عجمته، ولذلك نسمى كتب اللغة « المعاجم »، أى التى تزيل خفاء اللغة وتعطينا معانى الكلمات. ومن قبل شرحنا معنى « قسط » و « أقسط »؛ وقسط تعنى « الجور » أى الظلم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

(سورة الجن)

وأقسط أى أزال الظلم. إذن فهناك حروف حين تزاد على الكلمة؛ تزيل المعنى الأصلى لمادتها. وهناك تشديد يزيل أصل الاشتقاق مثل « قشّر » أى أزال القشر، و « مرَّض» أى أزال المرض. و « حرَّض » أى أزال الحرض.

ومعنى الآية الكريمة : اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال. وهذه القاعدة اللغوية تفسر لنا كثيراً من آيات القرآن الكريم. ففى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة طه)

الذين يأخذون بالمعنى السطحى يقولون : « أكاد أخفيها » أى أقرب من أن أسترها ولا أجعلها تظهر ، ونقول : الهمزة فى قوله : « أكاد » هى همزة الإزالة ، فيكون معنى « أكاد » أى أننى أكاد أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى والعلامات الكبرى التى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. وبعضهم قد أرهق نفسه فى شرح « أكاد أخفيها » ولم ينتبهوا إلى أن إزالة الاشتقاق تأتى إما بتضعيف الحرف الأوسط ، وإما بوجود الهمزة. وقول الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تحريض المؤمنين على الجهاد وكأنه يقول له : ادع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم ؛ لأنهم إن لم يجاهدوا لتغلب عليهم أهل الكفر ، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغلبة والجبروت ، وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

فكأنهم إن لم يحاربوا أهل الكفر سوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة. والله سبحانه وتعالى يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا والجنة فى

الآخرة. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وضع معياراً إيمانيا فى القتال بين المؤمن والكافر، والمعيار هنا وضعه خالقهم، وخالق قواهم وملكاتهم وعواطفهم. والمعيار الإيمانى هو فى قوله تعالى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالمعيار الإيمانى باختصار يساوى واحداً إلى عشرة، أى أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار، هذا هو المقياس. وهنا يأتى بعض الناس ليقول: أساليب القرآن مبنية على الإيجاز وعلى الإعجاز، فلماذا يقول الحق سبحانه وتعالى: « عشرون يغلبوا مائتين » . ثم يقول «مائة يغلبوا ألفا»؛ ألم يكن من الممكن أن يقال: إن الواحد يغلب عشرة وينتهى القول ؟.

نقول: إنك لم تلاحظ واقع الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب مع المؤمنين فى قتالهم ويحضر معهم بعضاً من أحداث القتال التى نسميها « غزوات » . أما البعثات القتالية التى لم يخرج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكتفى فيها بإرسال عدد من المؤمنين، فقد كانت تسمى سرايا، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين مقاتلاً ولا تزيد على مائة، فذكرها الله تعالى مرة بالعشرين ومرة بالمائة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾

(من الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

ونحن نرى أن المقياس هنا ليس بعدد المقاتلين فقط، ولكن لابد أن يكونوا موصوفين بالصبر، وفى آية أخرى بالصبر والمثابرة، فمن الجائز أن يصبر عدوك فعليك حينئذ أن تصابره، أى إن صبر قليلاً، تصبر أنت كثيراً، وإن تحمل مشقة القتال، تتحمل أنت أكثر. إذن فالقوة القتالية لكى يتحقق بها ولها النصر لابد أن تكون قوة صابرة قوية فى إيمانها قادرة على تحمل شدة القتال وعنفه.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى تعليل هذا الحكم الإيمانى الذى أبلغنا به فيقول عز من قائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالسبب فى أن المؤمن يغلب عشرة من الكفار، هو أن الكفار قوم لا يفقهون، وماداموا لا يفقهون، يكون المقابل لهم من المؤمنين قوما يفقهون. وهنا نقارن بين المؤمنين الذين يفقهون، والكفار الذين لا يفقهون ونقول: إن الكافر حين يقاتل لا يعتقد فى الآخرة، وليس له إلا الدنيا ويخاف أن يفقدها، ولذلك حين يوجد الكافر فى ساحة الحرب فهو يريد أن يحافظ على حياته ولو بالفرار، ولكن الدنيا بالنسبة للمؤمن رحلة قصيرة والشهادة هى الفوز برضوان الله ودخول الجنة بلا حساب، ولذلك فإنه يقبل على القتال بشجاعة من يريد الاستشهاد. ونجد خالد بن الوليد يقول للفرس: أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

فلو أن الكفار فقهوا أى فهموا أن الدنيا دار ممر ومعبر للآخرة، وأن الآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية، لا متلكوا قوة دافعة للقتال، ولكنهم يريدون هذه الحياة لأنها بالنسبة لهم هى كل شىء. ولذلك يعلمنا القرآن الكريم فيقول:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى لن يحدث لنا فى هذه الحرب إلا ما هو حسن، فإما أن ننتصر ونقهركم ونغنم أموالكم، وإما أن نُسْتَشْهَدَ فندخل الجنة وكلاهما حسن. ويكمل الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى أنكم أيها الكفار لن يصيبكم إلا السوء والخزى. إما عذاب شديد من عند الله بغير أسباب، وإما عذاب بأيدينا أى بالأسباب. إذنْ فالكافر حين يدخل المعركة لا ينتظر إلا السوء، إما أن يقتل ويذهب إلى جهنم - والعياذ بالله - ، وإما أن يصيبه الله بعذاب يدفع الخوف فى قلبه أثناء المعركة. والكفار فى القتال لا يعتمدون إلا على قوتهم وعددهم وعُدتهم؛ أما المؤمنون فيعتمدون أولاً على الله القوى العزيز ويثقون فى نصره. ولذلك يقبلون على القتال ومعهم رصيد كبير من طاقة الإيمان وهى طاقة تفوق العدد والعدة، ويكون المقاتل منهم قويا فى قتاله متحمساً له؛ لأنه يشعر أنه مؤيد بنصر الله. ونعلم أن كل إنسان يحرص على الغاية من وجوده؛ وغاية الكفار متاع الحياة الدنيا المحدود، أما غاية المؤمنين فممتدة إلى الآخرة. ولذلك فالكافر يحارب بقوته فقط وهو مجرد من الإيمان.

ونلاحظ أن النصوص خبرية فى قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والنصوص الخبرية ليس فيها طلب ، ، وإن كان الطلب يخرج مخرج الخبر ليوهمك أن هذا أمر ثابت. وعندما قام بعض المتمردين من سنوات ودخلوا الحرم بأسلحتهم وحاصروا الناس فيه قال بعض السطحيين: إنَّ القرآن يقول:

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وأن هذا خبر كونى معناه أن كل من دخل الحرم كان آمناً، وقلنا: إن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ هذا كلام الله ؛ فمن أطاع الله فليؤمِّن من يدخل الحرم. وقد تطيعون فتؤمِّنون من يدخل الحرم وقد تعصون فلا تؤمِّنونهم. إذن فالمسألة هى حكم تطيعونه أو لا تطيعونه، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢٨ سورة البقرة)

هذا كلام خبرى. فإن أطاعت المطلقة الله ؛ انتظرت هذه الفترة، وإن عصت لم تنتظر، وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وقد نرى فى الكون زيجات عكس ذلك ؛ تجد رجلاً لئيماً يتزوج بامرأة طيبة ؛ وامرأة لئيمة تتزوج رجلاً طيباً، وقد تتساءل: لماذا لم يتزوج الطيب طيبة مصداقاً لقول الحق، ولماذا لم يتزوج الخبيث خبيثة ؟

ونقول: لقد أخطأت الفهم لقول الله تعالى، فما قاله الله ليس خبراً كونيا، ولكنه خبر تشريعى ومعناه: زوجوا الطيبات للطيبين، وزوجوا الخبيثات

للخبيثين، فإن فعلتم استقامت الحياة، وإن عصيتم لا تستقيم الحياة؛ لأن الرجل الخبيث إن عاير امرأته وأهانها فهي ترد عليه الإهانة بالمثل ويكون التكافؤ موجوداً حتى في القبح. ولكن الشقاء في الكون إنما يأتي من زواج الطيب بالخبيثة، والخبيث بالطيبة، وليس معنى الآية - إذن - أنك لا تجد طيباً إلا متزوجاً من طيبة، ولا خبيثاً إلا متزوجاً من خبيثة؛ لأن هذا أمر تكليفي تشريعي، فإن فعلت تكون قد أطعت، وإن لم تفعل تكون قد عصيت.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وفي هذا الحكم تخفيف عن الحكم السابق، الذي جاء فيه أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، ونعلم أن هناك شروطا للقتال، أولها أن يكون المقاتل قوى البدن وقوى الإيمان وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها بحيث يستطيع أن يناور ويغير مكانه في المعركة ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة، بل لابد من كرّ وفرّ وإقبال وإدبار وخداع للقتال ومناورات مثلما فعل خالد بن الوليد في كثير من المعارك.

إذن فلكي تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين لابد أن يتحقق في هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجلد، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجلد ضعيفاً. وقد تأتي للإنسان فترات ضعف، وتأتيه أيضاً فترات قوة. ومن رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين أنه خفف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات

ضعف تصيب الإنسان؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين. وقال سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهل معنى ذلك أن الآية الأولى قد نسخت ؟ نقول : لا ، ولكن الآية الثانية أعطت حالات الأغيار والضعف البشرى وحسبت لها حساباً. ولذلك نجد الحكم الأول.قائما وهو الحد الأعلى ، كما أن الحكم الثانى - أيضاً - قائم وهو الحد الأدنى ، فإذا لقى مؤمن ثلاثة كفار وفر منهم لا يعدُّ فاراً يوم الزحف ، ولا يؤاخذه الله على ذلك. لكن إن واجهه اثنان فانسحب وتركهما يعتبر فاراً ؛ لأن الحد الأدنى هو واحد لاثنين. وتكون هذه أقل نسبة موجودة. والنسب تتفاوت بين واحد إلى إثنين حتى واحد إلى عشرة ، حسب قوة الصبر وقوة الجسم وعدم التحيز إلى فئة. وبطبيعة الحال نعلم أن القوى قد يصير ضعيفاً. وكذلك فإن بعضاً من النفوس قد تضيق بالصبر ، وأيضاً حين زاد عدد المؤمنين ، فمن المحتمل أن يتكل بعضهم على بعض. ولكنهم عندما كانوا قلة ، كان كل واحد منهم يبذل أقصى قوته فى القتال للدفاع عن عقيدته.

والمشرع لا يشرع للمؤمنين بما يحملهم ما لا يطيقون ، ولكنه يشرع لهم ليخفف عنهم ، والمثال على ذلك نجد أن الله قد أباح الإفطار فى رمضان إذا كان الإنسان مريضاً أو على سفر ، وكذلك شرع الحق تبارك وتعالى قصر الصلاة أثناء السفر ، إذن فالمشرع قد عرف مواطن الضعف فى النفس البشرية التى تجعلها لا تقوى على التكليف. وفى هذه الحالة يقوم المشرع ذاته بالتخفيف ، ولا يتركنا نحن لنخفف كما نشاء.

وبعض الناس يقول : إن الحياة العصرية لم تعد تتحمل تنفيذ هذه التشريعات ، وأنه ليس فى وسعنا فى هذا العصر أن نلتزم ، وأن ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول لكل من يقول ذلك : لقد فهمت وسع النفس خطأ ، وكان عليك أن تقيس وسعك بالتكليف ، ولا تقيس التكليف بوسعك. والسؤال : هل كلَّف الله سبحانه وتعالى أو لم يكلف ؟ فإن كان قد كلف فذلك تأكيد على أنه فى استطاعتك ، ولا تقل : أنا سأقيس استطاعتى. ثم ابحث هل التكليف فى نطاق هذه الاستطاعة أو لا ؟ وعليك أن تبحث أولاً : هل كلفت بهذا الأمر أو لم تكلف؟ فإذا كنت قد كلفت به يكون فى استطاعتك أداء ما كلفت به ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها ؛ لا تفرض أنت استطاعة ثم تُخْضع التكليف لها ، ولكن اخضع استطاعتك للتكليف.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

و « الآن » تعنى الزمن ، وقد خفف الله أى هو سبحانه وتعالى الذى رفع المشقة ، وأنت تقول هذا الشىء خفيف وهذا الشىء ثقيل. لكن أتعرف بأى شىء حكمت بمقدار المشقة التى تتحملها فى أدائه ؟. فإن رفعت قلماً تقول : هذا خفيف ، وإذا رفعت قطعة حجر كبيرة تقول : هذه ثقيلة ، بأى شىء حكمت ؟ هل بمجرد النظر ؟ لا . فأنت لا تستطيع أن تفرق بالنظر بين حقيبتين متماثلتين لتقول هذه ثقيلة وهذه خفيفة ؛ لأن إحداهما قد تكون مملوءة بالحديد ، والثانية فيها أشياء خفيفة ؛ ولا تستطيع أن تحكم باستخدام حاسة السمع ولا

حاسة اللمس؛ لأنك باللمس لا تستطيع أن تحكم على حقيبة بأنها خفيفة والأخرى ثقيلة، ولا بحاسة الشم أيضاً.

إذن فكل وسائل الإدراك عاجزة عن أن تدرك خفة الشيء أو ثقله، فبأى شيء ندرك ؟. ونقول: قد اهتدى علماء وظائف الأعضاء أخيراً إلى أن الثقل والخفة لهما حاسة هى حاسة العضل، فحين يجهد ثقل ما عضلات الإنسان ويحملك مشقة أنه ثقيل، فهو يختلف عن ثقل لا يؤثر على العضل ولا تحس فيه بأى إجهاد؛ لأن هذا الثقل يكون خفيفاً .

إذن فهناك وسائل للإدراك لم نكن نعرفها فى الماضى واكتشفها العلم الحديث. أنت مثلاً حين تمسك قماشاً بين أصابعك تقول: هذا قماش كثيف أو سميك وهذا خفيف أو رقيق، ما هى الحاسة التى عرفت بها ذلك ؟ نقول: إنها حاسة « البين » فقد ابتعدت أصابعك قليلاً فى القماش الثقيل، وقربت من بعضها فى القماش الرقيق، وقد يصل الفرق إلى ملليمتر واحد أو أقل لا تدركه بالنظر؛ ولكن تدركه بحاسة البين.

وإياكم أن تحسبوها رياضيا وعدديا وتقولوا إن النصر بالعدد؛ لأنكم بذلك تعزلون أنفسكم عن الله، أو إنَّما تفتنون بالأسباب، فكل نصر هو بإذن الله ومن عند الله تبارك وتعالى.

ولماذا لم يقل الحق سبحانه: علم فيكم ضعفاً وخفف عنكم ؟ لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون الترخيص فى الحكم أثبت من الحكم، على أن هذا التخفيف قد يعود إلى عدة أسباب؛ منها أن حكم الله أزلى. ولذلك وضع الله سبحانه وتعالى حدا أعلى يتناسب مع قوة الإيمان فى المسلمين الأوائل، وحدا أدنى يتناسب مع ضعف الإيمان الذى سيأتى مع مرور الزمن، أو يتناسب مع العزوف عن الدنيا بالنسبة للمسلمين الأوائل، وعلى الإقبال على الدنيا بالنسبة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم، أو مع قلة الفتن التى كانت فى عصر النبوة وكثرة الفتن فى عصر كالذى نعيش فيه.

ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وأنت قد تقول : فلان سافر إلى الخليج ومعه عشرون جنيهاً. فإذا اندهش من يسمعك وتساءل : « ماذا يفعل بهذا المبلغ الصغير » ؟ تقول له : إن معه فلاناً «المليونير» فيطمئن السائل . فإن قلت : إن فلاناً وهو رجل كبير السن ذهب إلى الجبل ليحضر صخرة.. نتساءل : كيف ؟. يقال لك : إن معه فلاناً القوى فتطمئن.

إذن فمعية الضعيف للقوى أو الأدنى للأعلى تصنع نوعاً من الاستطراق، وتعطى من القوى للضعيف، ومن الغنى للفقير، ومن العالم للجاهل، إذن فالمعية تعطى من قوة التفوق قدرة للضعيف.

وهنا يوضح المولى سبحانه وتعالى للمؤمنين : إن قوتكم وقدرتكم على الصبر محدودة لأنكم بشر، فلا تعزلوا هذه القوة المحدودة عن قدرة الله غير المحدودة، واصبروا لأن الله مع الصابرين. ولأنه سبحانه معكم فهو يعطيكم من قوته فلا تستطيع أى قوة أن تتغلب عليكم وتقهركم.

ولقد تعرضنا لهذا وقت أن تكلمنا عن الغار، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه الغار فى طريق الهجرة إلى المدينة وجاء الكفار ووقفوا على باب الغار فماذا قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. وهذا كلام منطقى مع الأسباب. فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليطمئنه ؟. قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ولكن ما وجه الحجة فى ذلك ؟. لقد قال : مادام الله ثالثهما، والله لا تدركه الأبصار، فالذين فى معيته لاتدركهم الأبصار.

وفى هذه الآية مثل سابقتها ؛ يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن المعارك والنصر.

ومن الطبيعى أن يكون من معايير النصر كسب الغنائم. والغنائم التى تمت فى بدر قسمان ؛ منقولات، وقد نزل حكم الله فيها بأن لله ولرسوله الخمس، بقى جزء آخر من الغنائم لم ينزل حكم الله فيه وهم الأسرى، ففى معركة بدر قتل من قريش سبعون وأسر سبعون، فاستشار [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس. فقال : ما ترون فى هؤلاء الأسرى ؟ إنَّ الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس.

فقال أبو بكر : يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان استبقهم، وإنى أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضدا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقول يابن الخطاب ؟

قال : يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن راعون مؤلفون .

وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً. فقال العباس وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك. قال أبو أيوب : فقلنا - يعنى الأنصار - إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا.

(١) مسند أحمد الأحاديث ٣٦٣٢ - ٣٦٣٤، مع اختلاف فى بعض العبارات .

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، ثم خرج فقال: إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن [١]، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم قال: ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾[٢] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [٣]، ومثلك يا عمر فى الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [٤] ومثلك فى الأنبياء مثل موسى، إذ قال: ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [٥] لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة [٦] فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق، ومن بين الأسرى كان عدد من أغنياء قريش.

وسبق له صلى الله عليه وسلم أن استشار الصحابة فى معركة بدر. وحدث أن اختار رسول الله عليه الصلاة والسلام أماكن جيش المسلمين، فتقدم أحد الصحابة وهو الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فأشار الحباب بن المنذر بتغيير موقع المسلمين ليكون الماء وراءهم فيشربوا هم ولا يشرب الكفار.

(١) الواقدى ١/ ١١٠ : «ألين من الزبد».
(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .
(٣) سورة المائدة : الآية ١١٨ .
(٤) سورة نوح : الآية ٢٦ .
(٥) سورة يونس : الآية ٨٨ .
(٦) الواقدى ١/ ١٠٩ : «وإن بكم عيلة».

إذن فلو أنه منزل أنزله الله لرسوله لما جرؤ أحد على الكلام ؛ لأن لله علماً آخر لا نعلمه، فنحن ببشريتنا لنا علم محدود؛ والله له علم بلا نهاية. وكذلك فى مسألة الأسرى ؛ لم يكن فيها حكم قد نزل من الله. ولذلك استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته، وكان أمامه رأى فيه شدة لعمر بن الخطاب ومعه عبدالله بن رواحه، ورأى لين يخالف الرأى السابق وكان لسيدنا أبى بكر الصديق.

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز ما قاله الفريقان؛ فريق اللين بقيادة أبى بكر رضى الله عنه وفريق الشدة بقيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ثم مال النبى صلى الله عليه وسلم إلى رأى الفداء. وجعل فدية الواحد من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، وكان فى الأسر العباس وهو عم النبى صلى الله عليه وسلم، فسمع النبى أنينه من قيده فقال: فكوا عنه قيده. وفسر بعض الناس هذا على أنه ميل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه، ولكنه كان ردا على جميل فعله العباس فى بيعة العقبة؛ حينما حضر وفد من أهل المدينة إلى مكة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقد حضر العباس هذه البيعة، وكان أول من تكلم فيها رغم أنه كان مازال على دين قومه. فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ..خزرجها وأوسها . قال العباس : إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة من بلده، أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده [١]

(١) سيرة ابن هشام حـ٢ ص ٤٤ طبعة الأنوار المحمدية .

إذن فالعباس قد وقف موقفاً لابد أن يجازى بمثله، ورغم أنه كان كافراً وقتئذ، إلا أن الكفر لم يمنع عاطفة العباس أن ينجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف بمثله؛ لأن المبدأ الإسلامى واضح فى قول الحق:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة النساء)

فلا يؤخذ هذا التصرف - إذن - على أنه مجاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه، ولكنها حق على رسول الله من موقف العباس فى بيعة العقبة. وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا عباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عقبة بن عمرو بن جحدم أخا بنى الحارث بن فهر؛ فإنك ذو مال. فقال: يا رسول الله إنى كنت مسلماً ولكن القوم استكرهونى. فقال رسول الله: الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به. أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك. وكان المسلمون قد أخذوا من العباس عشرين أوقية من ذهب كغنيمة، فقال العباس: يا رسول الله احسبها لى فى فدائى، فقال الرسول: لا، ذلك شيء أعطاناه الله عز وجل منك. قال العباس: فإنه ليس لى مال. لقد جعلتنى يا محمد أتكفف قريشاً، فضحك النبى وقال: فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد، ثم قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا؛ فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقثم كذا وكذا، ولعبيد الله كذا وكذا. قال العباس: والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها، وإنى لأعلم أنك رسول الله. ففدى العباس نفسه بأربعة آلاف درهم، وفدى كلا من ابنى أخيه وحليفه بألف لكل منهم.(١)

إذن ففى التقييم المادى دفع العباس أربعة أمثال ما دفعه الأسير العادى كفدية.

(١) القرطبى وابن كثير مع اختلاف فى بعض العبارات.

ثم ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوج ابنته زينب وكان [١] فى الأسارى أبو العاص [٢] بن الربيع ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زينب، أسره خراش بن الصمة، فلما بعثت قريش فى فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص وأخيه عمرو ابن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخلى سبيل زينب إليه، وكان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم. ما هو، إلا أنه لما خرج بعث رسول الله صلى اللهعليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار، مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها [٣]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة [٤]، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز.

ومن بعد ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) سنن أبي داود ١/ ٢٦٧ وابن جرير ٢/ ٢٩٠، ٢٩١ وابن هشام: ٣٠٦ - ٣٠٨
(٢) ط: «أبو العاصى».
(٣) سنن أبي داود: «حتى تأتيها بها».
(٤) شيعة: قريب منه.

و « أسرى » جمع كلمة « أسير »، وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق ممن أخذه بحيث يكون فى قبضة يده، والأسير فى الإسلام هو نبع العبودية والرق؛ لأن الأسير يقع فى قبضة عدوه الأقوى منه و يمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً.

إذن ففى هذه الحالة لا نقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة. وأيهما أنفع للأسير أن يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يقتل ؟.

إن بقاءه على قيد الحياة أمر مطلوب منه ومرغوب فيه. وبذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى فى تملك الأسرى إنما أراد الله به أن يحقن دماءهم ويبقى حياتهم؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل، وكان من الممكن أن يترك الأسرى ليقتلوا وتنتهى المشكلة. ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر؛ لأن الله هو الذى استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة، ولذلك يحفظه. ولعله من بعد ذلك أن يهتدى ويؤمن. ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لعن من يهدم بنيان الله إلا بحقه.

على أن الإسلام قد اتهم زوراً بأنه هو الذى شرع الرق، ولكن الحقيقة أنه لم يبتدع أو ينشىء الأسر والرق، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام، وكانت منابع الرق متعددة بحق أو بباطل، بحرب أو بغير حرب، فقد يرتكب أحد جناية فى حق الآخر ولا يقدر أن يعوضه فيقول: « خذنى عبداً لك »، أو « خذ ابنتى جارية »، وآخر قد يكون مَديناً فيقول: « خذ ابنى عبداً لك أو ابنتى جارية لك ». وكانت مصادر الرق - إذن - متعددة، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد. وهو إرادة السيد أن يعتق عبده أو يحرره.

ومعنى ذلك أن عدد الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص؛ لأن مصادره

متعددة وليس هناك إلا باب واحد للخروج منه، وعندما جاء الإسلام ووجد الحال هكذا أراد أن يعالج مشكلة الرق ويعمل على تصفيته. ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثل هذه الأمور بالتدريج وليس بالطفرة؛ فألغى الإسلام كل مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التى يعلنها الإمام أو الحاكم. وكل رق من غير الحرب المشروعة حرام ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقها، وفى ذات الوقت، عدد الإسلام أبواب عتق العبيد، وجعله كفارة لذنوب كثيرة لا يكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة، بل إنه زاد على ذلك فى الثواب الكبير الذى يناله من يعتق رقبة حبا فى الله وإيماناً به فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

فإذا لم يرتكب الإنسان ذنباً يوجب عتق رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية، فإنه فى هذه الحالة عليه أن يعامل الأسير معاملة الأخ له فى الإسلام. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سيدنا أبو ذَر رَضى الله عنه:

(إخوانكم خولكم جعلهم الله فتنة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه) (١)

إذن فقد ساوى هذا الحديث الشريف بين العبد والسيد، وألغى التمييز بينهما؛ فجعل العبد يلبس مما يلبس سيده ويأكل مما يأكل أو يأكل معه؛ وفى العمل يعينه ويجعل يده بيده، ولا يناديه إلا بـ «يا فتاى» أو «يا فتاتى».

إذن فالإسلام قد جاء والرق موجود وأبوابه كثيرة متعددة ومصرفه واحد؛

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والبيهقى وابن ماجه.

فأقفل الأبواب كلها إلا باباً واحداً، وفتح مصارف الرق حتى تتم تصفيته تماماً بالتدريج. وبالنسبة للنساء جاء التشريع السماوى فى قول الله تعالى:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وكان ذلك باباً جديداً من ابواب تصفية الرق؛ لأن الأمة إن تزوجت عبداً مثلها تظل على عبوديتها وأولادها عبيد، فإن أخذها الرجل إلى متاعه وأصبحت أم ولده يكون أولادها أحراراً، وبذلك واصل الإسلام تصفية الرق، وفى ذات الوقت أزاح عن الأنثى الكبت الجنسى الذى يمكن أن يجعلها تنحرف وهى بعيدة عن أهلها مقطوعة عن بيئتها، وترى حولها زوجات يتمتعن برعاية وحنان ومحبة الأزواج وهذه مسألة تحرك فيها العواطف، فأباح للرجل إن راقت عواطفهما لبعضهما أن يعاشرها كامرأته الحرة وأن ينجب منها وهى أَمَة، وفى ذلك رفع لشأنها لأنها بالإنجاب تصبح زوجة، وفى ذات الوقت تصفية للرق.

إن هذه المسألة أثارت جدلاً كثيراً حول الإسلام، وقيل فيها كلام كله كذب وافتراء. والآن بعد أن ألغى الرق سياسيا بمعاهدات دولية انتهت إلى ذات المبادىء التى جاء بها الإسلام وهى تبادل الأسرى والمعاملة بالمثل. وهو مبدأ أول ما جاء، إنما جاء به الإسلام، فليس من المعقول أن يأخذ عدو لى أولادى يسخرهم عنده لما يريد، وأنا أطلق أولاده الأسرى عندى، ولكن المعاملة بالمثل فإن منّوا نُمنّ، وإن فدوا نفد. ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الرق الناشىء عن الأسر مقيداً فى قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ونقول: إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكم يجيء مع الحدث، ولابد أن نفرق بين الحكمين؛ حكم يسبق الحدث إن خولف تكون هناك مخالفة ولكنَّ حكماً يأتى مع الحدث، فهذا أمر مختلف، لنفرض أنك جالس وجاء لك من يقول إن قريبك فلان ذهب إلى المكان الفلانى، وأنه ينفق على كذا، وأعطى كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا. اذهب إليه لتمنعه، فتذهب إليه وتمنعه، هنا جاء الحكم مع الحدث، فلا تكون هناك مخالفة.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

قد جاء هذا الحكم بعد أن تم أسر كفار قريش وأخذوا إلى المدينة، وتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة بشأنهم ووصلوا إلى رأى. إذن فالحكم جاء بعد أن انتهت العملية، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يغير الحكم، فظل الأسر والفداء. إذن: ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ﴾ أى ما ينبغى لنبى أن يكون له أسرى حتى يقسو على الكفار فى القتال.

ويريد الحق سبحانه وتعالى هنا أن ينبه المؤمنين إلى أنهم لو كانوا يريدون الأسرى لعرض الدنيا، كأن يطمع أى واحد فى من يخدمه، أو يطمع فى امرأة يقضى حاجته منها، أو فى مال يبغى به رغد العيش، كل ذلك مرفوض؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يجعل الدنيا أكبر همه، بل يريد الحق من المؤمنين أن يعملوا ويحسنوا الاستخلاف فى الأرض؛ ليقيموا العدل على قدر الاستطاعة؛ وليجزيهم الله من بعد ذلك بالحياة الدائمة المنعمة فى الجنة.

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

وسبحانه العزيز الذى لا يغلب، والحكيم الذى يضع كل شيء فى موضعه.

ويجيء من بعد ذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة تشرح وتبيِّن أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذى يرتب المقدمات والنتائج، ويحدد الجرائم والعقوبات، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى، من قبل أن تستقر الدعوة، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا بمخالفة يسبقها التشريع الذى يحددها، لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين، ولكن بما أن هذا الفعل لم يجرَّم من قبل فلا عقاب عليه.

وينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى الغنائم التى حصل عليها المؤمنون فى غزوة بدر فيقول تبارك وتعالى:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى إياكم أن تنفقوا ما غنمتموه بسفاهة فى أى شىء لا لزوم له، بل اتقوا الله فيما أعطاكم ومنحكم من غنائم. سواء كانت منقولات أم مالا أم أسرى تجعلونهم يقومون بأعمال يعود نفعها وعائدها إليكم. اتقوا الله فى كل هذا ولا تنفقوه بحماقة، وقوله تعالى: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى أن الله تعالى قد غفر لكم ما فعلتم قبل أن تنزل هذه الآية الكريمة:

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الأسرى بعد ذلك فيقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

أى إن صح كلام العباس فى إسلامه وأنه كتم الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلبه وسوف يعطيه الله خيراً مما أخذ منه. وبالفعل فاء الله على العباس بالخير. فقد أسند الطبرى إلى العباس أنه قال: فىّ نزلت - أى هذه الآية - حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقية التى أخذت منى قبل المفاداة فأبى وقال: « ذلك فَىْءٌ » فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالى.

وفى الرواية التى ذكرها ابن كثير (قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجوه من مغفرة الله عز وجل)[١]، وهكذا تحقق قول الله عز وجل

﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

---

(١) الطبرى وابن كثير.

وبعد أن نزلت هذه الآية الكريمة، وكانت موافقة لما اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرارات، وأبلغ صلى الله عليه وسلم الأسرى بالحكم النهائى من الله: لا تفكون إلا بالفداء أو بضرب الرقاب. وهنا قال سيدنا عبدالله بن مسعود: يا رسول الله إلا سَهْل بَن بيضاء فإننى عرفته يذكر الإسلام ويصنع كذا وكذا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىَّ حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سَهْل بن بيضاء، وقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

أى مادام فى قلوبكم الخير وقد آمنتم أو ستدخلون فى الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلوبكم وسيغفر لكم لأنه غفور رحيم. وعندما استقر الأمر قال بعض من الأسرى: يا رسول الله: إن عندنا مالاً فى مكة، فاسمح لنا نذهب إلى هناك ونحضر لك الفداء، وخشى صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال، فماذا يفعل؟ أيطلق سراحهم ويصدقهم فيحضروا الفدية؟ أم هذه حيلة وقد أضمروا الخيانة والغدر؟.

فنزل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

ويوضح الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: لا توافقهم على ما يريدون، فهم إن أضمروا لك الخيانة فقد خانوا الله من قبل فمكنك منهم فلا تأمن لهم، وسبحانه يعلم ما فى صدورهم.

وبعد أن تكلم سبحانه عن قصة بدر وأسرى بدر، والمواقف التى وقفها

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته فى هذه القصة، أراد سبحانه وتعالى أن يصنف الأمة الإسلامية المعاصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عناصرها، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح بالدعوة الإسلامية فى مكة، ومكة هى مركز سيادة العرب ، وكانت قبيلة قريش هى سيدة جميع قبائل العرب وسيدة الجزيرة كلها، لأن قريشاً سيدة مكة، ومكة فيها بيت الله الحرام، وكانت كل قبيلة من قبائل العرب يكون بعض من أبنائها فى بطن سيادة قريش خلال الحج، ومادامت كل قبيلة تذهب إلى مكة فهى تطلب حماية قريش، ولم توجد قبيلة تعادى قريشاً أو تجرؤ على مهاجمتها؛ لأنها تعلم أنه سيجىء يوم تكون فيه تحت حماية قريش وتحت رحمتها حين الحج إلى بيت الله الحرام.

إذن فسيادة قريش نشأت من وجود البيت. ولو أن هذا البيت لم يكن موجوداً لكان مركز قريش كمركز أى قبيلة من العرب، ولو أن البيت قد هدم من أبرهة، لكانت سيادة قريش قد انتهت. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ثم تأتى بعدها مباشرة السورة الكريمة التى توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى حين حفظ بيته وفتك بجيوش المعتدين فجعلهم كعصف مأكول، قد أكد هذه السيادة لقريش فيقول تبارك وتعالى فى السورة التى سميت باسمها :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

إذن فالذى أعطى السيادة لقريش هو بيت الله الحرام. ولذلك تذهب قوافلهم بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحد من القبائل أن يتعرض لها. ولو لم يكن بيت الله الحرام فى مكة وقريش سادة مكة ؛ لما كان لهم هذا الوضع المتميز والمكانة العالية ، إذن فعز قريش فى بيت الله الحرام ، وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن. ثم تعود محملة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون. وحين أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته كان ذلك الإعلان فى مكة ، وقد أعلنها صلى الله عليه وسلم فى وجه الجبابرة وأقوياء الجزيرة العربية كلها. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته فى قبيلة ضعيفة خارج مكة لقالوا : استضعفهم وغرر بهم ، أو لقالوا يريدون به السيادة ، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا ، ولكنهم أخذوها سلماً ليسودوا بها الجزيرة العربية. ولكن شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ميلاد الرسالة فى مكة وأول من سمعها هم سادة قريش ؛ لتأتى فى مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق ، وإعلاءه فى وجه سادة الجزيرة العربية.

ثم كانت المعركة بين سادة قريش والإسلام وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه وحاولوا إيقاف الدعوة بكل الطرق وشتى الحيل. لكن هل انتصروا ؟ ثم هل امتد الإسلام وانتشر من مكة ؟. لا ، بل كانت الهجرة إلى المدينة ، ومن هناك امتد الإسلام.

إذن فقد بدأ الإسلام من مكان السيادة فى الجزيرة العربية ، ولكنه انتشر من مكان لا سيادة فيه ، لماذا ؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة لقالوا : قوم ألفوا السيادة على الناس ، وتعصبوا لواحد منهم ؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى فى العالم. ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها : أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، وهو الذى حقق النصر لمحمد ،

ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش ، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية.

ويصنف الحق سبحانه وتعالى لنا المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهؤلاء منهم المهاجرون. ومنهم الأنصار ، ومنهم جماعة مؤمنة لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هاجروا بعد ذلك. ومنهم جماعة آمنوا ولم يهاجروا من مكة وبقوا فيها حتى الفتح.

إذن : هناك أربع طوائف : الذين هاجروا مع الرسول إلى المدينة ، والأنصار الذين استقبلوهم وآووهم. وطائفة لم يهاجروا مع رسول الله ولكنهم هاجروا بعد ذلك ، وطائفة بقيت فى مكة حتى الفتح.

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢ ﴾

الفئة الأولى فى هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

والفئة الثانية هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وبعض من العلماء فسر قول الحق : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ على أنها تشمل الالتحام الكامل، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضا أولاً - حسب قول العلماء- إلى أن نزلت آيات الإرث فألغت ذلك التوارث الذى كان بينهم.

وقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

أبعدت هذا المعنى، وبعض العلماء قال : إن الولاية هى النصر، وهى المودة، وهى التمجيد، وهى الإكبار، فقالوا : هذه صفات الولاية، وهناك آية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذى قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان، ذلك أن الرجل الذى يعيش فى نعمة وله صديق

أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته فى نعمته ، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها له ليستخدمها ، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت ، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها ، إلا المرأة فهى النعمة التى يأنف الرجل أن يشاركه فيها أحد.

ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم فى مكة ، كان الأنصارى يجىء للمهاجر ويقول له : انظر إلى نسائى والتى تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل ، وحين يصنعها الإيمان ، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك ، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم : فالطائفة الأولى المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه ، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم ، ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقون منه أيضاً على الجهاد ؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون فى مكة ، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس. ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت فلن تزيد عن ثلاثمائة ودخلوا فى معركة مع الكثرة المشركة ، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن فهم آمنوا ، هذه واحدة ، وهاجروا ، وهذه الثانية ، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة ، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة ، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا ، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة ، ولهم أجر من عمل بها ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل.

والطائفة الثانية الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة ، ونصروا هذه الثانية ،

وأحبوا من هاجر إليهم، هذه الثالثة. وهؤلاء جمعهم الله فى الولاية أى النصرة والمودة والتعظيم والإكبار. ثم يأتى القول من الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وهؤلاء هم الطائفة الثالثة الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه. ولكنهم لم يهاجروا ولم يتركوا أوطانهم ولا أولادهم ولا أزواجهم ولا أموالهم، إذن فيهم خصلة تمدح وخصلة ثانية ليست فى صالحهم؛ فموقفهم بين بين، ولكن لأنهم لم يهاجروا لذلك يأتى الحكم من الله:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

إذن فهذه الطائفة آمنت ولم تهاجر، ولكن عدم هجرتهم لا يجعل لهم عليكم ولاية، إلا أن قوله تبارك وتعالى:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وفى هذا تشجيع لهم حتى يهاجروا، كأن تقول لابنك: ليس لك عندى مكافأة حتى تذاكر. وفى هذا تشجيع له على المذاكرة. ولم يقطع الله سبحانه وتعالى أمامهم الطريق إلى الهجرة لأنهم ربما فهموا أن الهجرة لم تكن إلا فى الأفواج الأولى لأنه قال: « والذين آمنوا وهاجروا » أى أن الباب مفتوح.

وكلمة «هاجروا» مأخوذة من الفعل الرباعى « هاجر »، والاسم « هجرة» والفعل «هاجر». وهجر غير هاجر. فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا

معناه «هجر» أى ترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب، إنما هاجر لابد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألجأه إلى أن يهاجر، إذن فهناك عمليتان، اضطهاد الكفار للمسلمين؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم، ما حدثت الهجرة. ولكن الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم، والمتنبى يقول:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون همو

أى أنك إذا تركت قوماً دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك، إذن هجر تكون من جهة واحدة، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: إن الدار التى اضطهدتم فيها كان يصح أن تهجروها. ويوضح الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى لابد أن يكون هناك التضامن الإيمانى دون الولاية الكاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا. فالإيمان له حقه فى قوله تعالى:

﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ولكن النصر هنا مشروط بشرط آخر هو:

﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾

«من الآية ٧٢ من سورة الأنفال»

فاحفظوا هذا الميثاق لأن نقض العهود الميثاقية ليس من تعاليم الدين الإسلامى. ولكن مادام بينكم وبينهم ميثاق فيجب أن تتم التسوية عن طريق التفاهم. فعليكم احترام ما اتفقتم وتعاهدتم عليه. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى يعلم ويرى كل ما تصنعون وقد جمعهم الله سبحانه وتعالى كمؤمنين فى آية واحدة وكلهم فى مراتب الإيمان وهم قسم واحد.

ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن القسم الثانى المقابل فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

فالكفار - كما نعلم - وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض.

فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام. وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط نجد قول الحق تحذيراً لهم من هذا :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فسبحانه يريد لنا أن نعلم أننا إن لم نعش كمسلمين متحدين ننحاز لبعضنا البعض فى جماعة متضامنة، وتآلف وإيمان، إن لم نفعل ذلك فسوف تكون هناك فتنة شديدة وفساد كبير. لماذا ؟. لأن المؤمنين إن لم يتجمعوا ذابوا مع الكافرين، وستوجد ذبذبة واختلال فى التوازن الإيمانى جيلاً بعد جيل. ولو حدث مثل هذا الذوبان، سيتربى الأولاد والأطفال فى مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان، فيأخذوا من هذا، ويأخذوا من ذاك، فلا يتعرفون على قيم دينهم الأصيلة، وقد يضعف المسلمون أمام إغراء الدنيا فيتبعون الكافرين. ولكن إن عاش المسلمو ن متضامنين متعاونين تكون هناك وقاية من أمراض الكفر، وكذلك لا يجترىء عليهم خصومهم.

أما إذا لم يتجمعوا ولم يتحدوا فقد يتجرأ عليهم الخصوم ويصبحون قلة هنا، وقلة هناك وتضيع هيبتهم، ولكن إذا اتحدوا كانوا أقوياء، ليس فقط بإيمانهم، ولكن بقدرتهم الإيمانية التى تجذب غير المسلمين لهذا الدين. وينشأ الفساد الكبير حين لا يتضامن المسلمون مع بعضهم البعض فيجترىء عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلةً وهم أغلبيةٌ، ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم، ولا يكونون أسوة سلوكية. بل يكونون أسوة سيئة للإسلام. ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فهل هذا توجيه من الله جل جلاله لهم، أو إخبار بواقع حالهم ؟

لقد طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، ولكن هل قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ هو طلب للكافرين، كما هو طلب من الله للمؤمنين ؟ نقول: لا ؛ لأن الذين كفروا لا يقرأون كلام

الله عز وجل، وإذا قرأوه لا يعملون به.

إذن فهذا إخبار بواقع كونى للكافرين. فعندما يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، فهذا تشريع يطلب الله أن يحرص عليه المؤمنون، أما إذا قال إن الكفار بعضهم أولياء بعض. فهذا إخبار بواقع كونى لهم.

إن الإسلام جاء على أهل أصنام من قريش، ويهود فى المدينة هم أهل كتاب، وكذلك كان الأوس والخزرج كفاراً مثل قريش؛ ولكن الإسلام جمعهم وجعل بعضهم أولياء بعض، وكان بين الأوس والخزرج وبين اليهود قبل الإسلام عداء، وإن لم يصل إلى الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون لمال اليهود وعلمهم وأشياء أخرى، وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج بمجيء النبى محمد المذكور عندهم فى التوراة ويقولون لهم: أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.

إذن كان اليهود يتوعدون الكفار، لما بينهم من عداء عقدى ودينى، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر اليهود برسالته والتحموا مع كفار قريش وقالوا:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة النساء)

أى أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا بمحمد، فالولاء بين الكافرين واليهود جاء لهم بعد أن كانوا أعداء، لكنهم اتحدوا بعد ذلك ضد المؤمنين، فإذا كان هذا قد حدث بين الكفار واليهود؛ فيجب على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم اجتمعوا على شيء يعاديه الجميع. وهذا ينفى مسألة الإرث التى قال بها بعض العلماء من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض أى يرث بعضهم

بعضا ؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً فكأن الله يشرع للكافرين - أيضا - أن يرث بعضهم بعضاً ؛ لأنه استخدم كلمة أولياء بالنسبة لهم أيضاً. والحق سبحانه وتعالى لم يشرع للكافرين .

وبعد أن بينا أقسام المؤمنين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا أنهم أربعة ، ذكرنا ثلاثة منهم هم المهاجرون والأنصار والذين آمنوا ولم يهاجروا ، وبقى من هذه الأقسام الذين آمنوا وهاجروا بعد ذلك ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى إياكم أن تقولوا بأنهم لم يهاجروا معكم. وتنكروا أنهم منكم. بل هم منكم وأولياؤكم فهم قد اتبعوكم بإحسان.

وما الذى جعل الحق سبحانه وتعالى يذكر هذا مرة أخرى ؟. لقد تكلم سبحانه وتعالى عن الذين آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله والذين نصروا ، ولننتبه إلى أن هذا ليس تكراراً لأنه سبحانه وتعالى يذكر لنا هنا أنهم جاهدوا بالمال والنفس. وقد جاءت هذه الآية لتثبيت الحكم الشرعى. وانظر إلى عجز كل آية لتعرف. ففى عجز هذه الآية :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

والحكم الشرعى بالنسبة لهم هو أن يكونوا أولياء بعض، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة حيث يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى أعطانا الحكم الشرعى فى ولاية بعضهم لبعض. وأوضح أن هؤلاء لابد أن يكونوا أولياء، وهذا هو الحكم المطلوب منهم، ولكنه سبحانه فى هذه الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هم المؤمنون حقا ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً، أى أن غيرهم لا يكون مؤمنا حقا، مثلما تقول: فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها. وهذه مبالغة إيمانية.

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله الكريم:

﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

وهنا يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجزاء. والجزاء إما أن يكون فى الدنيا،

ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقا، وإما أن يكون الجزاء فى الآخرة. وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله: ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى تمحى سيئاتهم. وقوله تعالى: ﴿ ورزق كريم ﴾ أى تضاعف لهم الحسنات فى الجنة. فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية. وهو حكم مطلوب منهم. والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم فى الدنيا والآخرة. والجزاء فى الدنيا أنهم هم المؤمنون حقا، أمَّا الجزاء فى الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا. ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب؛ وهو رزق كريم.

والمغفرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة فى شىء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع فى المعاصى، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم فى هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً. والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس، ولكنَّ الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادى وما هو معنوى.

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، والعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل. وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التى فيها محاسن. وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق فى قمة الكرم، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطى إنساناً

أجره ليس هذا مناً أو كرما منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك.

إذن فهو رزق فى قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه لأنك قد تبذل جهداً كبيراً فى زراعة أرضك ثم تأتى آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً. وقد تذهب إلى مكان وأنت خالى الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير.

إذن فالرزق يعرف مكانك ويأتى إليك ولكنك لا تعرف أين هو. وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعاماً تلتذ به ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتى طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت . وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات فى دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن فهذا الطعام الذى أكلته وتحول إلى دم فى جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم. ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

والرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط فى الدنيا بأسباب العمل، فالرزق فى الآخرة يأتيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم.

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها ، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوليا إلى الله ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً فى أشياء ومختاراً فى أشياء يفعلها أو لا يفعلها ، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له ؛ ففعل ما قال له : « افعل » ، ولم يفعل ما قال له : « لا تفعل »، فكأنه اختار مرادات الله فى التشريع.

إن معنى الإيمان أن يستقر فى قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعداداً جيداً ، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان ، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار فى أشياء ، وجعلنا من رحمته مقهورين فى أشياء.

مثلا دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها ، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك ، ولكن الأفعال التى تصدر منك بعد فكر ، تلك هى الأفعال التى جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق أن تكون مقهورا لفعل ، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل ؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار ؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ؛ ليعرف مَنْ مِن عباده أحب الله فأطاعه فى التكليف ، ومَنْ مِن الخلق قد عصاه.

إذن فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان، وللإنسان انتماءات أخرى؛ ينتمى لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله، ولكن الانتماء الأول يجب أن يكون لله تعالى، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضى ذلك. والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل، ويجعل كل ما يملكه فى خدمة ذلك؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك. إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله. فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حبا فى الله وطاعة له.

فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم فى إيواء المهاجرين حبا لله؛ فتنازلوا عن مساكن لهم وأموال لهم، وتنازلوا عن زوجاتهم فى سبيل الله كل منهم مؤمن حقًا، أما الفئة الثانية فهناك نقص فى إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى ليس مطلوباً أن توالوهم، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر، لماذا؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل ومكان الإقامة. والفئة الثالثة هم الذين جاءوا بعد ذلك، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاما يكون كالمؤمنين الأوائل؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى. ثم يختتم الحق سبحانه سورة الأنفال بهذه الآية الكريمة:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)


(٩)
سورة التوبة
مدنية

وتنتهى خواطرنا عن سورة الأنفال لتبدأ خواطرنا عن سورة أخرى هى سورة التوبة، ومن عادتنا عند انتهاء سورة وابتداء سورة، أن تبدأ السورة الجديدة بـ «بسم الله الرحمن الرحمن». ولكن سورة التوبة هى السورة الوحيدة التى بدأت بدون البسملة، ووقف العلماء ليحاولوا العلم بسر عدم البدء بالبسملة، وقد اختلفت آراؤهم، ولحظ كل عالم ملحظاً، فمن قائل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد بداية السور ولم يحدد بداية هذه السورة.

ونقول: لا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد مكان الآية فى كل سورة، وقيل إن باقى سور القرآن الكريم وعددها مائة وثلاث عشرة بدأت بالبسملة.

ولم تبدأ سورة التوبة بالبسملة حتى نعرف أن الأمر ليس رتابة انتهاء سورة وابتداء أخرى، بحيث تجىء « بسم الله الرحمن الرحيم » مع بداية كل سورة، ولكن أسماء السور توقيفية، أى أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذى يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما فى القرآن الكريم، ونعلم أن رسول الله كان يراجع القرآن كله مع جبريل فى كل رمضان، وراجعه فى عامه الأخير مرتين مع جبريل، وكل ما جاء بالقرآن الكريم توقيفى كما أبلغه الوحى للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن عظمة الشرع أن ينتقل بالمؤمن من شىء إلى شىء، ليجد فجوة يتوقف العقل عندها، وهنا يأتى دور الإيمان ليمنع العقل من التوقف عند أى فجوة؛ لأن المشرع وهو الله سبحانه وتعالى يريد ذلك، ولو جاءت الآيات على رتابة واحدة لما انتبه الإنسان إلى قيم الإيمان.

على سبيل المثال نحن فى الحج نُقبِّل حجرا ونرجم حجراً ، وجاء هذا كأمر من الله سبحانه وتعالى بأن هذا حجر يُقدس وذاك حجر يُرجم ويداس ؛ لنعلم أنه لا شىء فى هذا الكون مقدس لذاته ، ولكن التقديس لأمر الله وبتوجيه منه سبحانه وتعالى ؛ إن قال : قَبِّلوا ، قبلنا ، وإن قال : ارجموا ، رجمناه .

وفى الجيش مثلاً عندما يأتى الضابط ويقول للجنود : قف ، فيقف الجنود ، حتى الذى وضع لقمة فى فمه يتوقف عن مضغها . والحكمة من ذلك هى الانضباط ، والانضباط الإيمانى أكبر؛ لذلك إذا صادف المؤمن أشياء فى منهج الله يقف فيها العقل يقول : هذه إرادة الله وسأنفذها لأن الحق تبارك وتعالى أمر بها .

والمثال لنا هو سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ؛ حينما أُخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أُسْرِى به إلى بيت المقدس ، وعُرِج به إلى السماء: لم يقس المسألة بعقله ولكنه قال : أَوَ قَال ذلك ؟ قالوا نعم ؛ قال : فأنا أشهد إن قال ذلك لقد صدق. قالوا فتصدقه فى أن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه ، بخبر السماء ؛ قال أبو سلمة : فبها سُمِّى أبو بكر الصدِّيق .

ومن العلماء من قال: إن سورة الأنفال كانت عهوداً ، وسورة براءة هى نقض لهذه العهود ، ونقض العهد يأتى بعد العهد ذاته . فجاءت سورة التوبة مكملة لسورة الأنفال ، ولذلك نجد فى سورة الأنفال أن الحق سبحانه وتعالى قال مشرعا لتوزيع أموال الغنائم : ﴿ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ** ﴾ [**الأنفال** : ٤١]

وجاءت سورة التوبة لتفصل كيف يتم التوزيع لأموال الصدقات فقال الله جل جلاله :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾

[**التوبة** : ٦٠]

إذن فكان من الطبعى أن تأتى سورة التوبة بعد سورة الأنفال ؛ لأن سورة التوبة تتمة لسورة الأنفال ، وسورة التوبة تتعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

لأن «بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة ، وقيل فى عدم تسميتها سورة براءة وتسميتها سورة التوبة لأن القطيعة هنا بين الله وبعض عباده الذين ضلوا واختاروا الكفر والنفاق ؛ ولأنه رب رحيم أراد أن يفتح لعباده الذين أبقوا باب الرجوع إليه بالتوبة ؛ فسميت السورة سورة «التوبة» وقد بدأت السورة بقوله تعالى «براءة» واسمها التوبة حتى تسبق التوبة البراءة . ولذلك نجد فيها آيات التوبة فى قول الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧]

وفى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

وفى آية ثالثة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة : ١٥]

إذن فعلى الرغم من أن السورة بدأت بالبراءة إلا أنها جاءت بالتوبة رحمة منه ؛ وقبولها منه تعالى رحمة بالناس .

فالله يَشْرع التوبة ويفتح بابها فضلا منه ورحمة ، فلو لم يشرعها الله ما قبلت توبة أبداً ؛ ولو عن معصية واحدة . والذى ييأس من التوبة وغفران الذنوب يشتد فى المعاصى وينغمس فيها ويحدث نفسه بأنّه ما دامت معصية واحدة سوف تدخله النار، فلا فرق بين معصية وألف . ولابد ـ إذن ـ أن يرتكب كل يوم جريمة ؛ لأن ذنبا واحداً أخرجه من الرحمة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يفتح باب التوبة ليمنع شراسة الإجرام فى المجتمع ، فكل عاص يمكنه أن يعود بالتوبة إلى الإيمان ، ويعيش المجتمع فى أمان وسلام . وهكذا كان تشريع التوبة رحمة ، وقبولها من الله رحمة . ولذلك بعض

الناس يقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

ونتساءل كيف تاب الله عليهم ليتوبوا ؟ نقول : تاب عليهم أى شرع لهم التوبة ، فإن تابوا قبل الله توبتهم .

إذن فالمسألة تشريع وقبول . ومادام الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة فهو توَّاب . إذن فقد قدم الحق هنا للإنسان أسلوبين يصحح بهما مساره ، قد شرع التوبة ، وأذن بقبولها . ومن عظمته لم يقل عن نفسه إنه تائب ولكنه تواب . فإذا فعل الإنسان معصية وتاب ، قبل الله توبته ، وإن غلبه الشيطان أو غلبته نفسه وارتكب معصية أخرى وتاب قبل الله توبته أيضا لأنه تواب رحيم .

وأخذت سورة التوبة حيزا مع المشركين وحيزاً مع اليهود والنصارى ، وحيزا مع المنافقين ، وكما حددت المؤمنين فى آخر السورة ، حددت أيضا مواقف كل من هؤلاء، وقد كان بيان موقف هؤلاء ضروريا ؛ لأن المنافق مثلا متعارض الملكات ، والكافر منسجم الملكات ، فالمنافق ينطق لسانه عكس ما فى قلبه ، والكافر إنما ينطق بما فى قلبه ، ولكن المنافق والكافر يتفقان فى عداوة المؤمن . ولذلك فضَح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعداء وأظهر ما فى أعماق الكافرين والمنافقين وخصومتهم للإسلام ، وحاز المنافقون قسطاً وافراً من السورة لأنهم ادعوا الإيمان واقتربوا من المسلمين ، وخصومة القريب أشد على النفس ، فما بالنا بخصومة الإنسان مع نفسه ؟!

هكذا كان حال المنافقين الذين عاشوا بين المسلمين وملكاتهم متعارضة وخصومتهم للمؤمنين أشد ؛ لأنهم يتظاهرون بالإيمان ، ويضمرون الكفر . ولذلك كانت معظم آيات هذه السورة تفضح حال المنافقين وتظهر ما أضمروه من بغض وعداوة لأنهم أشد خطراً على الدين من الكفار .

والله سبحانه وتعالى يعطينا فى هذه السورة صورة لتمرد نوع من خلق الله من بنى الإنسان .

وهم هؤلاء الـذين يكذبون بالله ونعمتـه ويضمرون الكفر والحقد ويتظـاهرون بأنهم مع المسلمين علما بأنهم لم يتسـاووا مع الجمادات وسائر خلق الله من غير بنى الإنسـان حتى الحيـوان ، فإن هـؤلاء جميعـا يسبحـون الله الخالق ويسجدون لـه؛ سجـود إقـرار بالـربوبية ، أما المنـافقون فهم من بنى الإنسان الذين تمردوا على الله خـالقهم، ولذلك اقرأ إن شئـت فى تصنيف الأجناس فى الكـون : الجماد ، النبات ، الحيـوان ، الإنسان ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ** ﴾ [**الحج** : ١٨]

وهـذه هى الجمادات ، ثم يأتى الخبر بـالنسبـة للنبـات والحيـوان فيقـول الحق جلّ وعلا: ﴿ **وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ [**الحج** : ١٨]

ثم جاء الخبر فى الإنسان فقـال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾ [**الحج** : ١٨]

أى أن الأمر فى التسبيح والطاعة والسجود لله انقسم عند الإنسان لأن له أغياراً .

ونجد رحمة الربوبية فى أنه ، كما جعل للمؤمـن رزقه ، فقد جعل للكافر رزقه أيضا، وبيّن الله عز وجل أنـه يرزق الكـافر رغم أنـه أراد بالسورة القطع بينـه سبحانـه وتعالى وبين الذين نقضـوا العهود ، فإنـه شاء أن يسمى السـورة «سورة التـوبة» ؛ ليفتح لهم باب التوبة فقد يتوبون ويرجعون إلى الإيمان .

وقبل أن نصنف ما جـاء فى سورة التوبـة لبيان الموقف من المشركين ، والموقف من أهل الكتاب ، والمـوقف من المنافقين ، يحسن بنـا أن نفصل الكلام فى مسألة التسمية ـ البسملة ـ لأنها شغلت بال العلماء كثيراً .

ونعلم أن «بسم الله الرحمن الـرحيم» وردت فى القرآن الكريم مـائة وأربع عشرة مرة ؛ منها مـائة وثلاث عشرة مرة فى بدايـة السور، ومرة فى سياق آيـات سورة النمل ؛ فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (٣٠) ﴾ [**النمل**]

وهى آيـة مجمع عليهـا، أنها آيـة من سـورة فى القـرآن الكـريم، ولكن مـاذا عن

البسملة فى أوائل سور القرآن الكريم ؟

اتفق العلماء على أنها آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن كان الخلاف بينهم حول: هل هى آية من كل سورة ؟ واتفق الجمهور على أنها آية قد نزلت للفصل والابتداء ، ولا يصح أن نقول : إنها للفصل فقط ، بل نقول : هى للفصل والابتداء، وهناك من يقول : إنها فى الفاتحة للابتداء ، أما الفصل فلا يوجد قبل الفاتحة سورة أخرى فى المصحف ، وعلى ذلك فهى للفصل بين الفاتحة وسورة البقرة . ولمثل هذا القائل نرد قائلين : إن المدقق فى علوم القرآن الكريم يعلم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول ، فالمصحف له ترتيب ، والقرآن نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفاتحة ـ على سبيل المثال ـ نزلت بعد سورة المدثر ، فهى فاصلة بين المدثر والفاتحة .

وحين نتصفح المصحف الشريف نجد أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة، ولكنها ليست آية من كل سورة . ففى ترقيم آيات الفاتحة نجد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الآية الأولى . ونجد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾هى الآية الثانية ، بينما فى باقى السور ، تجد أن الآية الأولى تبدأ بعد قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك لأن جمهور العلماء عَدَّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية فى سورة الفاتحة .

وجزى الله خيراً صاحب المعجم المفهرس الذى وضع معجماً لآيات القرآن الكريم بحيث إذا أحببت أن تعرف موقع آية فى المصحف تستطيع أن تحصل على موقعها بين الكلمات فى هذا المعجم ، إلا أنه من عجيب الأمر واستيلاء النقص على البشر، شاء الحق تبارك وتعالى لهذا الرجل الطيب الباحث ، أن ينسى وضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فى الإحصاء ، وجاء بكلمة الله فى ٩٨٠ آية بالرفع ، ٩٢ آية بالنصب ، ١١٥٢ آية جاءت فيها كلمة الله بالجر ، وتنقص آيات الجر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تقول من بعد ذلك : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لأن القرآن قد بدأ مقروءا باسم الله ، وكذلك يبدأ

متلوا باسم الله ، وها نحن أولاء مع رسول الله حينما كان فى غار حراء يتعبد ، وجاء له الوحى فقال له : ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق]

واقرأ تتطلب أحد أمرين ؛ الأمر الأول هو أن يكون المتلقى لها قد حفظ شيئا فيقرأه .

والأمر الثانى أن يكون أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيقرأه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده محفوظ ، ولم يكن أمامه مكتوب . فضلاً عن أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف القراءة والكتابة . ولهذا تساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء . وكان صلى الله عليه وسلم منطقيا مع نفسه فى هذا الرد . وقال الملك جبريل ثانيا: اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

أتعرفون لماذا كان هذا التكرار ؟ كان ذلك فى فحواه ردا على شعوذة أثارها خصوم الإسلام وأعداؤه بعد مجيء رسالة الإسلام بأربعة عشر قرنا ؛ حينما قالوا : إن القرآن هو بعض من وسَاوِس وأحاديث فى نفس محمد . لكن ها نحن أولاء أمام الرد . لقد جاء الملك جبريل ليقول لمحمد : «اقرأ» وها هو ذا رد محمد «ما أنا بقارىء» .

إننا إذن أمام شخصيتين متميزتين ، شخصية آمرة جازمة ، وشخصية متمنعة ، فلو كانت المسألة مسألة حديث نفس أو وسوسة ، لما كان هناك سبب لوجود الشخصية الامرة ، ووجود الشخصية الثانية الممتنعة ، وكل شخصية منسجمة مع صفاتها وقدراتها ، فالشخصية التى تقول: «اقرأ» هى الآمرة بالقراءة . والشخصية التى تقول «ما أنا بقارىء» هى شخصية تعرف الأسباب وقدر الأسباب وتعرف مواقعها من الأمية . إذن فهنا شخصيتان متميزتان لا شخصية واحدة .

وحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنا بقارىء» فهو منطقى مع نفسه ومع الواقع . وحين يقول الملك جبريل مبلغا عن ربه : ﴿اقرأ﴾ فهو يُقْرِئُه باسم ربه، لا لأنه قارىء ولا لأنه كاتب . كأنه يقول له : إنك يا محمد ستقرأ باسم ربك لا باسم تعليمك . ويتتابع الوحى : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق﴾ فكما خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان بقدرته من علق ، هو قادر على

أن يجعلك يا محمد تقرأ ، وإن لم تتعلم القراءة . وهذا ليس بالأمر العزيز أو الصعب على الخالق ، اقرأ باسم ربك ؛ لا باسم أنك قد تعلمت ، فربك هو الذى خلق الإنسان من علق ، وربك هو الأكرم ، الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، فأنت لن تقرأ مما تعلمته من البشر ، ولكنك تقرأ مما تعلمته من خالق البشر .

ونحن فى موقف مع رب الأسباب : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ٣]

والإنسان منا حين يتعلم القراءة والكتابة فهو يتعلمها من إنسان مثله ، وهى دليل على كرم الله تعالى لأنه نقلها من إنسان إلى إنسان ، ولكن حين تتعلم من غير ذلك فهذا هو الموقف الأكرم . إذن فهناك «كريم» وهناك «أكرم» كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد : أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمت ولا باسم أنك حافظ ، وإنما تقرأ باسم ربك ، وإن لربك مطلق القدرة إذا أراد شيئا فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إذن فقد قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن أولا باسم الله . ونحن نتلوه أيضا باسم الله . ولابد أن نأخذ «بسم الله» من زاويتين : الزاوية الأولى هى فيها نلحظه من لغة البشر ، فإذا ما تكلم إنسان فى أمر من الأمور ويريد إقناعك به وتأييدك له فأنت تقول له : باسم من تتكلم ؟ ..

فيقول لك : أنا أتكلم يا سيدى باسم السلطة . وقد تكون هذه السلطة هى النيابة أو الشرطة أو الضرائب . إذن جاء لك بالصفة التى يتكلم باسمها .

ونحن فى هذه الحياة المعاصرة نجد الحاكم مثلاً يفتتح خُطَبَه قائلا «باسم الشعب» ويكون ذلك هو مدخل الحاكم للحديث فى أى أمر .

والزاوية الثانية هى أنك حين تتكلم باسم الله فأنت تعرف أى قدرة مطلقة تقبل على العمل بها . فأنت تذهب إلى الأرض لتحرثها ، فتعطيك الزرع ، وأنت تعلم أنك لم تخلق الأرض ، ولا تعرف عدد العناصر التى فيها ، وأنت كذلك لم تخلق البذور التى تبذرها فى الأرض ، ولا أنت الذى ستنزل الماء من السماء لتروى الأرض . كل ما فى

الأمر أنك حرثت الأرض ، أى أنك أعملت فكرك المخلوق لله فى المادة المخلوقة لله بالطاقة المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

إذن فأنت حين تقبل على الزراعة تعرف حدود قدرتك وتعرف مطلق قدرة الله سبحانه وتعالى فتقول: «باسم الله» وهذا يعنى ضِمْناً أنك تقول : أنا لا أقدر على أن أزرع باسمى لأنى لم أخلق الأرض ، ولا أنزل المطر ، ولا أنا خالق البذور ، ولا قدرة لى لأرغم الأرض على أن تنبت الزرع بأنواعه المختلفة .

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه عندما يقبل على أى عمل من الأعمال : ما هى قدرتى التى ترغم العمل على أن ينفعل ؟ لا توجد للإنسان أى قدرة ولكن هى قدرة التسخير التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل الكائنات التى تنتفع بها أيها الإنسان . لذلك فمن حسن الأدب مع الله أن تدخل على كل عمل قائلا : أنا لا قدرة لى عليك إلا باسم الله الذى سخرك لى وأمرك ألاَّ تخرج عن طاعتى.

وعلى سبيل المثال : هل يمكننا أن نؤثر فى حركة الشمس ويكون فى استطاعتنا أن نقول لها : أشرقى ؟ . نحن لا نتحكم فى الشمس ولا فى القمر ولا فى الهواء ولا فى النجوم . إذن . فمن حسن الأدب مع الله تعالى أن تدخل على كل ذلك باسم الذى سخر هذه الكائنات لخدمتك . وانظر دائما إلى من سخر لك جميع الكائنات لتكون فى طاعتك .

عليك أن تعرف أنك بلا قدرة على شىء ، وأنك لن تقدر على أى شىء إلا بقدرة الله تعالى وأنت إن أقدمت على أى عمل ، وليس فى بالك الله المسخِّر له ، واحتفظت فى بالك فقط بالنتيجة التى يحققها لك هذا العمل ، فاعلم أن هذا هو أول فارق بين المؤمن والكافر. فالكافر هو الذى يدخل على أى عمل وهو ناظر فقط إلى فائدته المجردة سواء أكانت زراعة أم صناعة أم طعاما أم شرابا . أما المؤمن فهو يعلن دائما الولاء لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقوم إلا بالعمل الذى أباحه الله له . إنه يضع الله دائما فى قلبه وفى باله وذلك يكسبه فائدتين ، الأولى : هى الوصول والحصول على نتيجة هذا العمل ، مثله فى ذلك مثل الكافر، والفائدة الثانية هى الثواب الذى يناله

المؤمن فى الآخرة . إنـه يستفيد من عـطاءين لا مـن عطاء واحد . ولـذلك يقول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ① ﴾ [سبأ]

والمؤمن سـاعة يـرى نتيجة عملـه فى الدنيا لصـالح نفسـه فهو يقـول : الحمد لله. وساعة يرى عطاء الله له فى اليوم الآخـر من حسن الثواب فهو يقول أيضا : الحمد لله. الحمد لله أولا والحمد لله آخرا .

اذن فسـاعة تقـول : ﴿بـاسم الله﴾ وأنت مقبل على أى عمل . فأنت تعترف أنك تدخل على العمل بلا حول منك ولا قـوة ولا طوْل ، وإنما بيقين أن الله سبحانه وتعالى هـو الـذى يسخر لك هـذا العمل . ولـو لم يسخـر الله لك مـا أمامك من كـائنـات لما انفعلت لك ، أو أعطت ثمرة .

وأنا لا أمل من ضرب هذا المثل من الأنعـام ، تلك الأنعام التى يستأنسها الإنسان بإرادة التسخير التى خلقها الله تعالى ، فهنـاك بعض من الحيوانات التى لا نستطيع أن نستأنسها : نحن نستأنس الجمل ، وقد تستـأنس الفيل ، ولكن لا يستطيع أحد منا أن يستأنس ثعبـانـا صغيرا أو ذئبـا لأن الحق تـرك هـذه الكـائنـات منطلقـة ولا يستطيع الإنسان أن يستأنسها ، حتى يعلم الإنسان أنه لا حول له ولا قوة ، وأنه لو لم يذلل الله له بعضـا من الحيوانـات ، لما استطاع أن يذلل أى شىء منهـا ، والدليل على هـذا هو وجود حيوانات لا نستطيع أن نذللها ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ⑦١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ⑦٢ ﴾ [يس]

إذن فلو لم يـذللها الله تبارك وتعالى لما استطعنـا نحن تذليلها ، وتـرك الله بعضا من الوحـوش غير مستأنسة ليخبرنـا أننا لا نملك مطلق طـاقة التـذليل والتسخير، ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق طاقـة التسخير والتذليل فيما يشاء لمن يشاء . وهذا تنبيه واضح لـلإنسـان حتى لا يضل وحتى لا يـأخـذه الغـرور . فإذا أقبلت على أى عمل

باسم الله ، فكأنك دخلت على العمل باسم من سخر لك الكائنات لتنفعل معك .

وقد يقول قائل : ولكن الكائنات أيضا تنفعل للكافر الذى لا يقول: ﴿باسم الله﴾ . ونقول : إن الكافر لا يأخذ إلا نتيجة العمل فقط . أما المؤمن فهو يثاب على عملية استحضار الله فى باله مع الجزاء بنتيجة العمل ذاته .

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء فى الكون ويفلتها من قانونها الذى وضعه لها ، فالسنن فى الكون موجودة ولكن الله يأمر هذه السنن أن تخرج على قوانينها. لماذا ؟ . ليعلمنا سبحانه الفرق بينه ـ وهو الحق ـ وبين الخلق . إن الحق يطلق القانون ويقيده ويفلته كما يشاء ، والخلق يصممون القانون لعمل ما، ولا يستطيع الشخص أن يتجاوز به حدود ما صنع له .

فسبحانه وتعالى قد وضع نواميس للكون ، ويخرق سبحانه هذه النواميس فى بعض الأحيان حتى يلفت نظر الناس إلى أنه القائم على هذا الكون . مثال ذلك أننا نجد المطر ينزل دائما فى مكان ما من الأرض ، وبعد ذلك يصيب هذا المكان الجفاف، وهذا خروج عن الناموس . هو بذلك يلفتنا إلى أن الكون لا يخضع للناموس ، ولكنه خاضع لإرادة خالق الناموس . والحق سبحانه وتعالى يخرق الناموس ليلفتنا إلى مطلق قدرته . إنه يلفتنا لنعرف أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لها مدلول فى الكون .

ومثال نراه فى حياتنا على خرق الناموس ، نحن نعلم أن التكاثر يحدث فى الإنسان من زواج رجل بامرأة ، ويريدان الإنجاب . لكن الحق سبحانه هو الذى يحدد عطاء النوع ذكرا أو أنثى أو لا يعطى حسب مشيئته : ﴿**لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)**﴾ [الشورى]

إن الرجل والمرأة موجودان ، ولكن الناموس لا يتصرف بمشيئته ، ولكنها إرادة خالق الناموس .

والحق سبحانه وتعالى يضرب أكثر من مثل على ذلك . ونعرف حكاية سيدنا زكريا

وكان يكفل مريم عليه وعليها السلام ، ويأتى لها بالطعام والشراب فدخل عليها مرة فوجد عندها لونا من الطعام لم يكن قد أتى به ، فقال لها تلك المقولة المشهورة التى تعلمنا كيف ندير أمور حياتنا بلا فساد أوسماح بفساد لأبنائنا وبناتنا ، قال لها :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إنه يعلمنا الرقابة على من نكفلهم ، ففساد البيوت ينشأ من عدم الرقابة على الأولاد ، فالأم إن رأت قلم حبر فاخراً ـ على سبيل المثال ـ مع الابن ولم يحضره له أبوه ولم تسأله «من أين لك هـذا ؟ » فهذا تستر على فساد فى الابن وقد يكبر فى الفساد من بعد ذلك . والأم إن رأت بعضا من الملابس التى لم تحضرها لابنتها ، والابنة ترتديها ؛ عليها أن تسأل وتدقق بأسلوب «أنَّى لكِ هـذا ؟» حتى لا تنحرف الابنة، ولو أن الزوجة تتنبه إلى اسلوب تصرف زوجها وإنفاقه الذى قد يفوق مرتبه كثيرا وتسأله بحسم : «أنى لك هذا ؟» فهى تحمى زوجها وبيتها من المال الحرام .

إن مبدأ «أنى لك هـذا ؟» لو سيطر على المناخ العام للمجتمع لامتنع الفساد من جذوره . وقد أطلق الحق هـذا التساؤل على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لمريم بعد أن كفلها : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

هنا قالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إذن واجه سيدنا زكريا خرقا سماويا للناموس.

وكان زكريا عليه السلام يريد لنفسه أن يدخل ضمن دائرة: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فدعا ربه أن يرزقه غلاما رغم أنه قد بلغ من الكبر عتيا، وأن زوجه عاقر، ما دام الحق يرزق من يشاء بغير حساب فليدع الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٨]

وجاءت البشارة من الله تعالى بيحيى ، وتحقق لزكريا ما آمن به من أن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب . ولنا أن نتنبه إلى أن هذه المسألة جرت بين يدى

سيدتنـا مريم ، ذلك أن مريم ستتعـرض لمحنة لم تتعرض لها امـرأة فى العالم ، فأراد الله عز وجل أن يؤنس بشريتها حتى لا تتزلـزل أفكارها ويعلمها أن تقول : ﴿إن الله يرزق من يشـاء بغير حسـاب﴾ وفى ذلك إينـاس لمريـم لما سيجـرى عليهـا من خـروج على النامـوس فتلد مـن غير ذكر . لقد عـرفت أن الحق يرزق مـن يشاء بغير قـانون ، ورأت أمامها تجربة زكريا عليه السلام عندما أعطاه الله الولد بعد أن جاء على لسان زكريا :

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨]

ورأت مريم أن ذلك على الله هين :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : ٩]

وعندما يأتى لها الملك متمثلا فى هيئة البشر ليبشرها بغلام ، تقول :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠]

يقول الملك : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم : ٢١]

وتلد مريم الولد ، وهكذا خرق الله بقدرته الناموس .

ونتذكـر أن الحق سبحانـه وتعالى حين كـرر الاصطفاء لمريم فى القـرآن الكريم كرره لحكمة : ﴿ يَا مَـــرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـــاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فـالاصطفـاء الأول هـو اصطفـاء قيمى تـدخل بـه فى دائرة المُصْطَفَيْن الأخيـار، والاصطفاء الثانى لمريم عندما ولـدت دون أن يمسها بشر؛ لذلك كان اصطفـاؤها على نساء العالمين ، فكل امرأة تلد بوساطة رجل ، أمـا مريم فقد اصطفاها الله عز وجل لتلد دون رجل . ولهذا حـدد الله أشخاص هـذه القصـة؛ لأن امرأة أخـرى لن يحدث لها مثل ذلك ، ولكن بعض قصص القـرآن الكريم لا يـأتى فيها تحديـد لأشخاص مثـال ذلك قصة أهل الكهف .﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِـرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣]

لم يحدد الحق سبحانه وتعالى أسماءهم أو عددهم، وذلك لأن عدد أهل الكهف ليس له قيمة فى مغزى القصة ، وكذلك لم يحدد البلد الذى كانوا فيه أو العصر الذى عاشوا فيه . ولم يأت الحق عزوجل هنا بتخصيص وتحديد أسماء أهل الكهف ؛ لأنه لو فعل لقال قائل : هذه خصوصية لهذه الأسماء فلا تتكرر فى الدنيا، لكن عندما تركها الحق هنا دون تشخيص ولا تحديد للعدد ولا لزمان هؤلاء الفتية ،فهذا معناه أن هؤلاء الفتية أرادهم الله مثلا فى الكون ، يتأتى من أى فتية بأى أسماء فى أى زمان وفى أى مكان ، فالإبهام هنا فيه مزية لفائدة القصة . لكن حين يريد الله عزوجل تحديد أشخاص تجده على سبيل المثال يقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم]

لقد حدد الله تعالى زوجتين لاثنين من أنبيائه ، وكل منهما استقلت بعقيدتها وما استطاع نبى أن يهديها ، وأيضا امرأة فرعون آمنت رغم أن فرعون ادعى الألوهية ولكنه لم يستطع أن يقنع امرأته بالإيمان به . يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

إذن هى امرأة مؤمنة لها عقيدتها المستقلة ، لكن حينما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم جاء بالتحديد والتشخيص ، فلم يذكر اسمها فقط ،بل ذكر اسم أبيها أيضا فقال: مريم ابنة عمران. ويأتى القرآن الكريم لقصة ذى القرنين ، وعندما سألوا عن اسمه لم يذكر اسمه ، بل قال فى بيان أوصافه : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف]

لقد أراد الله سبحانه وتعالى هذا الإبهام ، وإن سألك أحد: من هو ذو القرنين؟ فلك أن تجيب أتريد أن تفسد على القرآن مراده ؟ إن المراد من القصة القرآنية هو ما جاء فى القرآن ، وأراد الحق أن يظل اسمه مبهما ، إنه رجل مُمكن له فى الأرض، آتاه الله تمكينا

وأحاط نفسه بالطيبين ، وأبعد عنه أهل السوء ووفقه لإعانة الضعفاء ، وهذا المثل لابد أن يظل مع الناس طوال الزمن ، ونقول : الحق سبحانه وتعالى حين يبدأ قرآنه بقوله :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فعليك أن تبدأ قراءة القرآن الكريم بها وأن تتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أَقطع)[1]

لأن كل عمل يبدأ بغير اسم الله هو عمل ناقص ، حتى لا يصادفك الغرور والطغيان وتتخيل أنك أنت الذى تسخر المسائل لتنفعل لك ، وهكذا تفتقد التصور الحق لقدراتك ، وأنت ساعة لا تذكر اسم الله تعالى فى بدء العمل فمعنى هذا أن الله ليس فى بالك ، ولا يكون لك على هذا العمل جزاء فى الآخرة ، وقد تأخذ عطاء العمل فى الدنيا ، ولكنه حجب عنك ومنعك عطاء الآخرة . أما الذى يريد عطاء الآخرة فعليه أن يقول دائما : «بسم الله الرحمن الرحيم» فى بدء كل عمل ذى بال يقوم به . وذلك يبقى كل عمل بعطائه فى الدنيا وحسن الجزاء عنه فى الآخرة.

يتزوج المرء باسم الله وينكح باسم الله ، وما دمت تدخل عليها باسم الله فأنت إذن تستطيع أن تميز الحلال عن الحرام ، ولن تبدأ أى عمل باسم الله إلا فيما أباحه الله عز وجل ، فالإنسان لا يمكن أن يسرق أو يقبل الرشوة باسم الله .

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله فأنت تعرف أن الحق معبود ، وله أوامر بـ «افعل» وله نواه بـ «لا تفعل» وإياك أن تستحى إن كنت عاصيا أن تستفتح أعمالك باسم الله، لأن الله لا يحقد على خلقه ولا يتغير على خلقه ولا ينفض يده من أمور خلقه، فإن كنت قد عصيت الله فى شىء فأقبل على عملك باسم الله لأنه رحمن ولأنه رحيم . فهو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصى ، فمعنى ذلك أنه أذن بأن تقع تلك المعصية . فإن كنت قد عصيت الله وتخجل من أن تبدأ عملك «بسم الله الرحمن الرحيم» فتذكر أن الحق تبارك وتعالى «رحمن» و«رحيم» ونعرف أن الاشتقاق

(١) السيوطى فى الجامع الصغير، وابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو أجذم» .

فى «رحمن» و«رحيم» من الـرحم ،والـرحم هـو مكـان الجنين فى بطن أمـه ، وهـو منتهى الحنان. ولذلك جاء فى الحديث القدسى عن صلة الرحم : وفيه يقول الله عز وجل :

(أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى
فمـن وصـلها وصـلته ومن قطعهـا قطعتـه)[1]

(حديث قدسى)

إذن فكلمـة «الـرحمن» وكلمة «الـرحيم» مأخـوذتـان من الـرحم، والحق حنَّـان على عباده، وعطوف عليهم ، ولذلك فـالعاصى لا يصح أن يستحى أن يهتف ﴿باسم الله﴾ وأن يقول فى بداية أى عمل يشرع فيه: ﴿بسم الله الـرحمن الرحيم﴾ إنه بذلك يمنع عن نفسه الغرور بأنه قـدر بذاته ، بل إنه قدر على الأمر بالتسخير منـه سبحانه وتعالى ولا يحرم نفسـه الثواب عليـه فى الآخرة ، وحين يقـول المؤمن: ﴿بسم الله الـرحمن الرحيم﴾ فهـو يدخل فى حماية الله ، و إذا قيل «رحمن» فهى مبالغة ، و إذا قيل «رحيم» فهى مبالغة .

لكن إيـاكم أن تفهموا أن صفـات الله عـز وجل تتأرجح بين القوة والضعف ، فمـرة يكـون راحما ومرة يكـون رحمانـا ومـرة يكون رحيما، لا، لأن صيغ المبـالغـة إنما تأتى فى الأغيار، ويقال : فلان عـالم وفلان علاَّم أى أكثر علماً من العالم ، وفـلان علاَّمة أى أكثر علما من العلاَّم ، فالصفـات فى البشر تتغاير، لكن عند الحق سبحـانه وتعالى لا تضعف صفـة وتقوى أخـرى . و إنما متعلقات الصفـة هى التى تكثـر أو تقـل . فأنت تقـول : فلان آكل ، وفـلان أكاَّل وفلان أَكُـول . والأَكُول لا يأكُل رغيفاً واحـدا على سبيل المثال مثل الآكل ، لكنـه قـد يأكل خمسة أرغفـة فى المرة الـواحدة ، والأكَّـال قـد يأكل خمس مرات بدلا من ثلاث ، فالمبالغة تأتى مـرة فى الحدث وهو هنا الأكل ، ومرة تكون المبالغة فى الفعل.

أقول ذلك حتى نعـرف أن الصفات فى البشر ـ وهم أحداث ـ تتغاير، أما بـالنسبة للحق سـبحانه وتعـالى فهو لا يتغير ولا تتغير صفاته ، بل تضعـف متعلقات الصفات

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى .

أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا . لذلك فرحمته واسعة ، وهو رحيم فى الآخرة لأنه يرحم المؤمنين فى الآخرة . فالله لا يتغير من أجلنا ولكن نحن الذين نتغير ويجب أن نتغير من أجل الله تعالى . لو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذى فيعصيه وهو ستار، يعصيه العاصى ويستره ، وهو حليم لا يتغير.

وحين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن الكريم بقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فلنعرف أن ذلك مطلوب منا فى قراءة القرآن الكريم وفى أى عمل آخر نقوم به ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى سخر لنا كل شىء ، ولولا تسخيره لما استطاع أحد منا أن يفعل شيئا ، ولأن الله يريد ألا يكون عمل الواحد بلا ثواب حتى إتيان الزوجة وأنت تنوى إعفاف نفسك و إعفافها أو تنوى الذرية الصالحة فلتبدأ ذلك باسم الله تعالى ، وبذلك يكون لك الثواب .

يقول صلى الله عليه وسلم ضمن حديث له : وفى بضع أحدكم صدقة . وقد قالوا له : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له فيها أجر»[(١)]

ولذلك كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله هو أبتر، ومعنى ذى بال أى عمل يقدم عليه الإنسان بفكر، لكن الأعمال التى تمر على الخاطر فقد ينسى الإنسان أن يبدأها باسم الله فهى مغفورة له لأن الإنسان منا له ثلاث نسب فى كل موقف : نسبة ذهنية ؛ نسبة كلامية ، ونسبة خارجية . مثال ذلك إن عطش الإنسان فإن النسبة الذهنية التى تجىء إلى الذهن «إننى أريد كوب ماء» وهنا يقول الإنسان : «أعطنى كوب ماء» وهذه النسبة كلامية ، وعندما تأتى بكوب الماء إلى العطشان فهذه نسبة خارجية .

والنسبة الخارجية إنما تنشأ من النسبتين الأوليين ، وكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو نسبة كلامية ولم يخطر على بالك بنسبة ذهنية فهو أمر غير ذى بال .

---

(١) رواه الإمام مسلم .

وهَبْ أن المصباح الكهربائى الذى ينير لك ليلا انكسر فجأة ، فقلت: «ياستار» ولم تقل ﴿باسم الله﴾ وابتعدت عن مكان الخطر ، هذا العمل لم تكن له نسبة ذهنية ،؛لذلك فهو أمر غير ذى بال ، أما الأمر ذو البال فإنك تأخذ عليه عطاء الدنيا وتأخذ عليه الأجر والثواب فى الآخرة إذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وبعضنا يلحظ أن الكافر يقبل على الأرض ويحرثها وتعطى له ويأخذ المحصول لكنه لا يأخذ الثواب مع المحصول ،ولذلك يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم»﴾.

و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى التى ابتدئت بها سورة فاتحة الكتاب وابتدئت بها كل سورة من سور القرآن الكريم إلا السورة التى نحن بصدد خواطرنا عنها وهى سورة التوبة .

ونجد فى التسمية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «ثلاثة أسماء لله : الله والرحمن والرحيم» و«الله »علم على الذات وهو واجب الوجود بكل صفات الكمال فيه . و«الرحمن» تبين مجالا لأفعال الله وصفاته . و«الرحيم» تبين مجال عطائه لنا فى الآخرة . وبما أننا لا نملك سيطرة على أى جنس من أجناس الكون إلا بأن يسخره الله تعالى لنا ليخدمنا ؛ إذن فمن الطبعى أن تقبل أيها الإنسان على التفاعل مع أى شىء فى الكون ، وأن تبتدىء ذلك باسم الذى سخر لك هذا الشىء ؛ لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك ، فليس لك قدرة إلا فى حدود ما منحه الله لك ، ولا تدخل على أى شىء بعلمك ؛ لأنه لا علم لك إلا ما علمك الله . وعليك أن تتذكر هبه الله لك وأن تقول : «إننى أقبلت يارب على هذا الفعل لا بقوتى ولا باقتدارى ولكن باسمك أنت سبحانك أنت الذى سخرته لى» وحين يقبل الإنسان على أى عمل باسم الله ، فالله يعطيه خير ذلك العمل ويبارك له فيه

صحيح أن الأشياء تنفعل أيضا للكافر حين يُقبل عليها دون أن ينطق ويقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكم ربوبيته لكل الخلق .. مؤمنهم وكافرهم ، وهو الذى استدعى الخلق الى الكون ؛ لذلك جعل الكون يعطى المؤمن والكافر ، وقولك أيها المؤمن فى بدء أى عمل : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعتبر حركة عبودية لك فتذكر نعمة الله لك فى التسخير ، وهى إن لم تزدك عن الكافر شيئا فى

انفعـال الأشياء لك ، فهـى قد ضمنت لك ثـواب تـذكـرك لنعمة الله تعـالى ولا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب .

وإذا نظرنـا إلى اسم الله فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وجدنـا أن «الله» هو اسم علم على واجب الوجود وله صفـات كثيرة ، هذه الصفات أصبحت فى مجال الأسماء الحسنى لله : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [**الأعراف** : ١٨٠]

ولنـوضح ذلك : أنت فى حيـاتك اليوميـة قـد تلتقى بإنسـان حليم ذى أناة ووقـار، فتصفه بأنه حليم ، وتقابل إنسانا له ثـراء فتقول : فلان غنى ، وتلتقى بإنسان له حكمة فتقول : فلان حكيم ، وأنت تلحظ أنه لابد من وجـود موصوف لتصفه ، أما حين نطلق الحكمـة والغنى والحلم فهى لاتنصرف على إطـلاقهـا إلا لله. فإن قلت: «الحكيم» على إطلاقـه و«الرحيم» على إطـلاقه و«الغنى» على إطـلاقه فهى كلهـا تنصرف إلى الحق عز وجل . وكـذلك الـرحمة على إطـلاقهـا تنصرف إلى الله تعـالى : فـالـرحمة فى كل راحـم فى الأرض هى بعض هبـات الـرحمة الهابطـة من الله تعـالى إلى الخلق . وتتسـامى الـرحمة فى الرحماء فى الدنيا إلى أن تتصل بالرحيم الأعلى سبحانه وتعالى .

إذن فهو سبحانه وتعالى ينبـوع الرحمة . وإذا أطلقت كلمة «الرحيم» انصرفت لله تعالى ، أما إذا كنت تصف بها إنسـانا فهى محدودة ونسبية . هذا بـالنسبة لأسماء الله التى هى صفاته ، أمـا اسم «الله» فهو لا يعطى صفة وإنما يعطى ذاتا موصـوفة بصفات الكمال . ومادام علما على واجب الـوجود ، فـلا يطلق على غيره . ومن قدرة الله تعـالى أن أحدا لا يجرؤ أن يسمى نفسه أو أحـد أبنائه باسم «الله» إنما ظل هـذا الاسم الكريـم من قبل ومن بعد الإسلام علماً على واجب الوجود وهو الحق الأعلى .

إننا نجـد الناس تطلق على ذريتهم أسماء، منهم من يسمى ابنـه «محمدا» ولا يسمى ابنه التـالى بنفس الاسم ، فكلمة «محمد» أصبحت مشخصة لـلابن الأول ، لكن بعضا من أهل الـريف من يحب التفـاؤل بـاسم «محـمـد» لأنه اسم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ فيسمى ابنـه الأكبر «محمد الكبير» ويسمى ابنـه التـالى «محمد الصغير» ويتمايـز الأبناء أصحاب الاسم الواحد بأوصاف أخرى مثل: «محمد الطيب» و«محمد الطاهر» .

إذن فإطـلاق الأسماء على المسميات أمر شـائع فى دنيا النـاس وليس بعجيب . لكن الله حين اختار لنفسه اسما هو علم عليه وحـده وهو «الله» وهو الدال على صفات الكمال فيه سبحـانه وتعـالى . لم يجرؤ أحد الكـافرين أن يسمى تـابعا لـه بهذا الاسم . ورغم أن الكفار معارضون ومعانـدون لكلمة الإيمان ، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ أن يقول : «مادام الله قد سمى نفســه بهذا الاسم فأنا سـأسمى هذا الشىء «الله» . ولهذا قـال الحق تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

ويهيج الحق جل وعلا فى الكـافرين غـريزة التحدى ، حتى لا يقـال : لم نُهَجْ ولم يطرأ هذا الأمر على بالنا ، وجعلها الحق واضحة أمامهم وعلى بالهم وقال سبحانه:

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء واحد منهم وقال :

ـ سأسمى ابنى «الله» .

لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يدخل نفسه فى التجربـة ، مما يدل على أن أى كافر بالله أو مشرك به إنما يعبد وهما ، لا يقينا ، ذلك أنه لو كـان مؤمنا بما يعبد من غير الله لأطلق هذا الاسم على أى مخلوق ولعـاش فى حماية من عبده ، ولكن أحدا من الكـافرين لم يجرؤ على ذلك قبل نزول القرآن أو بعده ؛ لأن الناس لم يتجهوا إلى هذا اللون من الفكر ، فها هو ذا القرآن الكريم قد نزل وواجههم بالتحدى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

إن هـذا يدل على أن الـذين يعبدون شيئـا غير الله لا يثقـون فى ذلك الشىء أبدا ولـو كانـوا واثقين فيه بحـاله لقالـوا : نحن نقولها ونسمى الأشخـاص أو الأشياء بها ونحن مطمئنون إلى أن هذا الذى نعبده يحمينا ، ولكن أحدا منهم لم يفعل ذلك .

ومن بعـد ذلـك يأتى فى «بسم الله الـرحمن الـرحيـم» اسمان من أسماء الله تعـالى هما «الرحمن» و«الرحيم» وأنت حين تبدأ عملا «بسم الله» فأنـت تؤمن يقينا أنك تبدأ باسم

من يعينك على فعلك ، فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة . فأنت تقول : «باسم القوى» حتى يمدك الحق بأسرار صفة القوى ، وإن كنت تريد علماً ؛ فأنت تقول: «باسم العليم» ومن يريد الحكمة عليه أن يقول: «باسم الحكيم» . ومن يريد أن يعينه الله على قهر عدوله ، عليه أن يقول «باسم القهار» . وأنت حر فى أن تبدأ عملك بأى اسم من أسماء الله لتقبل على حركتك فى هذه الدنيا لتنفعل لك ، ولكن الأفعال لاتقتصر على مسيل صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة فى كل فعل ، فأى فعل مهما بدا تافهاً فى حدود تصورك أنت ، يحتاج إلى صفات متعددة ؛ يحتاج إلى القدرة وإلى الحكمة وإلى الأناة والحلم وإلى غيرها من الصفات .

وحتى لايثقل الله عليك لتكرر الصفات التى تعينك فى مجالات العمل المختلفة ، فقد علمنا المولى سبحانه وتعالى الاسم الذى يجمع كل المجالات ، إنه «الله» فإذا قلت: «باسم الله» فكأنك قلت «باسم القوى» و«باسم العليم» و«باسم الحكيم» و«باسم الرحيم» و«باسم المهيمن» و«باسم القادر» و«باسم القاهر» ، كأنك ابتدأت وسمّيت بكل أسماء الله الحسنى ؛ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نبتدىء كل عمل لنا ذى بال بقولنا : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيجب أن نستثمر هذا الأمر ونزيده بأن نستدرك ما فات من نعمة البدء بالتسمية وباسم الله على كل عمل لم نبدأه بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وهذا اسمه : «بسم الله »قضاءً ، فأنت بذلك تقضى ما عليك مما فاتك من بدء أعمالك السابقة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وتضيف أيضا : وبسم الله عن كل عامل نسى أن يقول عند بدء عمله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فتكون قد أديت عن نفسك فى الحال وأديت عن نفسك فى الماضى ، وحملت عن أخيك الساهى عن التسمية ، وهنا يعطيك الله شحنه البركة فى كل ما تأتيه مضاعفاً بنيتك فيه .

ولذلك نحن نسمع بعض الأئمة حين ينوى الصلاة يسرّ بالتسمية وبعد ذلك يقرأ الفاتحة جهراً ابتداءً بقول الحق:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والعالم من هـؤلاء يبدأ الصلاة بـالتسمية سرا ، لأن الصـلاة عمل ذو بال وكل شيء ذى بال يجب أن يبدأه المؤمن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وذكر فى الحديث القدسى :

عن أبى هـريـرة ــ رضى الله عنـه ـ قـال : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول: قـال الله عز وجل: قسّمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبـدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل : حمدنى عبدى، فإذا قال : ﴿الـرحمن الرحيم﴾ قـال الله ـ عـز وجل ــ : أثنى على عبدى ، فإذا قـال: ﴿ مالك يـوم الدين﴾ قـال الله ـ عز وجل ـ مجدنـى عبدى ، فإذا قال : ﴿إياك نعبـد وإياك نستعين﴾ قال الله ــ عز وجل ـ : هـذا بينى وبين عبدى ، ولعبـدى ما سأل ، وإذا قال : ﴿اهـدنا الصراط المستقيم، صراط الـذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضـالين ﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل)[1]

ونلحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى آية من آيات الفاتحة :

فكأن الحق سبحانه وتعالى حين بدأ القرآن بالفاتحة ، وبدأ الفاتحة .

بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

بدأ بها لنتعلم أن نبدأ بها أى عمل ، وكل عمل هو إلى غاية ونتيجة .

وعلى ذلك فحين بدأ الحق تبارك وتعالى حديثه القـدسى بحمد العبد لله ، فهذا يدل على أن فاتحة الكتـاب شيء ، والتسمية الاستهـلالية شيء آخـر . إذن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مـن القرآن ولكنها ليست من نص السـورة، لأن الحق سبحانـه وتعالى عنـدما فصّل الحديث القــدسى ، لم يأت بها ،ولــذلك قــال العلماء : إن ﴿بسم الله الــرحمن الـــرحيم﴾ ليسـت من نص كل سورة فى القرآن الكريم ولذلك يسمى الإمام بها فى بعض الأحيان سراً .

ولنا أن نتذكـر أن الحقَّ سبحانه وتعالى اختص خلقه برحمتـه وأراد أن يرفع الحياء عن

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

العاصى لله ، فللعاصى لله حين يقبل على العمـل أن يستعين بسم الله ، ولا يقولن واحد لنفسه خجلاً .. «أأستعين بمن عصيته وأغضبته » . لا يقـولن إنسان لنفسه هذا ، فالحق سبحـانـه وتعـالى رحمن ورحيم ، لذلـك لايصح أن تمنعك معصيتك لله أن تستهل كل عمل باسمـه سبحانه وتعالى ، فقـد جاء سبحانـه بالحيثية لنا جميعـا ، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيت لنا الدنيا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

إذن فنحن نعيش على رغم معاصينا فى مجالات جـلالات الرحمن وجلالات الرحيم ، وعلينا أن ندقق النظر فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

والحق أيضا يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

والآيتان تتشابهان فى الصدر، وتختلفان فى العجـز؛ لأن الآية الأولى جاءت فى سياق وتجليات الرحمة، وأمـا الآية الثانية فقـد جاءت فى سياق جبروت العاصى الـذى يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته .

فقد جاء قبلها قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨]

وهذا القول مناسب لظلم الإنسان لنفسـه وكفره بنعم الله تعالى ، ولو أراد الإنسان أن يحصى نعم الله عـز وجـل فلن يحصيهـا لأن الله غفـور رحيم ، والنعمـة ــ كما نعـرف ــ تقتضى ثـلاثة عناصر، عنصر هـو المنعِم ، وعنصر هـو المُنعم عليه ، وعنصر هـو النِّعْمة ،

ونعلم أنَّ «إنْ» حـرف شرط وتستعمل لـلأمـر المشكـوك فيـه ، وهى غير «إذا» التى تستعمل للشىء المحقق، وحين يقـول الله سبحـانـه وتعالى : «وإن تعـدوا نعمـة الله لا تحصوها» . فهذا شك فى أن يقبل أحـد على عدّ نعم الله ؛لأن الذى يمكن أن يقبل على إحصاء عددى لأمـر ما ، هو من يظن أن هناك إمكـانة للإحصاء . ولـو حاول إنسان أن يحصى نعم الله تعالى لما استطـاع ؛ لذلك جـاء الحق هنا بـ «إنْ» فـالإنسان قـد يظن أنه قادر على إحصاء نعم الله لكن أحداً لن يستطيع ذلك .

ومن ناحية المنعِم ، هناك استدامة من المنعِم على المنعَم عليه ، ودليل ذلك أنه غفور ورحيم ولا يتخلى عن العاصين فيمنع عنهم النعم، فهـو الذى استدعاهم جميعـا إلى هذا الوجـود . فسبحانه منعم على الإنسان والإنسان ظلوم كفار، ولكنه سبحانه غفور رحيم.

والآن إلى خواطـرنا فى سورة التوبـة التى رأينا أن نستلهمها مما تقدم من التحليق فى آفاق «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وسبحانه وتعـالى قد صنف فى سورة التوبة المشركين وأهل الكتـاب والمنافقين ، وقد قلنـــا إن المنـــافق تتعانـد ملـكاته فهو يعلن إيمانـاً ويبطن كفـراً ، ولذلك قـال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

وعندمـا تتعاند ملكـات الإنسان يكون محتقـراً بين الناس وبينه وبين نفسـه. ولقد اتفق جمهور الفقهاء على أن من أسماء التوبة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين .

وقـد روى سعيد بن جبير قـال : سألت ابن عباس رضى الله عنـه عن سورة بـراءة فقال : تلك الفاضحة ، ومازال ينزل : ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً.

وهؤلاء المنافقون منهم من قال فى غزوة تبوك :

﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبة : ٤٩]

ولقد قال القائل هذا القول طالباً الإذن بعدم الحرب متعللاً أن عيونه تلتفت للنساء ؛ ونساء الروم جميلات وهو يخشى على نفسه الفتنة ، فيرد الحق تبارك وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩]

وكذلك منهم من كان يعيب على النبى صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات ، ويقول :إنه يحابى البعض ولا يعطى الآخرين ، فجاء قوله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]

ومنهم من ادعى على النبى صلى الله عليه وسلم أنه يعطى أذنه لأى إنسان ويحكم بما يسمع من طرف واحد ، ونسى أنه صلى الله عليه وسلم هو أذن خير، فاستمع بحق وكان لسان صدق فبلغ بحق ، لذلك جاء قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة : ٦١]

ومنهم ثعلبة الذى بخل بما أفاء الله تعالى عليه من خير وفضل وقد عاهد الله من قبل على البذل والعطاء مما يرزقه الله ويمنحه من فضل، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) ﴾ [التوبة]

ومنهم من كان ينفق مرغماً فى سبيل الله :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة : ٩٨]

ومنهم من كان منافقا فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة : ١٠١]

وهكـذا كشف الحق سبحانـه وتعالى لـرسـوله وللمـؤمنين كل أصناف الأعـداء ، لذلك أطلق على هذه السورة بأنها «الفـاضحة» لأنها فضحت كل العيوب ، ولم تفعل ذلك ليشمت الناس بعضهم فى بعض أو ليتشفى الخلق فيها أصاب غيرهم من كشف وفضح ، ولكنهـا جـاءت كـذلك ليسلـم الصف الإيمانى من لبنـات الضعف فى تكـوينه، وتعـزل الضعف الإيمانى من صفـوف المسلمين ، ولا يبقى إلا الإيمان الحق . وقد سمى بعض العلماء هذه السـورة «المقشقشة» لأنها تقشقش من النفاق أى تبرىء منـه، وهـذه السورة تـزيح النفـاق من أرض الإيمان. ومنهم من يسميهـا «المبعثـرة»، والبعثرة لا تكـون إلا فى شىء مُكَوَّم ،وعندما تأتِـى لِلْكُومة وتبعثرهـا يظهر الشىء المخبأ فى وسطهـا فهى تبعثـر أسرار المنـافقين. وسميـت «الحافـرة» لأن الإنسـان حين يحفـر الأرض يُخرج المخبأ فيها . وسميت كذلك بـ «المثيرة» لأنها تظهر ما خفى عن العيون، . وسميت «المدمدمـة» و«المهلكة» لأنها أوضحت العقـاب لكل مجرم ، مصداقـاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٤]

وسميت «سـورة العـذاب» . لأنها تكشف مـا فى الصـدور وأعطـت لكل عـدو للإسلام جـزاءه . وكشفت الستارَ عن أعماقِ كل منافق .وعن حـذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هى سورة العذاب.

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكل اسم ملحظ، والحظ الـوافر فى الأسماء للمنافقين ؛ الفاضحة ، والمقشقشـة ، والمبعثرة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمدمدمـة ، والمهلكة ، وكل ذلك فى كشف المنـافقين . وتبدأ السـورة بكلمة «بـراءة» واسمها سـورة التوبـة ، بينما البراءة قطع ، فكيف يستقيم الأمر ؟

نعلم أن الحق سبحـانـه وتعـالى خلق الخلـق وجعل الإنسـان خليفـة ، وهـو رب الكل، ولـذلك فللـه عـز وجل عطـاءان ؛ عطــاء ربـوبيـة ، بمعنى خلق كل شىء، وملكية كل شىء، والتكفل برزق كل الخلق ، وفى هذا يستـوى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، ومن يأخذ بـالأسباب وإن كان كافراً أخذ من خير الـربوبية ، وإن لم يأخذ المؤمن بالأسبـاب يظل متخلفاً ، هذا هـو عطاء الربوبيـة ، أما عطاء الألوهيـة فهو فى

التكليف «افعل» و«لا تفعل» والتكاليف تختص بالعبادة .

إذن فالله رب الجميع لأنه هو الذى استدعاهم للوجود وضمن لهم مقومات الحياة .

والسورة تقول :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ ﴾

والبراءة ــ كما قلنا ــ هى انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

وهو أيضا يقول : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣]

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذى عهده رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهى بقطع هذه المعاهدة . وكلمة «براءة» تجدها فى «الدَّيْن» ويقال: «برىءَ فلانٌ من الدَّيْن». أى أن الدَّيْنَ كان لازماً فى رقبته ، وحين سَدَّده وأدَّاه يقال : «برىء من الدَّين» . ويُقال : «برىء فلان من المرض» إذا شُفِى منه أى أن المرَض كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بينه وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يُوَفِّ هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود . وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقض هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقضه لها إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت فى العام الثامن من الهجرة ؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأصنام والوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير «المكين» وهو الإنسان الذى يحيا بجانب البيت

الحرام، وكـان لابـد مـن تصفيـة تجعل المؤمنين فى جـانب ، والكفـار وأهل الكتـاب والمنـافقين فى جانب آخـر، وقد حـدث هذا فى العـام التاسع من الهجـرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجـد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحـاب العهود التى كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم لستم أهـلاً للأمان ولا للـوفاء بـالعهود ؛ لذلك نحن قـد قطعنا هذه العهود . وهذه القطيعة ليست من إرادة بشريـة من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعـالى ، فقد يجوز أن يعرف البشر شيئاً ويَغيب عنهم أشيـاء . لكن العالم الأعلى قال : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسـول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى، ومبلغة من الرسول الخاتـم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونعلـم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلـة خزاعة ، وكانت هناك قبيلة مضادة لها اسمهـا قبيلة بكر متحالفـة مع قريش . وقد أعانت قـريش قبيلة بكر على قبيلة خـزاعة ، فـذهب إلى المدينة شـاعر من خـزاعة هـو عمرو بن سـالم الخزاعى وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يـارب إنّى ناشـدٌ مُحَمَّـدا .. حلف أبينا وأبيه الأتلَدا
كُنـت لنا أبـاً وكـنّا ولـدا .. ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزع يـدا
فانصر هداك الله نَصْراً عتدا .. وادع عبـاد الله يأتوا مددَا
إن قريشـاً أخلفُوك الموعـدا .. ونَقَضُـوا ميثاقَك المؤكَّدا
هم بيتـونا بالوتير هُجَّدا .. وقتلـونا ركَّعـاً وسُـجَّدا

فلما سمع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ذلك قـال : نصرت يا عمـرو بن سـالم ، لانصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشـركون هم الـذين نقضـوا العهد أولاً ، وصاروا لا يـؤمن لهم جانب لأنهم

لا يحترمون عهداً أو معاهدة ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى :﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

الخطاب هنا للمسلمين ، والبراءة من المشركين . ونزل بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

والخطاب هنا للمشركين . وتساءل البعض : كيف يتأتى أن يكون خطاب الحق فى الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتى خطاب من الله للمشركين ؟ . وقال بعض العلماء إنه مادامت البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين قولوا للمشركين : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لابد أن يكون هناك خطاب للذين قطعوا، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا فى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

وخطابه للمقطوعين يتمثل فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ومن سماحة هذا الدين الذى أنزله الحق تبارك وتعالى ؛ أن المولى سبحانه يعطى مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن الإسلام أخذهم على غرة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

وكلمـة « فسيحوا » تعطى ضمانـاً إيمانيـا ، فـ«ساح» معنـاهـا سار ببطء ، وهنـاك «ساح الشـىء» و«سال الشىء» عنـدما تقول : «سـال الماء» أى تدفق وسـال، وأنت تشاهده سائلا . وإن قلت: «ساح السمن» أى سـار ببطء لا يدرك حتى صار سائلا . ولماذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿فسيحوا فى الأرض﴾؟ .

والإجـابـة : أن سماحـة الإسـلام تمنع أن نأخـذكم على غـرة ، وعلى الـذين قطع الإسلام معهـم العهد أن يسيروا وهـم مطمئنـون وفى أمن وأمان ولا يتعـرض لهم أحد . ووقف العلماء عند تحديـد أربعة الأشهر، ونظـر بعضهم إلى تاريخ النزول ، وقـد نزلت هذه الآيـة فى شوال ؛ إذن فتكون الأشهـر الأربعة هى : شوال وذو القعـدة وذو الحجة والمحرم .

وقال علماء آخـرون : إن ساعة النـزول لا علاقـة لها بالأشهر الأربعـة، وإن الأشهر الأربعة تبدأ من ساعة الإبلاغ أى فى الحج ؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وعلى ذلك فتكـون من يوم العـاشر من ذى الحجة إلى يـوم العاشر من ربيع الآخـر . وقال بعض العلماء : إن نزول هذه الآية كان فى عام النسىء الذى كان الكفار يؤخرون ويقدمون فى الأشهر الحرم ، والذى قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٣٧]

وأضـاف صلى الله عليه وسلـم فى حديثه الذى رواه أبو بكـرة حيث قال : إن النبى صلى الله عليـه وسلم خطب فى حجته فقـال : «ألا إن الزمـان قد استـدار كهيئته يـوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »[1]

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخارى .

أى أنه صلى الله عليـه وسلم حسب من بداية الكـون إلى هذا الوقت فرجع بـالأمر إلى نصابـه وألغى النسىء ؛ هـذا النسىء الذى كـانوا يقـررونه أيام الشرك لتقـديم أو لتأخير الأشهـر الحرم ؛ لأنهم كانـوا إذا أتت الأشهـر الحرم ويريـدون الحرب يؤجلـون الشهر الحرام حتى يمكنهم الاستمـرار فى الحرب . ولذلك كان الحج فى هـذه السنة فى شهر ذى القعدة . ومادام الحج فى شهر ذى القعـدة ، تنتهى الشهور الأربعة فى العاشر من ربيع الأول . وقيل إن اختيـار أربعـة الأشهـر جـاء ليـوافق مـا شرعـه الله فى قـولـه سبحانه تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦]

فيكون عدد الأشهـر مناسبا لعدد الأشهـر الحرم . ولكن هذه المرة فيها ثـلاثة أشهر حرم فقط هى: ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع هـو رجب فكيف يقال أربعة ؟

ونقول : إن الأشهـر الأربعة الحرم التى فيها رجـب هى الأشهر الحرم الدائمـة ، أمّا الأشهر الأربعـة التى ذكرت فى هـذه الآية فهى أربعـة أشهر للعهـد تنتهى بانتهـائها ، ولكن أربعة الأشهـر الحرم الأصلية تبقى محرمـة دائماً ، ولقد شرع الله عـز وجل الأشهر الحرم ليحـرم دمـاء النـاس من النـاس ؛ ذلك أن الحروب بين العـرب كـانت تستمـر سنوات طويلة دون نصر حـاسم . فجعل الله الأشهر الحرم حتى يجنح الناس إلى السلم ، ويتحكم فيها العقل وتنتهى الحروب .

وهنـا يبلغنا الحق تبـارك وتعالى أنـه قد أعطى المشركين أربعـة أشهر يسيرون فيهـا آمنين ، لماذا ؟ لأن الـذى يكون ضعيفـا مع خصمه ينتهـز أى فـرصة يقـدر عليه فيهـا ليستغلها ويقضى عليـه ، ولا يمهله أربعة أشهر حتى ولا أربعة أيـام . ولكن القوى لا يبـالى بمد الأجل لخصمـه لأنه يستطيع أن يأتى بـه فى أية لحظـة . لذلك يقـول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

ويقال فلان أعجز فلاناً ، أى جعلـه ضعيفا عاجزاً . ولذلك فإن كلّ شىء مُعجز شرف للمُعْجَز ، والمثـال : عندما جاء القـرآن الكريم معجزاً للعرب وكـان ذلك شرفا

لهم لأنهم كانوا أمة بلاغةٍ وفصاحةٍ . والله لا يتحدى الضعيف وإنما يتحدى القوى ، فلغة القرآن أعجزت الفصيح والبليغ . وحين يعطى الحق سبحانه وتعالى هذه المهلة للمشركين إنما كانت ببنود معينة ، وكان أمير الحج فى هذا العام سيدُنا أبو بكر وكان هو الذى سيبلغ البراءة . وهى أنه لا يدخل المسجد الحرام مشرك ولا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولن يدخل الجنة إلا من آمن ، هذه هى البنود .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطنته النبوية كان يعرف أن العرب لا يقبلون نقض العهود والمواثيق إلا من أهلها : فأرسل صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا بن أبى طالب ليعلن نقض العهود ؛ لأنه علم أن الكفار كانوا سيقولون : لا نقبل نقض العهد من أبى بكر ، بل لابد أن يكون من واحد من آل الناقض .

وحينما قال المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

أعطى هذه المهلة الطويلة ، لأنهم مهما فعلوا فى هذه المهلة ، فالله غالب على أمره . فلن يفوت أو يغيب شىء عنه سبحانه وتعالى ، ومهما حاولوا أن يجدوا حلفاء لهم فلن يستطيعوا شيئا مع الله ، صحيح أنهم ضعاف فى هذه الفترة ، وصحيح أنَّ الضعيف قد تكون قدرته على القوى مميتة لأنه يعرف أن فرصته واحدة ، وإن لم يقدر على خصمه فسوف ينتهى ، لكن الله غالب على أمره . وأراد الشاعر العربى أن يعبر عن ذلك فقال :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة   قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ينتهز الفرصة ليقضى على خصمه . أما القوى فيعرف أنه قادر على خصمه فى أى وقت ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢]

الإخزاء هو الإذلال بفضيحة وعار ولا يكون ذلك إلا لمن كان متكبراً متعالياً . أى أن الله قادر على أن يخزى الكفار بفضيحة وعار مهما بلغت قوتهم وكبرهم .

ويقول الحق عز وجل بعد ذلك :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾

وبعض الناس يقول مادام الله تعالى قد قال :

﴿ براءةٌ مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

فلماذا يعيد سبحانه وتعالى :

﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ورَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

ونقول : إن البراءة جاءت إعلاماً بالمبدأ ، والأذان جاء لإبلاغ البراءة ، و«أذان» معناها إعلام يبلغ للناس كلهم ، تماماً كأذان الصلاة ؛ فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة . والأذان مأخوذ من الأذن .لأن الإنسان حين يعلم الناس بشيء لابد أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم ، ولذلك تجد الأذن هى الوسيلة الأولى للإدراك ، فقبل أن ترى تسمع ، وقبل أن تتكلم لابد أن تسمع ، فإن لم تسمع من يتكلم لا تقدر أنت على الكلام . ولذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ [البقرة : ١٨]

أى لا يسمعون ، وماداموا لا يسمعون لا يتكلمون . وقد يأتى بعض الناس ويقول: إنَّ وسيلة الإعلام قد تعتمد على العين ويقرأ منها الإنسان . ولكن من يقول ذلك

ينسى أن الإنسـان لا يستطيع أن يقـرأ إلا إذا سمع ألفاظ الحروف ، وحين يقـال لـه : هذه ألف وهـذه باء وهذه تـاء فهو يتعلم . إذن كل بلاغ إنما يبـدأ بالأذن ، والأذن هى أول آلة إدراكية تؤدى مهمتهـا فور ولادة الإنسان ؛ لأنك إن أشرت بأصبعك إلى عينى طفل مضى على ولادته أيام لا يتأثـر . ذلك أن العين لا تبدأ فى أداء مهمتها قبل بضعة أيام ، ولكن إذا صرخت بجوار الطفل يسمع وينزعج .

والله سبحـانه وتعـالى حين يتحـدث عن وسائل الإدراك يـأتى بالسمع أولاً فيقـول جل جلاله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [**النحل** : ٧٨]

لأن الأذن تبدأ عملها فوراً ـ كما قلنا ـ والعين لا تبدأ عملها إلا بعد أربعة أو خمسة أيام . والأذن تستقبل بها أصـواتاً متعـددة فى وقت واحد . ولكن مجال الـرؤية محدود . وأنت حين لا تريـد أن ترى شيئـا تبعد عينيك عنه . ولكـن الأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أن تستطيع منعها . ولذلك يأتى السمع مفرداً ، والأبصار متعددة ؛ لأن هـذا يرى شيئـاً وهـذا يرى شيئـاً . لكنك بـالأذن تسمع نائماً أو متيقظـاً ، وتأتيك الأصوات ويتـوحد المدرك من السمـع ؛ فهى آلة الاستـدعاء والإيقاظ . ولـذلك حين تكلم الله عن أهل الكهف يريـد أن ينيمهم ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا . رغم أن أقصى ما ينامه الإنسان هو يوم أو بعض يوم ، قال سبحانه وتعالى عنهم فى هذا الشأن :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [**الكهف**]

وكان الضرب على الآذان حتـى لا يوقظهم صـوت عال لإنسـان أو حيـوان . وهم عندما قاموا : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [**الكهف** : ١٩]

لأن الإنسان عادة لا ينـام أكثر من هذه المدة ، وهـذا يدل على أنهم حين استيقظوا كانـوا على الهيئة التى نامـوا عليها لم يتغير فيهم شىء ، ممـا يدل على أن الله أوقف تأثير الزمن عليهم ، ولولا أن الله قد ضرب على آذانهم لأيقظهم صـوت الرعد أو الحيوانات المفترسـة أو غيرهـا من الأصوات . وأثبت لنـا العلم الحديث أن مَنْ يـرقـد فى الفراش بسبب المرض مـدة طـويلـة يخاف الأطبـاء من إصـابته بقـروح الفـراش ، فـلا يخاف

الطبيب على المريض من المرض فقط ، بل يخاف أيضاً من آثار الرقود على الجسد . والله يلفتنا إلى هذه الحقيقة فيقول :

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [**الكهف** : ١٨]

ولأن الأذن هى وسيلة السمع ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [**الانشقاق**]

وهذا القول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأن تنشق ؛ تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، وإذا كان الذى بلغ الأذان من الله ورسوله إلى كل الناس يوم الحج هو على بن أبى طالب ؛ فكيف يقال ؟

﴿ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [**التوبة** : ٣]

نقول : إن الله تعالى أعلم رسوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليا ، وعلى هو الذى نادى وبلَّغ ، لكن هناك من يقول : إن الله طلب البلاغ إلى الناس . مع أن البراءة كانت للمشركين .

ونقول : إن الإعلام كان لكل الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم ؛ فيعرف المؤمن أن العهد قد قطع ، ويعرف غير المؤمن أن العهد قد قطع ، فلا يؤخذ أحد على غرة ، وليرتب كل إنسان موقفه فى ضوء البلاغ الصادر من الله عز وجل ؛ والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم ، بل كان الخطاب للعالم كله ، وإن كان المؤمنون هم الذين سيجاهدون لتنسجم حركة الأرض مع منهج السماء . ومن هذا يستفيد المؤمن والكافر ؛ لأن الكل سينتفع بالعدل والأمانة والنزاهة التى يضعها المنهج على الأرض .

ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء

بالمنهج لإصلاح الكون كلـه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أنزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥]

أى أن الحكم بين النـاس جميعـاً هـو المطلـوب من رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حسب منهج السماء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا القول فيه تعميم فى المكان وتعميم فى المكين ، فيوم الحج يجتمع الناس كلهم فى مكان واحد .

وقـد يتساءل البعض : لماذا سمى الحج الأكبر ؟ نقـول : لأنه الحج الـوحيد الـذى اجتمع فيه الكفار والمؤمنون . وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين .

وبعض المفسرين يقـولون : إن كلمـة الحج الأكبر جـاءت لتميز بين الحج الأصغـر وهى العمرة وبين الحج الذى يكون فيه الوقـوف بعرفات ، ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر .

وقيل إنَّ يوم الحج الأكبر هو يـوم عرفة . ولكن بعض العلماء قالوا : إنـه يوم النحر؛ لأن فيه منـاسك كثيرة : رمى الجمـرات والتقصير وطواف الإفاضـة ؛ لذلك سمـى يوم النحر بـالحج الأكبر لكثرة مناسكـه ، وقيل : إنها أيام الحج كلها وأنها قـد سميت بيوم الحج على طريقة العـرب فى أداء الحدث الواحد بظرفـه الملائم ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : يوم حنين ؟ . وحنين استغرقت أيامـاً فكأن اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير، فكأن أيام الحج كلها يطلق عليها «يوم الحج».

أو أن الإعلان قـاله سيدنا على بن أبى طـالب رضى الله عنه يوم عرفـة ، وبلغ هذا الإعلام كل من سمعـه إلى غيره، والآية الكريمـة تقول : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا إذن من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن رسوله إلى على كرم الله وجهه، ومن على للمؤمنين ، ومن المؤمنين ؛ من سمع لمن لم يسمع ، أن الله برىء من المشركين ،وكان هذا إعلانا بالقطيعة ، ولكن الله برحمته لا يغلق الباب أمام عباده أبداً، ولذلك يقول : ﴿ **فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [**التوبة** : ٣]

أى فتح لهم باب التوبة فإن تابوا عفا الله عنهم ، وإن لم يتوبوا فالقول الفصل هو : ﴿ **وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [**التوبة** : ٣]

إذن فالحق سبحانه وتعالى قادر عليهم وقادر أن يأتى بهم مهما كانوا ، وعلى النبى والمبلغين عنه أن يبشروا الكفار بالعذاب الأليم ، والبشارة إعلام بخبر سار ، والإنذار إخبار بسوء . فهل العذاب بشارة أم إنذار ؟. نقول : إن هذا هو جمال أسلوب القرآن الكريم ، يبشر الكفار فيتوقعون خبراً سارا : ثم يعطيهم الخبر السيىء بالعذاب الذى ينتظرهم ؛ تماماً كما تأتى إلى إنسان يعانى من العطش الشديد ، ثم تأتى بكوب ماء مثلج وعندما تصل به إليه ويكاد يلمس فمه تفرغه على الأرض، فيكون هذا زيادة فى التعذيب وزيادة فى الحسرة ، فالنفس تنبسط أولاً ثم يأتى القبض.

وفى هذا يقول الشاعر :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ

فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعتْ وتَجلَّتِ

وهكذا تكون اللذعة لذعتين ، ابتداء مطمع ، وإنتهاء ميئس بينما فى الإنذار لذعة واحدة فقط . وانظر إلى قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ **وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا** ﴾ [**الكهف** : ٢٩]

حين تسمع «يغاثوا» تتوقع الفرج فيأتى الجواب :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣]

والعذاب من الله يوصف مرة بأنه عظيم ومرة أخرى يوصف بأنه مهين وثالثة يوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المُعَذَّبين ، وسيأخذ كل مسيء وعاص وكافر من العذاب ما يناسبه ، فهناك إنسان يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسان يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كل واحد من الناس سيأتيه العذاب الذى يتعبه ، فإن كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإن كان لا يتعبه إلا الإهانة جاءته ، وإن كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾



هذا استثناء ، ولكنه استثناء مشروط بأن هؤلاء كانوا أمناء على العهد وموفين به ولم ينقصوا منه شيئا ، أى لم يصدوا لكم تجارة ولم يستولوا على أغنام ولم يسرقوا أسلحتكم ولم يغروا بكم أحداً ولم يظاهروا عليكم أحداً ؛ وهؤلاء هم بنو ضمرة وبنو كنانة ، فلم يحدث منهم شيء ضد المؤمنين فجاء الأمر بأن يستمر العهد معهم إلى مدته . ولقائل أن يقول : إن المستثنى يقتضى مستثنى منه ، ، ونقول : المستثنى منه هم المشركون فى قوله الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

والإنقــاص معنــاه تقليل الكمّ إمَّــا فى الـذوات، وإمــا فى متعلقـات الــذوات، والإنقاص فى الذوات يكـون بالقتل، والإنقاص فى متعلقات الـذوات يكون بمصادرة التجارة أو الماشية، وسرقة السلاح.

إذن ففى الإنقاص هنـا مرحلتان ؛ مرحلـة فى الذوات أى بالقتل، ومرحلـة فى تابع الـذوات وهى الأشياء المملـوكة، ولـذلك قال : «لم ينقصـوكم شيئا» أى شىء كـان، سواء فى الذوات أو متعلقـات الذوات، وأيضا لم يغروا عليكم أحـداً ولم يشجعوا أحداً على أى عمل ضد الرسول.

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

ويظاهـر أى يعادل، وكلهـا مأخوذة من مادة الظهـر ، وهو يتحمل أكثـر من اليد، فالإنسـان لايقدر أن يحمـل جوال قمح بيـده مثلا، ولكنـه يقدر أن يحملـه على ظهره. ولذلك يقـول المثل العامى : من له ظهـر لايضرب على بطنه . إذن فالظهر للمعـونة. والحق يقول:

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤]

أى عالين .

والحق سبحانـه وتعالى حين قص علينـا نبأ تآمـر بعض من نساء النبـى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ، قال : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : ٤]

فظهير فى الآية الكـريمة أى معين . ويأتى الحق هنـا إلى منطقة القـوة فى الإنسان ، لذلك يقال: فلان يشد ظهرى . أى يعـاوننى بقوة . ويقال : ظهر فلان على فلان . أى غلبه وتفـوق عليه ، ويقال : وعـلا ظهره . أى استـولى على منطقة القوة منـه ؛ لذلك نجد أن الحق سبحانه وتعـالى حينما تكلم فى سورة الكهف عن ذى القرنين ذكر بعض اللقطات وقال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف]

فالله سبحانه وتعالى لفتنا هنا إلى حقيقة علمية لم نعرفها إلا فى العصر الحديث . فالسد إذا كان كله من مادة صلبة ؛ يتعرض للانهيار إذا ما جاءت هزة أثرت فى كل جوانبه ، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة ، وجزء صغير فى المنتصف وجزء ثالث ، ثم رابع ، ويفصل بين كُلٍّ جزء ردم من تراب فالردم فيه تنفسات بحيث يمتص الصدمة ، وهى نفس فكرة الإسفنج التى نحيط بها الأشياء التى نخاف عليها من الكسر لنحفظها ، فلو أن الصندوق من الخشب أو الحديد أو أى مادة صلبة لتحطم الشيء الموضوع فيه بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية ، ولكن إذا أحطناه بوسادة من الإسفنج فهى تمتص الصدمات. وأنواع السدود التى تتلقى الصدمات يقال عنها: السد الركامى .

ونلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [الكهف : ٩٥]

وهذا يدلنا على أن القوى يجب أن يعين الضعيف معونة لا تحوجه له مرة أخرى ؛ لذلك يقال : لا تعط الجائع سمكة ؛ ولكن علمه أن يصطاد السمك ليعتمد على نفسه بعد ذلك ، وهذه هى المعونة الصحيحة ، ولذلك نجد أن ذا القرنين رفض أن يأخذ مقابلا لبناء الردم ؛لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى . ولو أن كل قَوِيٍّ أراد ثمناً لنصرة الضعيف لاختل ميزان الكون وطغى الناس ، ولكن الأقوياء فى عالمنا يريدون أن يظلموا بقوتهم؛لذلك يختل ميزان الكون الذى نعيش فيه . ولننظر إلى تفويض الله لذى القرنين وكيف أحسن ذو القرنين الحكم بين الناس ، وأقام العدل فيهم وكيف ترصد الظالمين ، قال القرآن الكريم على لسان ذى القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ [**الكهف**: ٨٧، ٨٨]

هكذا أقام ذو القرنين العدل ، بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان ذى القرنين : «أعينونى» يعطينا كيفية إدارة العدل فى الكون ، فذلك الذى أعطاه الله الأسباب إن أراد أن يعين الضعفاء فعليه أن يشركهم فى العمل معه ، ولا يعمل هو وهم يتفرجون وإلاَّ تعودوا على الكسل فتفسد همة كل منهم . ولكن إذا جعلهم يعملون معه سيتعلمون العمل ثم يتقنونه فتزداد مهارتهم وقوتهم فى مواجهة الحياة ؛ لذلك نجد أن ذا القرنين أشرك معه الضعفاء ، وقال لهم : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [**الكهف** : ٩٦]

إذن فقد جعلهم يعملون معه ويبنون ، وهذه أمانة القوى فيما آتاه الله تعالى من القوة ، بل إننا نجده قد تفاهم معهم رغم أن الحق تبارك وتعالى قال فيهم :

﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [**الكهف** : ٩٣]

كيف تفاهم معهم ؟ لعله استخدم لغة الإشارة وتحايل ليفهموا مقصده . ويدلنا القرآن على تفهمهم له أن قال الحق على لسانهم :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [**الكهف**]

قد تَمَّ بناء السد بمعاونة هؤلاء الضعفاء ، وكان بناء هذا السد بصورة تتحدى طاقة العدوان فى كل من يأجوج ومأجوج ، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه ، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه ، وهذا وضحه لنا المولى سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [**الكهف**]

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة : ٤]

أى لم يعينوا ولم يساعدوا أحداً من أعدائكم حتى يتغلب عليكم ، وسماحته سبحانه وتعالى بإتمام مدة العهد تعنى أن هذه المدة كانت أكثر من أربعة أشهر. وهكذا يعطينا سبحانه جلال عدالته ، فسمح لمن كان العهد معهم أقل من أربعة أشهر ، أن يأخذوا مهلة أربعةأشهر ، والحق سبحانه لا يحب نقض العهد ؛ لذلك طلب من المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين عاهدوهم مدة العهد ولو كانت أكثر من أربعة أشهر ؛ حتى يتعلم المؤمن أن يُوفِيَ بالعهد مادام الطرف الآخر يحترمه . وزيادة المدة هنا ؛ أو زيادة المهلة نابعة من قوة الله تعالى وقدرته؛ لأن كل من فى الأرض غير معجزى الله ، فإن طالت المدة أو قصرت فلن تعطى المشركين ميزة ما ، فالله يستطيع أن ينالهم فى أى وقت وفى أى مكان .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤]

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أى شىء ، يغضب الله وقاية . وإن تعجب بعض الناس من قول الحق سبحانه وتعالى: «واتقوا الله» وقوله: ﴿واتقوا النار﴾ فإننا نقول : إن معنى ﴿اتقوا الله﴾ أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقاية ، اتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفات جلال منها المنتقم والجبار والقهار ، وله صفات جمال مثل الرحيم ، والوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، إذن اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية لكم وحماية من أن تتعرضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويطيعه فى كل ما أمر به لينال من فيض صفات الجمال . وقوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿واتقوا النار﴾ أى اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسكم النار .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

و«انسلخ» يعنى انقضت وانتهت الأشهر الحرم ، ومادة «سلخ» و«انسلخ» تدور كلها حول نزع شىء ملتصق بشىء ، فتقول: «سلخت الشاة» أى نزعت الجلد عن اللحم، والجلد يكون ملتصقا باللحم التصاقاً شديداً . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأشهر الحرم هى زمان ، والزمان ظرف، فالناس مظروفون فى الزمان والمكان ، فكأن الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين ، فإذا مرت الأشهر الحرم تزول هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم . والانسلاخ له معنيان: فمرة يقال ينسلخ الشىء عن الشىء، ومرة يقال : ينسلخ الشىء من الشىء ، ولذلك تجد فى القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا ﴾ [**الأعراف** : ١٧٥]

وهذه الآية الكريمة التى نزلت فى ابن باعوراء الذى أعطاه الله العلم والحكمة والآيات ، ولكنه تهاون فيها وتركها ، فكأنه هو الذى انسلخ بإرادته وليست هى التى انسلخت منه ، وصار بذلك مقابلا للشاة ، ونحن نسلخ جلد الشاة من الشاة .

والحق سبحانه وتعالى أيضا يقول :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [**يس** : ٣٧]

فكأن الليل مثل الذبيحة، ثم يأتى النهار فيسلخ منه الظلمة ويزيلها عنه ويأتى بالضياء ، فكأن الليل ثوب أسود يأتى عليه ثوب أبيض هو النهار، فإذا جاء ميعاد الليل رفع الثوب الأبيض أو سلخ النور عن ظمة الليل ؛ لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل ، وكأن النور هو الذى يطرأ على الظلمة فيكسوها بياضا ، أى أن الضوء هو الذى يأتى ويذهب ، بينما الظلمة موجودة ، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت نهارا ، وإذا انسلخ منها صارت ليلاً.

وماذا يحدث عندما تنتهى الأشهر الحرم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾ [**التوبة** : ٥]

فكأن الله سبحانه وتعالى بعد أن أعطى المشركين مهلة أربعة أشهر ، والذين لهم عهد أكثر من ذلك يتركون إلى أن تنتهى مدة العهد، ومن بعد ذلك يكون عقاب المشرك هو القتل ، لماذا ؟ لأنه لا يجتمع فى هذا المكان دينان .

ولقائل أن يقول : وأين هى حرية التدين ؟ ونقول : فيه فرق بين بيئة نزل فيها القرآن بلغة أهلها؛ وعلى رسول من أنفسهم ، أى يعرفونه جيدا ويعرفون تاريخه وماضيه ، وبيئة لها أحكامها الخاصة بحكم التنزيل ، فأولئك الذين نزل القرآن فى أرضهم وجاءت الرسالة على رسول منهم وهو موضع ثقة يعرفون صدقه وأمانته ويأتمنونه على كل نفيس وغال يملكونه ، وكان كل ذلك مقدمة للرسالة ، وكانت المقدمة كفيلة إذا قال لهم إننى رسول الله لم يكذبوه ؛ لأنه إذا لم يكن قد كذب عليهم طوال أربعين سنة عاشها بينهم ، فهل يكذب على الله ؟ الذى لا يكذب على المخلوق أيكذب على الله ؟ هذا كلام لا يتفق مع العقل والمنطق ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [**التوبة** : ١٢٨]

أى ليس غريبا عليكم ، تعرفونه جيدا حتى إنكم كنتم تأتمنونه على أغلى ما تملكون، وتلقبونه بالأمين فى كل شئون الدنيا ، فكيف ينقلب الأمين غير صادق عندكم ؟ كما أن القرآن الكريم وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء

بلغتكم وأسلوبـه من جنس ما نبغتم فيه ، فكان إعجـازاً لكم ، وتحداكم الله تعالى بأن تأتوا بسورة من مثله فعجزتم وأنتم ملوك البـلاغة والفصاحة ، فكأن الإعجاز من أمانة الرسول وصدقه ، والإعجاز من بـلاغة القرآن وتحديه يقتضى منكم الإيمان فيكون عدم الإيمان هنا مكابرة تقتضى عقاباً صارماً.

فإن سأل سائل : أين هى حرية التدين ؟ وأين تطبيق قول الحق تبارك وتعالى؟

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

نقول : نعم ، لا إكراه فى أن تؤمن بالله وتؤمن بـدينه ، ولكن مادمت قد آمنت فلابد أن تلتزم بما يوجبـه هذا الإيمان ، أما عند التفكير فى مبدأ التـدين فأنت حر فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن.

ولكن إذا آمنت فـالواجب أن نطلب منك أن تلتـزم . ثم إن الحق سبحانـه وتعالى شاء ألاَّ يجتمع فى الجزيرة العربية دينان أبداً.

ولكن فى أىِّ مكان آخـر مثل فارس ، الروم ، فهم لن يعـرفوا إعجاز القـرآن الكريم كلغة ، ولكن يسمعون أنَّه معانٍ سامية بقوانين فعالة تنظم الحياة وترتقى بها.

أما الـذين يعرفون الرسـول وفصاحة المعجـزة التى جاء بها ، فلن يُقبل منهم إلاَّ أن يسلموا ، ولا يُقبل منهم أن يظلـوا فى أرض الرسـالة دون إسـلام ، وإن أرادوا أن يظلوا على الشرك فليرحلوا بعيداً عن هذه الأرض .

وهناك من يقول : إنَّ الإسلام انتشر بـالسيف أو الجزية ، ونقول : إن الإسلام انتشر بـالقدوة ، أمـا السيف فكـان دفاعـاً عن حق اختيـار العقيـدة فى البلاد التى دخلهـا الإسلام فاتحاً ، والجزية كانت لقاء حماية من يريد أن يبقى على دينه .

ونجد فى حياتنا اليومية من يستخـدم ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فى غير موضعها ، فحين يقـول مسلم لآخـر : لماذا لا تصلى ؟ يـرد عليـه بهذا القـول : ﴿لا إكـراه فى الـدين﴾. ونقول : إن ﴿لا إكراه فى الدين﴾ مسألـة تخص قمة التدين ، أى مسألة اعترافك بأنك مسلم أو غير ذلك ، لكـن مـا دمت قـد أعلنت الإسـلام وحُسبت على المسلمين ،

فعليك الالتزام بما فرضه عليك الدين فلا تشرب الخمر ولا تزن ، إذن فـ ﴿لا إكراه فى الدين﴾ تعنى لا إكراه على اختيار الإسلام ، ولكن لابد من الحرص ممن أعلنوا الإسلام على مطلوبات الدين .

إذن فلماذا أُكْرِه العرب على الإسلام ؟

قيل فى ذلك سببان : الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، والثانى أنَّ المعجزة جاءت بلسانهم .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى قوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

فإن عز عليكم أن تقتلوهم فخذوهم أسرى ؛ مادامـوا لم يدافعوا عن أنفسهم بقتالكم ، ولم يهددوكم فى حياتكم ، وهنا يحقن الدم ويستفاد بهم كأسرى .

وإن خفتم من شرورهم فاحصروهم فى مكان مراقب . إذا قاموا بأى حركة معادية يكون من السهل عليكم كشفها ، وإنزال العقاب بهم . والحصر هنا تقييد الحركة مع السماح لهم بحركة محدودة بحيث لا يغيبون عن نظركم .

ثم يتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

أى ارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم ؛ وحتى لا يتصل بعضهم بالبعض الآخر ، وينشئوا تكتلاً يعادى الإسلام . ارصدوا حركاتهم ، وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم ، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم وافعلوا ما بوسعكم لتكونوا فى مأمن من شرورهم ، ولكن لا تخرجوا بالاستطلاع إلى حيز استذلالهم، فالاستدلال غير الاستذلال .

وقد يتساءل البعض : لماذا هذا الاختلاف فى العقوبة حيث هناك القتل وهناك الحصر وهناك الرصد لهم فى طرقهم ومسالكهم ،؟ . نقول : إن العقوبة تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام ، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون هذا الدين ؛ ويدعون الناس لعدم الإيمان ، ويحرضون على قتال المسلمين وقتلهم

وإيـذائهم ولا ينصلحون أبـداً ، ولا يكفـون أذاهـم عن المؤمنين أبداً : أولئك جـزاؤهم القتل .

وهناك من لا يؤذون المسلمين ، وإنما يجاهرون بالعـداء للدعوة ، هؤلاء شأنهم أقل؛ فنأخذهم أسرى . وهناك من الكفار من لا يفعل شيئا إلا أنه غير مؤمن ؛ فهؤلاء نراقب حركـاتهم ليتقى المسلمون شرّهم ليكونـوا على استعداد بصفة دائمـة لمواجهتهم إذا ما انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجموهم ويقاتلوهم .

إذن فلم تـوضع عقـوبـة واحـدة تشمل الجميع . لأن الجميع غير متسـاوين فى عدائهم لـلإسلام ؛ فأئمـة الكفر لهم حكم، والـذين عداوتهم للإسـلام أقل لهم حكم آخر . ثم تأتى رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنـه سبحانه وتعالى رحيم بعباده فلا ييئسهم أبداً من الـرجوع إليـه فيقول : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٥]

ويفتح سبحانه بـاب التوبة أمام عبـاده جميعاً ولا يغلقه أبداً ، ولـذلك يقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ فيما يرويـه عنه أبـو حمزة أنس بن مالك ــ خادم رسـول الله صلى الله عليه وسلم ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم (لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط [١] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة)[٢]

أى أنك وأنت مسـافر فى صحـراء جـرداء بعيدة تمامـاً عن أى عمـران ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الـذى تسـافر عليه ؛ عليـه الماء والطعـام وكل مـا تملك من وسـائل الحياة ، ثم غفلـت عن الجمل فانطلق شـارداً وسط الصحـراء ، وتنبهت فلم تجده ولا تعـرف مكانـه ، وفجأة وأنت تمضى على غير هـدى وجدت الجمل أمـامك ، فكيف تكـون فرحتك ؟ إنها بلا شـك فرحة كبيرة جـدا لأنك وجدت مـا ينجيك من الهلاك ، وهذه الفرحة تملأ النفس وتغمرها تماماً ، كذلك يفرح الله بتوبة عباده ، لذلك

(١) عثر .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

يوضح سبحانه وتعالى بأنه إن تاب هؤلاء الكفار من عدائهم لدين الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَلْيُخَلِّ المسلمون سبيلهم وليتركوهم أحراراً.

وهنا نجد ثلاثة شروط : أولها التوبة والعودة إلى الإيمان . وإقامة الصلاة ، هذا هو الشرط الثانى ، ثم يأتى الشرط الثالث وهو إيتاء الزكاة ، ولابد أن يؤدى الثلاثة معاً ؛ لأن التوبة عن الكفر هى دخول فى حظيرة الإيمان ، والدخول إلى حظيرة الإيمان يقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم صوم رمضان ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدى بعضها ولا يؤدى البعض الآخر ، فالمسلم الفقير الذى لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وتبقى شهادة أن لا الله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وهذه يكفى أن يقولها المسلم فى العمر مرة ، ويبقى ركن إقامة الصلاة لا يسقط أبداً ، لا فى الفقر ولا فى الغنى ولا فى الصحة ولا فى المرض ؛لأن الصلاة هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهى عماد الدين لأنها تتكرر كلَّ يوم خمس مرات ، فالمريض عليه أن يصلى بقدر الاستطاعة . فإن لم يستطع أن يؤديها واقفا فجالساً وإن لم يستطع أن يؤديها جالساً فراقداً .

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ؛ ففى كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وكل صلاة فيها زكاة ؛ لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتى من العمل ، والعمل محتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذى يمكن أن تستخدمه فى العمل فيعطيك رزقاً تزكى به ، فكأنك وأنت تصلى أعطيت بعض مالك لله سبحانه وتعالى ؛ لأنك أخذت الوقت الذى كان يمكن أن تعمل فيه فتكسب مالاً للزكاة ، فكأن الصلاة فيها زكاة الوقت .

إن الوقت هو ما نحتاج إليه فى حركة الحياة للحصول على المال فتكون فى الصلاة زكاة . ونأتى بعد ذلك للصوم وأنت فى الصوم إنما تمتنع عن شهوة البطن وشهوة

الفرج بعضاً من الوقت ؛ من قبيل الفجر إلى المغرب ، وكذلك فى الصلاة . وفى الصلاة أنت لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة . فكأنك لابد أن تصوم عن شهوة البطن وأنت تصلى ، كما أنك لابد أن تصوم عن شهوة الفرج أثناء الصلاة ، فلا تستطيع وأنت تصلى أن تفعل أى شىء مع زوجتك ، ولا تستطيع زوجتك أن تفعل معك شيئا ، بل أنت فى الصلاة تكون فى دائرة أوسع من الإمساك ، لأنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئنا إلى حج بيت الله الحرام ؛ نقول إنَّك ساعة تصلى لابد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت الله الحرام فى بالك وفى ذكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة . وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام كلها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (الصلاة عماد الدين)[1] وإذا كانت الصلاة هى عماد الدين كما بين النبى صلى الله عليه وسلم فمن أقامها فقد أقام الدِّين ـ ومن عجائب ترتيب آيات القرآن أنك تجد الصلاة مقرونة دائما بالزكاة ؛ لأن الزكاة بالمال ، والصلاة زكاة بالوقت ، نحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتى بالمال ، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٥]

ومعنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لا نخلى سبيلهم ، ومادمنا لا نخلى سبيلهم فهم يدخلون تحت العقوبات التى حددها الله وهى : «اقتلوهم» أو «خذوهم» أو : ﴿ **وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾ [التوبة : ٥]

وأول العقوبات هو القتل وذلك لأئمة الكفر ، فإذا آمن كافر وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن : وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب وآمن ؛ لذلك إذا لم يقوموا بالعبادات الثلاث لا نخلى سبيلهم ، ولقد أفتى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة يقتل ، ونقول : لا ، تارك الصلاة إمَّا أن يكون قد تركها إنكاراً لها وجحودا بها ، وإما أن

(١) أخرجه البيهقى فى جامع الأحاديث للإمام السيوطى جـ٤ ص ٤٥٢

يكون قد تركها عن كسل . فإن كان يتركها عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والدنيا تجذبه بمشاغلها فعلينا أن نحاول بالحكمة والموعظة الحسنة أن ننصحه ونستحثه حتى يعود إلى الصلاة ويؤديها فى وقتها، ثم من بعد ذلك إن تركها عمداً كسلاً ، يعاقب بالضرب الشديد ، ولكن بعض الأئمة يقولون : لقد قاتل أبو بكر أولئك الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة ، ونقول : إنه لم يقاتلهم لأنهم عصاة ، بل لأنهم قد ردوا الحكم على الله، وأنكروا الزكاة فكانوا بذلك قد ارتدوا كفاراً ؛ لأن هناك فارقاً بين أن ترد الحكم على الله وتنكره ؛وبين أن تسلم بالحكم لله ، وتعلن أنك مع إيمانك بهذا الحكم لا تقدر على التنفيذ ، أو تعترف أنك مقصر فى التنفيذ . ولذلك نقول للذين يحاولون أن يدافعوا عن الربا ويحلوه : قولوا هو حرام ولكننا لا نقدر على أنفسنا حتى لا تعودوا كفاراً : لأنك إذا قلت إن الربا ليس حراماً تكون قد رددت الحكم على الله ووقفت موقف الكافر ، ولكنك إن قلت إن الربا حرام ولكن ظروفى قهرتنى فلم أستطع ، تكون بذلك عاصياً.

وهذا كما قلنا هو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السلام ، فقد أمر الله تعالى إبليس بالسجودفعصى ، وآدم أمره الله فعصى ، فلماذا قضى الله بأن إبليس عليه اللعنة إلى يوم القيامة ، بينما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وغفر له ؟ نقول : لأن إبليس رد الحكم على الله ؛ فقال :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦]

فكأن إبليس رد الحكم على الله عز وجل ، ولكن آدم لم يقل ذلك . وإنما قال : حكمك يا ربى صحيح وما أمرتنى به هو الحق ، ولكنى لم أقدر على نفسى فظلمتها فتب علىّ واغفرلى وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر.

إذن فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يُصَلُّوا ولم يُزكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث ؟ . إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم .

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين ؟.

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد أن بَيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التى هى الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد . وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل ؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم ، ويبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التى نزل بها هذا الدين ؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم نقدر عليهم بأى عقوبة من العقوبات التى جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه ؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه مادام قد استجار بك فأجره ، وإذا أجرته أسمعه كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان و إلى الطريق المستقيم ؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله؛ ولكن أبلغه مأمنه ، أى اسأله من أين جاء ؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التى ينتمى إليها أو حدد المكان الذى جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذى يجد فيه الأمان . وهذه هى المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر،

وهى مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيرين بالمؤمنين .

فالله سبحـانه وتعالى تفضل على خلقـه فى الأرض فأرسل إليهم رسولـه محمداً صلى الله عليـه وسلم ، وكـان ذلك بعـد أن مرت فترة طـويلـة على إرسـال من سبقـوه من الرسل. وكان الناس قد نسـوا منهج السماء ، بل وحرَّف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لابد أن تتـدخل السماء بإرسال خاتم الأنبيـاء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعـالى قد جعل فى الإيمان مناعات متعـددة ، توجد أولا فى النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصيـــة ، فـالضمير الإيمانى يـردعهـــا عن تلك المعصية ويتوب الإنسان ويـرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيمانى وتلك هى النفس اللوامة . ومعنى وجـود اللوم فى النفس هو أن الإيمان مازال مـوجوداً فيها ، وهـذا الإيمان هـو الذى يكبـح الشهوة ويمنع النفـس من الركـون إلى المعصيـة ويـرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوى .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفـة المنج ولم تعد نفسا لوامـة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى ، فتجدها قد عشقت ـ والعياذ بالله ـ مخالفـة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهنا ينقل الله المنـاعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعـاصى يردعونه عن المعصيـة ، ويقفون منه مـواقف الإيمان من الردع والمقـاطعة والجفـوة حتى يفىء إلى ربه يعود إلى رشـده . وتلك مرحلة ثانية من مـراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعـد هناك طائفـة تأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر ، فلابـد أن تتدخل السماء بـرسالـة جديـدة وبـرسول جـديد مـؤيد بمعجـزة من السماء ليـوقظ الناس من هـذا السبات العميق الذى شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جـاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هـذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كـان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهة للرسول إنما جاءت من المنتفعين بالفساد فى الأرض . والمنتفعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقى عباد الله .

والمنتفعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون . فلابد أن يقفوا فى وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منافعهم وأموالهم التى حصلوا عليها بالباطل والظلم ، ومن استعبادهم للناس . وكانت الجزيرة العربية فى ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قانونها الذى يضعه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شىء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها . وكل فرد فى قبيلة لابد أن يكون مقاتلا يحمل سلاحه مستعدا للحرب فى أى وقت ، لأنه مهدد فى أى لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هى قريش . فقد أخذت السيادة ولا يعتدى عليها أحد ولا تُهَاجَم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة فى الشمال أو فى الجنوب أن تهاجم تجارتها ؛لأن هذه القبائل كلها ستأتى فى يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام فى مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل فى حاجة إلى الأمان من قريش ؛ ولذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقتها مع قريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التى جعلها الله لقريش هى الضمان . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هو وجيشه كعصف مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)** ﴾ [الفيل]

فإذا قرأت السورة التى بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيدا عن هذه السيادة ؟ لأن الحق قد أراد أن تكون صيحة الحق فى جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام فى أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعا حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام فى العالم ؛ فلا يعتنق الإسلام منافق أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين فى قلوبهم إيمان حقيقى ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام فى مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة؛ لأن قريشا لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواء ه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقيا . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً ؛ أن العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى خلق العصبية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان

وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة الى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون فى إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ؛ ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، وأصبحوا يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به ؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أُشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصبحون مأمونين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ؛ فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث «قطع العلاقات» ، فقال الحق عز وجل : ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** ﴾ [**الكافرون**]

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ؛لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهى هنا فى هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى فى السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارىء ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشر وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المنتفعين بالفساد فى الأرض ؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادنة

. ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا فشلت حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقى الوجود الإيمانى قويا متحداً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر فى غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم القلة الضعيفة المستذلة والمستكينة، بل أصبحت لهم قوة ولهم قدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بداية المرحلة التى أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاهد هو اعتراف بدولة الإيمان ،وهى المسألة التى فطن لها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : علام نعطى الدنية [1] فى ديننا .

هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما رأت أم سلمة رضوان الله عليها خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت :« يارسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وها هم أولاء الآن على مقربة من البيت ولكنهم

(١) الدنية : أصلها الدنيئة بالهمزة ولكنها خُففت وهى صفة لمحذوف .. أى الحالة الدنيئة الخسيسة .

ممنوعون من الطواف به ؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله ؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لا نزاع فيـه» ، هذا ما حدث. فقد قام رسول الله صلى الله عليـه وسلم بـذبح الهدى وتحلل من إحـرامـه وفعـل المسلمـون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحـانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنـون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسـول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع مـا يبدو ظاهـراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .

لقد كـان الصلح ينص على أنه إن جـاء أحد هـارباً من قريـش والتجأ إلى المدينة ردوه إلى قريش مـرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسـلامه والتجأ إلى كفار مكـة لا يردونه. وقـد وجد البعض فى هـذا إجحـافاً وعـدم مسـاواة ، وكان الموقف غـايـة فى الدقـة ، وعندما جـاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكـان على بن أبى طالب رضى الله عنـه يكتب عن رسول الله وأملى: هـذا ماتعـاقد عليـه محمد رسـول الله وسهيل بن عمرو . اعترض سهيل قائلا : لو كنا نؤمن بأنك رسـول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا مـا تعاقد عليه محمـد بن عبدالله وسهيل بن عمرو. هنـا ثار على بن أبى طالب رضوان الله عليه وقال : لا ، لابد أن نكتب هـذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو .

وأراد رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن ينهى الموقف فنظر إلى على وقـال :« يا على اكتب فإنَّ لك مثلهـا تعطيها وأنت مضطهـد» أىْ أنه سـوف يحدث لك نفس الشىء الـذى ترفضـه الآن فتقبل ، وكان هـذا من علامـات النبوة لأن عليـا وقف فعلا هـذا الموقف عندما جـاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعـاقد عليه على بن ابى طالب أمير المؤمنين فقـالوا له : لو كنـت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هـذا ما تعـاقد عليـه على بن أبى طالب. وتـذكر على بن أبى طـالب قول رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد ».

على أن الحق سبحـانـه وتعـالى أراد ألا يـدخـل المسلمـون المدينـة إلا وقـد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قـول الحق

تبارك وتعالى الذى يزيل من النفوس المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من المؤمنين والمؤمنات الذين يكتمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار؛ وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم فى قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلاً لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين فى مكة بأيدى المؤمنين ، ولكان عاراً أن يقتل مؤمن مؤمنا أومؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهى صيانة دم المؤمنين . وفى الوقت ذاته نجد أن صلح الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر فى الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقى للإيمان ، وجاء فى ذلك تلك المقولة المأثورة : «لا فتح فى الإسلام بعد فتح الحديبية» ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لا يعجل لعجلة عباده حتى يبلغ الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهى التعاهد والتعاقد ، ولقد وفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعانت قبيلة بنى بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء

المعاهدة التى أبرمت بينه وبين قريش لنقض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يطهر بيته من المشركين وأن يعلن أنه لا مهادنة بين الإيمان والكفر.

لقد أراد الله أن يحرر «المكان» وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر «المكين» وهم البشر فلابد ـ إذن ـ أن تتطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُمنع العراة من الطواف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود فى البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات، لكن سماحة الإيمان وحب الله لخلقه جميعا لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بل منحهم أربعة أشهرلعلهم يفيئون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم فى حربهم ضد الإسلام ؛ لأنهم غير معجزى الله فى الأرض ، أى لن يعجز الله استعدادهم أو مكرهم أو أى شىء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت العقوبة على الكفار إما بالقتل وإما بالحصار، أو بالترصد ، أو عليهم أن يدبروا أمر حياتهم بالسياحة فى الأرض ماداموا قد أصروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين فى هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يبقى الباب مفتوحاً للكفار لكى يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [التوبة]

وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، اذا استجار بك أحد من المشركين فأجره ، ونحن نعلم فى اللغة العربية أنّ «إنْ» الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على

اسم أبداً ؛ فتقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إنْ» فى قوله تعالى :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

فهـذه ليست «إن» الشرطيـة ؛ ولكنهـا «إنْ النـافيـة » وهى مع «إلا» التى بعـدهـا لإفـادة التأكيد والقصر ، أى قصر الأم على الـوالدة ، إلا أنـه من بلاغـة إعجاز القـرآن الكريم جاء بعد «إن»الشرطية اسم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة : ٦]

وكان القياس أن يقال: «إن استجار بك أحد المشركين فأجره »؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء بـ «أحد» بعد «إن» فى أول الكلام ، ولـذلك فعندما نعـرب كلمة «أحد» فى الآية الكريمة السـابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعله من جنس المتأخـر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هـذه اللفتة من القـرآن الكـريـم ؟ نقـول : إن هنـاك مستجيراً وهنـا طلب استجارة ؛ فهل الاستجارة عرف بها المستجير، أم عُرفت الاستجارة منه ؟.

وأقول : لنفـرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أمـاكن الكفار، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمـد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسـده أمـام المؤمنين ، هنـا تكون الاستجـارة قـد سبقت ظهـور المستجير، وكأن الأذن هى التى استجيرت أولاً ثم رأت العين جسـد هذا المستجير، وقـد يختلف الأمر؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمـان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً.

وهنا يريد الحق سبحانه وتعـالى أن ينبهنا إلى أهمية الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقـق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعـد ذلك ، ولابد أن يأخـذ المؤمن حذره حتى لا ينقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاسـتجارة تعنـى طلـب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكـون المستجير ضعيفاً

لا يقـــــدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر فى مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنـة ليتعـرف على الهدف من الاستجـارة ؛ أهى استجـارة لمجـرد تطويل أمد البقاء على الكفر ؟ أم هـى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعـالى ، أو أنه يـريـد أن يسمع حكم الله على الكفار فى سـورة بـراءة . أو يريـد أن يسمع كلام الله بما يقـذف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يـريد أن يسمع شيئـا فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة ؟.

إن فطنـة المؤمن يجب أن تتسع لتسبر أغوار المستجير، وطلب الجوار أو الاستجـارة كان معروفـاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعـدوه فعليه أن يجيره، وهذا دليل على شهـامته . وإذا كـان الإيمان قـد فرض على المسلمين إجـارة من يطلب الجوار، فهـذا دليل على قوة الإيمان وعظمتـه وسماحته ، ولعل خميرة الإيمان الفطـرى فى نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الـــوالى أو أى واحـــد من المسلمين أن يجير المستجير، ولماذا لا نسمعـــه ونتكلم معه علـه يؤمن ، ويدخل حظيرة الإسلام وفى الإســلام يجير الوالى أو أى واحد من المسلمين ؛ لأن المسلمين تتكـافأ دمـاؤهـم ولا يـوجـد دم سيـد ودم عبـد ، ولا دم شريف ودم رخيص ؛ وإنما يسعى بذمتهم أدناهم ، ولـذلك إذا أجار أى مسلم إنساناً غير مسلم أو إنسـاناً كـافراً يجار من جميع المسلمين ؛ حتى الصبى الـذى لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذى لا يعقل . لهذا أو لـذاك أن يجير بشرط أن يوافق الوالى أو المسلمون على ذلك . لماذا ؟ لأننـا نأخذ على الكفر أنه يغـدر بالتعاهد ويتناسـى المروءة، فلابد أن نتمسك نحن المـؤمنين بالعهـد ، فإذا استجـار أحـد من الكفـار فـلابـد أن نفى بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبى والمجنون حق الإجارة ؟ . نقول : إن الصبى من المؤمنين انتفع بالإســلام لأنه تمت تربيتـه تربيـة إيمانية وفقاً لمنهج الله ونشأ فى ضـوء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤]

بل إن الإسلام يعطى التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبى قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبى قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذى بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً ؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمنا أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . فلو أن صبياً أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله ؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبى استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التى تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد فى الرحم لأمكن للمرأة حين يتعبها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبى بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو فى بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، وتمتثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم أمه حماه الإسلام ـ كما قلنا ـ بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزنى قال :

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض

وفساد كبير» قالوا يارسول الله وإن كان فيـه ؟ قال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[١].

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فى حديث له :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث فيما يرويـه عنه أبو هريـرة رضى الله عنه يقول : قـال صلى الله عليه وسلم «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولـدينها ، فاظفـر بذات الـدين تربت يداك» [٢]

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبى فى كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟.

وقـد يقال إن الصبى منتفع بـالإسلام ، أمـا المجنون فـلا عقل له حتى إن الله عـز وجل قـد أعفـاه من التكـاليـف ، ونقـول : انظـروا إلى المجنـون بـالنسبـة لأصحـاب العقول،صـاحب العقل قصارى مـايصل إليه أن تكون كلمتـه نافـذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا ؛ لأنه إن قال قـولاً فـلا أحـد يعترض عليـه ، وإن فعل فعـلاً غير لائق فـلا أحـد يحاسبـه ، بل إنـه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخـذ حظا أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونـه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التى قد تؤذى ذوى النفوذ فـلا يعاقبه أحد، ويكفى أن يقال إنَّه مجنـون حتى يعفى من العقـاب ، ورب كلمـة حق واحـدة تصدر من مجنـون ؛ تكـون أرجح عنـد الله عـز وجل من أصحــاب عقـول كثيرة ظلـوا طـوال حيـاتهم ينـافقـون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

إذن فهناك مهمة فى الحياة قد يؤديها المجنون ولا يؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئا فإنه يميز عنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله يأبى إلا أن يعوضه ، ولذلك تجد من فقد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس فى خدمته ؛ هذا يأخذ بيده؛ وهذا يقوده فى الطريق ، وهذا يحضر له الطعام والشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أعرجَ مثلاً ، تجد هذا يعاونه ، وهذا يأخذه معه فى سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يريد . بينما يقضى السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجرة بلا فائدة . بل إنك إن نظرت إلى الفقير تجد أنَّ الله قد جعل له عدداً من الأغنياء فى خدمته ، ففلان يحرث ويعزق ويعطيه الله خير الزراعة ليبيعه ويفيض منه على الفقير، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضاً من دخله للفقير، بل إنه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقا ليعطيه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخذ شريطة ألا يكون مدعيا للفقر . فما دام قد قبل حكم الله بالفقر والعجز ، يوضح له ربه : لقد رضيت بأنى أعجزتك ، فخذ من قدرة الأغنياء ما يعينك فى حياتك ، فهذا مُلْكٌ كَوْنى له نظام ، وأقول ذلك حتى نفهم أن الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هى أغيار، ولذلك لا أحد يضمن غَدَهُ ، وعلى الواحد منا إن كان قادراً أن يعطى الفقير، حتى إذا ضاع منا المال وجدنا من يعطينا ، وأن نساعد المريض ، حتى إذا مرضنا وجدنا من يساعدنا ، وأن نكون فى خدمة الناس وقت شدتهم حتى يكونوا فى خدمتنا وقت شدتنا . وفى نفس الوقت حين نرى من حرمه الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعانى فى مشيه تنبهنا إلى نعمة الله فى أن أعطانا قدرة المشى.

وهكذا فالإنسان لا يتنبه إلى النعمة إلا إذا رأى من هو محروم منها . وكذلك أراد الحق أن يرضى كل ذى آفة قَبل آفته ولم يتمرد عليها ؛ لذلك يفيض عليه بالخير.

إذن فكل إنسان أسلم يستفيد من الإسلام حتى الصبى والمجنون استفادا من

الإسلام ، ولذلك فلابد أن نرد التحية لمن بَلَّغنا هذا المنهج الذى أعطانا الحماية ، فنقرأ المنهج ونعمل به .

وحين نستقرىء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجده يرد جميل كل من ساعده ، ومثال ذلك حليمة السعدية التى نالت شرف إرضاعه صلى الله عليه وسلم وهو صغير، ثم أكرمها الرسول هى وأسرتها بعد أن صار نبيا.

ثم ألم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليطلب النصير له فى تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ووفاة عمه أبى طالب، وعز عليه النصير وفكر فى العودة إلى مكة ، والتمس من يجيره حين يدخلها فأجاره واحد من الكفار هو المطعم بن عدى ، فإذا كان كافرٌ قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدعو لمحاربة الكفر ؛ أفلا نجير واحداً من الكفار لنرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحد من الكفار قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة فلابد أن يرد المؤمنون كلهم التحية بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفار . وبعد أن يجير المسلمون من استنجد بهم من الكفار على أن يسمعوه كلام الله . وبعد ذلك هناك أحد أمرين إما أن يعلن الكافر الإيمان ، وفى هذه الحالة أصبح من المؤمنين ، وإما أن يصر على كفره وعناده ، وفى هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئولية أن يبلغوه مأمنه، وذلك بأن يساعدوه على الوصول إلى المكان الذى يصبح آمنا فيه على نفسه وماله ، وبعد أن يبلغ مأمنه ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحه كما كان الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

لا ، بل على المسلمين أن يبلغوه مأمنه ، ثم ينفذون فيه حكم الله إما أسراً ، وإما حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هى أنه من قوم لا يعلمون حسبما قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦]

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط ؛ لأن العلم لـه وسائل كثيرة ؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكتساب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بـالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلـومات كلها تنشأ عنـد الإنسان إمـا بالأذن ممـا يسمع ، وإما بـالعين مما يرى ، ثـم بعد ذلك تستقر المعانى فى نفس الإنسان .

ولذلك يقـول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ [**النحل** : ٧٨]

وهكذا حدد لنـا القرآن الكريم وسائل العلم بـالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلـومات فى الفـؤاد ، لأنه الـذى يحفظ كل القضايـا العقلية والفكـرية . وإذا كـان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئا فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعذره أنه لا يعلم .

وعلينا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طـالب علم بالحقيقـة ، ويريـد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ ﴾

أى لقد جربتم العهـود مع المشركين ، وفى كل مرة يعاهدونكـم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهـدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاهـدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعـالى يريد أن يلفتنا إلى أننـا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون

العهـد ولكنهم ينقضونـه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهـد أنهم لم يستقيموا للعهـد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب .

و«كيف» هنـا للاستـــفهام عن الحالـة ، يقـال : كيف حـالك ؟ . تقـول : بخير والحمد لله . إذن فـ «كيف» يُسأل بها عن الحال ، والحال قـد يكون عـاما ، أى كيف حالك وحـال أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقـد يكون خـاصا أن تسأل عن مريـض فتقول : كيف حال فـلان ؟ . فيقال : شُفى والحمـد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حـاله ؟ . فيقـال : فرّج الله ضائقتـه . أو تسأل عن ابن ترك البيت هـارباً فيقال : عاد والحمد لله .

إذن فـ «كيف» إن أطلقت تكون عـامـة ، وإن خصصت تكون خـاصة ، ولكنهـا تُطلق مرة ولا يـراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب ؛ إمـا تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقـال لك: كيف سب فـلان أباه ؟ . هنـا تعجب من القبح لأن مـا حـدث شىء قبيح ما كـان يصح أن يحدث . وتأتى لإنسـان اخترع اختراعـاً هامـاً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع ؟. وهـذا تعجب من الحسن . والتعجب من القبح يكـون تعجب إنكـار والتعجب مـن الحسن يكـون تعجب استحسـان كأن نقول : كيف بنيت هذا المسجد ؟ وفى هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا تعجـب من أن يكون للمشركين شىء اسمـه عهد ؛لأنهم لا يعرفـون إلاَّ نقض العهد ، ولا يتمسكـون بالعهـود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكـون لهم عهد بينما فى الحقيقة لا عهد لهم .

وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار، فأنـت مثلا إذا جاء أحد يهددك، فقلت له: من أنت حتى تهددنى؟. يكون هـذا استهزاء واستنكارا لأنك تعرفـه، وأيضا تستهزىء أن يملك القـدرة على أن ينفـذ تهديـده لك. ومرة تكـون استفهـامـا حقيقيـا، كأن تسأل إنسانا لاتعرفـه: من أنت؟. فيقول لك: أنا فلان بن فلان. وأحيانـا تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام، وأحيانا لاينفع الكلام فلابد أن يجاب بالفعل.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحسانى؛ لأنك إذا بعثت الحياة فى ما لا حياة فيه؛ فهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان. ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ، بل أجاب بتجربة عملية، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وخليله إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

رد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى أننى يارب آمنت، وأضاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

والإيمان هو اطمئنان القلب، فكيف يقول إبراهيم آمنت؟ أليس فى ذلك تناقض؟. وأقول: إن إبراهيم واثق من أنَّ الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث، حينئذ لم يجبه الحق سبحانه وتعالى بالكلام، بل أراه تجربة عملية، فقال له:

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى عليك أن تختار أربعة طيور وتضمها إليك وتتأكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هى نفس الطير.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى قطّع هذه الطيور بنفسك، وضع على كل جبل قطعة، وبعد ذلك ادْعُها أنت تأتك سعياً أى مشياً، حتى لايقال إنها طيور قد جاءت من مكان آخر، بل تجيئك نفس الطيور سيراً، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطى القدرة لمخلوق عندما يستدعى الميت أن يأتيه حيا، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟

إذن فقول الحق: سبحانه وتعالى

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧]

أى أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لاعهد لهم، لايطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون فى نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا مايفسره قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وإنما الذى يبدأ بالنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد.

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ ﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ«كيف»، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى.

والتساؤل هنا يـوضح لنا أنهم سيخونون العهـد دائما، كما فعلوا فى الماضى، فكأن الذى يخبر فى الماضى يخبر أيضـا عن المستقبل ويعلم مـا يكـون منهم. ويتابع المولى سبحـانـه وتعالى قوله: ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة : ٨]

ومعنى «يظهروا»، أى يتمكنـوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يـرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّـة، و«يـرقب» من الـرقيب الذى يـراقب الأشيـاء. إذن فهم لا يـراقبـون بمعنى لا يراعون، أى أنهم لـو تمكنوا من المؤمنين لا يراعون ذمة ولا عهدا ولا ميثـاقا، بل يستبيحون كل شىء. وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما فى نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين.

ونـلاحظ أن كلمـة «يـرقبـون» غير «ينظـرون»، وغير «يبصرون»، وهى أيضـا غير «يلمحون» وغير «يرمقـون»، مع أنها كلها تؤدى معنى الرؤيـة بالعين، ولكن يرقب تعنى يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لا تفوته حركة، لـذلك إذا قلنا: إن فلانا يراقب فلاناً، أى لا تفوته حركة مـن حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منـه. أما كلمة «نظر» فتعنى رأى بجميع عينيه، وكلمـة «لمح» تعنى رأى بمؤخـر عينيه، و«رمق» أى رأى من أعلى. وقـوله سبحانه وتعالى «لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمّـة» يعنى لا يراعون فيكم عهداً، ولا يمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أى شىء مهما كـان قبيحا؛ والمثال: أن يـرفع الرجل القـوى يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته، هنا يمسك أحـدهم بيده ويطلب منه أن يراعى أن الطفل صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فـلان قريبه، وأنهم جيران؛ فلا يـراعى هذا كله، وإنما ينهال على الطفل ضرباً.

وقـوله سبحـانه وتعـالى : «إلّا» هى فى الأصل اللمعان أى البريق، و«إلاّ» أيضـاً هى الصوت العالى، واللمعـان والصوت العالى لافتان لوسـائل الإعلام الحسّية، وهى الأذن والعين، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمـراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشـىء اللامع، ويلفت أذنـه كما يلفتها الصـوت العالى، وسُمى العهـد والكلام «إلاّ» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى اللغوى، لكن المعنى الاصطلاحى لكلمة «إلاّ» هو الغضب، بأن تشد

شيئـا كأنك تغصبه على عـدم الالتصاق بشيء آخـر، ولـذلك سُمِّى سلخ جلد الشـاة غصباً لأن اللحم ملَتصق بالجلد، وسُمـى أخذ المال غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بمالـه تمسك الشـاة الحية بجلـدهـا. و إذا أطُلق الغصب فى الفقـه لا ينصرف إلى المعنى اللغوى وهو اللمعان والصوت العالى، وللعلماء فى هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أخذ لقطة من الـ«إل» وأصلـه اللمعان، أَلَّ.. يؤلّ.. إِلاًّ، بمعنى لمع.. يلمع.. لمعاً. والـ«إل» أيضاً هو الصوت العـالى، وقال ابن عباس والضحاك رضى الله عنهما: إن «إلاّ» هى القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم، فأنت يعـز عليك أن تخون قريباً لك؛ لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلاّ» هى العهد.

وقال سيدنـا الحسن: إن «إلاّ» هى الجوار وما يوجبه من حقوقـه. وقال قتادة: إن «إلاّ» هى الحلف والتحالف. وقال أبو عميرة: إن «إلاّ» هو اليمين أو القسم.

والمعانى كلها تلفتنا إلى وجـود نوع من التراحـم، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعـال، وليجعل الإنسـان لنفسه من يقـول له: «اهدأ إنـه جارك أو مـن قوم بينهم وبين من تعـاهـدون صلـة قـرابـة»؛ لأن الـذى يجعل الإنسـان لا يميل إلى الشر ولا يستشرى فيه ساعـة يحفزه الأمر؛ هو مـراعاة الملابسات كلها، وهكـذا يتدخل الحوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهـد أو قسم أو جوار ليمنع البطش بقسوة، أى إن «إلاّ» هو الأمر الذى يمنع الرد بقسوة على شىء قد يكون وقع خطأ. والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقـرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فـإذا تمكن رجل قوى من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لا يراعون فيهم قرابة ولا عهـداً ولا حلفـاً ولا جـواراً ولا قسماً ولا أى شىء. إذن فكيف يكـون للمشركين عهـد؟ وهـم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئا أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]

والذمـة هى الوفاء بالأمـانة التى ليس عليها إيصال ولا شهـود، فإذا اقترض واحد

مبلغاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المبلغ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه. ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض، وإن شاء أنكره، وهناك ذمة أخرى هى التى بينك وبين نفسك، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطى فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم تفعله.وما فى الذمة ـ إذن ــ هو شىء إنْ لم تفعله تُفضَح، مثال ذلك: أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر خاضع لإرادتك، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار، لا شىء إلا ذمتك، ولذلك فأنت تراعى الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك. وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه فى ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهكذا نعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو فى المستقبل عهد لأنهم يحترفون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأى اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معنا على أحسن مايكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لاترحم؟. ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم مايظهر ومايخفى، وقد علم مايدور فى خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لايترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

أى أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التى يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة، ولا يرقبون فيكم إلاّ ولا ذمّة. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ **يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ [**التوبة** : ٨]

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألاَّ ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالى، لا يمثل ماضياً أو حاضراً، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾

[**التوبة** : ٢٨]

والبلاغ هنا نهى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعى أن تدور الخواطر هنا فى نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين فى مواسم الحج، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ما تم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، فمن أين يأتى الرزق الذى يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولابد أن يفكر المؤمنون: من أين سنأكل؟. نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟.

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى:

﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [**التوبة** : ٢٨]

أى لا تخافوا الفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو الغنى وعنده مفاتيح كل شىء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التى تدور فى نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

وفى هذا القول رد على الخواطر التى دارت فى نفوس المؤمنين؛ وهم يرون المشركين يستقبلونهم بألفاظ ناعمة ووجوه تملؤها البشاشة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لا تنخدعوا فما فى القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج ، فالفسق هو الخروج عن الطاعة، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟.

نقول: إنك إن نظرت لهؤلاء تجدهم خارجين حتى عن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لا يلتزمون بمنهج الباطل الذى يعتنقونه، إذن فهم فاسقون حتى فى المنهج الذى ينتسبون إليه، فإذا كانوا كذلك مع منهج الباطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟.

وقوله تعالى: ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ يوضح بأنه قد تكون هناك قلة ملتزمة، وهذا احتياط قرآنى جميل، كما أنها ردت على السؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كافرون ـ وليس بعد الكفر ذنب ـ فكيف يقال إنَّهم فاسقون أى عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟.

نقول: إنهم خارجون حتى عن مناهج الكفر التى اختاروها لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ ﴾

وهكذا يرينا الله عز وجل انقلاب المعايير عندهم، فما الشراء؟. الشراء هو: الحصول

على سلعة مقابل ثمن، فإذا قلت: اشتريت ساعة مثلاً، تكون أنت المشترى مادمت تدفع الثمن، والذى أخذ الثمن هو البائع، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [التوبة: ٩]

وكان المفروض ـ إذن ـ أن يكونوا قد دفعوا الثمن، لأن المشترى هو الذى يدفع الثمن، ولكن هنا عُكست القضية؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هو مايشترونه، مع أن الثمن هو الذى يدفع، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء، والذى يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن الثمن يساوى السلعة. فأنت تأخذ السلعة وتعطى للبائع ثمناً يساويها، لأن ثمن كل شيء يجب أن يكون مناسباً له، فإذا اشتريت شيئا بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً، و إذا اشتريت شيئا ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً.

هذا كله ملحوظ حتى فى الأعمال، وقد تكون ممن يرغبون فى مشاكسة الغير، وقد تجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحد أتباعه أن يسب فلاناً ويعطيه عشرة جنيهات، فإذا أراد أن يجعل التابع يضرب خصمه، يقول له: اضرب وأعطيك خمسين، وإن أراد أن يقتل التابع خصمه فهو يعطيه الألوف من الجنيهات، وغالبا مايقول هؤلاء الذين بلا إيمان: كل ذمة قابلة للانصهار بالذهب، لكن المختلف قيمة هو الكمية التى تصهر أى ذمة، فهناك من تنصهر ذمته بريال، وآخر تنصهر ذمته بعشرين أو ثلاثين، وهناك من تنصهر ذمته بملايين.

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار قد حوّلوا الإيمان إلى سلعة تباع وتشترى، فهم قد باعوا إيمانهم، وبدلا من أن يتقاضوا عنه مايساوى الإيمان والإيمان أغلى من كنوز الدنيا كلها ؛ باعوا إيمانهم بثمن قليل، أى أنهم حتى لم يقدروا قيمة الإيمان فباعوه رخيصاً. كيف باعوا الإيمان بثمن رخيص؟.

نقول مثلاً: إن الذى يرتشى يفعل ذلك ويريد أن يعوجّ ميزان الحق، والذى يغير ميزان الحق يشكك الناس فى العدالة، وإذا شك الناس فى العدالة؛ فقدوا سندهم الأمنى؛لأن كل مظلوم أمله أن يرفع الأمر للقضاء فينصفه، أو أن يرفع أمره للمسئول فيعطيه حقه، فإذا أحس الناس بأن الحق قد ضاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان.

وإن دفع اختلت الموازين، فى هذه الحالة يفسد المجتمع كله، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جدا.

كما أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الحساب يوم القيامة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون فى الجنة وينعمون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسيدخل هؤلاء الكافرون النار وبذلك يكونون قد باعوا إيمانهم مقابل ثمن رخيص مهما كان المال الذى سيحصلون عليه ؛ لأن مال الدنيا كلها لايساوى يوماً فى الجنة؛ لأن الدنيا موقوتة بزمن، ومتاعها محدود وقليل، فكأنهم باعوا الخلود فى النعيم بمتعة وقتية قد لاتستمر إلا أياماً أو سنوات. وحينئذ يعرف الكافرون أن الثمن الذى تقاضوه قليل جدا بالنسبة لما خسروه. وليتهم جعلوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على متاع قليل فى الدنيا، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ **اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [**التوبة : ٩**]

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معروضة بأدلتها فتمنع الناس من أن يستمعوا إليها، لأنك تعرف أنهم لوسمعوها لاعتنقوها واقتنعوا بها، ولذلك نجد الكفار مثلاً حين نزل القرآن والعرب أمة بلاغة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازه وبلاغته وحلاوته ولآمنوا به، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى على ألسنتهم فى القرآن: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)** ﴾ [**فصلت**]

لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قرأ أحد القرآن يأمرون بعضهم البعض باللغو فيه حتى لا يفهم شيئا، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله، وكان هناك نوع آخر من الصد عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعون الناس من الاستماع إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل من يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها. ولذلك فهم يصدون الناس عن

كلام الله تعـالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم، وكـانوا يقولـون لأهل الحجيج: لاتصـدقـوا الـرجل الـذى يقول إنـه نبى، وهـذه شهـادة منهم أن الآذان لـو استقبلت القـرآن لسحبت أفئـدتهم إلى الإيمان ، وهـــذه شهـادة ضـدهم وليست لهم؛ لأنهم واثقـون أن سماع الحجيج لـدعوة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ستبعـدهم عن الكفر؛ لذلك كانـوا يخافون من أن يتأثر الناس بهذا الدين الذى هـو دين الحق فيؤمنوا به وهذا ماجعلهم يصدونهم عنه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

وساء أى قبـح، وليس هو قبح الآن فقط، ولكنـه قبح حاليـا وعظمت العقوبـة عليه مستقبلاً .

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

يرينا دقة القرآن الكريم فى أن السيىء منهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قـول وفعل، أى هم يصـدون الناس بـالكـلام ويمنعـونهم باستخـدام القـوة فى بعض الأحيان. وبـاستخدام الحق لكلمة «يعملون»؛ يلفتنـا إلى أن أعمالهم ليست قولاً وليست فعـلاً فقط، فهناك القـول وهنـاك الفعل وكلاهما عمـل؛ القول عمل اللسـان، والفعل عمل الجوارح. فلو قال الحق: ساء ما كانوا يفعلون، لقلنا فعلوا ولم يقولوا. ولو قال: ساء ما كانـوا يقولون، لقلنا: قالـوا ولم يفعلوا. وسبحانه أوضح لنـا أن القول والفعل كلاهما عمل، وقال سبحانه:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف]

ليبـين لنـا أن هـناك فــرقاً بين القـول والفعـل؛ القـول أداته اللسـان، والفعل أداته بقيـة الجوارح، والمعنى فى قـوله تعـالى: «إنهم سـاء ما كـانـوا يعملـون» أى ساء قـولهم وفعلهم.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ومن لايرقب إلاّ ولا ذمة فى غيره إنما يظلمه، فإذا كـان بينى وبينك قرابة، أو عهد، أو إيمان، فإن لم تـراع ذلك تكون قـد اعتديت على حقـوقى عندك، وليتك قـد اقتصرت فى الاعتداء على حقـوق الغير، لكنك ـ أيضا ـ اعتديت على نفسك، لأنك أعطيتها متـاعاً قليـلاً فى الدنيـا، وتصلى فى الآخـرة نـاراً، إذن فقد ظلمت نفسك. ولـذلك يقـول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨]

وأليس الـذى فعل فاحشـة، يظلم نفسـه؟ بلى، ظلمها فى الآخـرة بعـد أن أعطاهـا شهوة فى الـدنيا، أى أنه أخـذ متعة عاجلـة بعذاب آجل. لكن الـذى يظلم نفسه ظلما شديدا وبيّناً هو الذى يرتكب إثما دون أن يأخذ متعة فى الدنيا، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعـة آخرة، مثل الـذى يتطوع لشهادة الـزور، هو يأخذ عـذاباً فى الآخـرة ولم يأخذ متعة فى الدنيا.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ٨]

ونقول: إن الموضـوع يختلف، ففى الآيـة الثامنـة من سورة التـوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا قرابـة ولا جواراً ولا حلفاً، وإن أظهروا عكس ذلك. أما فى الآيـة التى نحن بصـدد خواطـرنـا عنها فهم يظلمـون أنفسهم ويبيعـون إيمانهم بثمن قليل، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس.

وهم فى صدهم عن سبيل الله تعالى وعدوانهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فائدة دنيوية، بل حاربوا الإيمان وحاربوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيدوا شيئا، فكأنهم لا يرقبون إلاّ ولا ذمة حتى مع أنفسهم. ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتى رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه، فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله:

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ماقبله، وأن الباب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم، وهكذا تكون رحمة الله تعالى. ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: «فإن تابوا» ولم يقل إذا تابوا، لأنه لو قال: إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة، ولكن قوله : «فإن تابوا» فيها شك، لأن مافعلوه ضد الإيمان كثير، والذى نأمله فيهم قليل، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة : ١١]

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة إنما تكون بشهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وبطبيعة الحال لابد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهى عمل يومى، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالحج، وليست كالصوم، فالصوم مدته شهر واحد من السنة. إذن لكى تتأكد التوبة فلابد أن يؤدى التائب الصلاة فى وقتها كل يوم فهى العمل اليومى الذى لايؤجل ولايتأخر عن وقته، والصلاة قرنت

غالباً بالزكاة فى آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تضحية بالوقت، فكأن الصلاة ـ كما قلنا ـ فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

إنه لابد أن نلاحظ فى التفصيل هنا المراحل الإيمانية التى بينها الله عز وجل لنا؛ المرحلة الأولى وهى تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيمان والكفر، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفى المستقبل وحتى قيام الساعة. ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التى أعطيت للكافرين. وكل هذه مسائل مقننة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات.

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السما، والتقنينات فى الأمم تأخذ أدوارا طويلة، ولايوجد قانون بشرى يولد سليماً وكاملا، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب فى التطبيق، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله فى التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التى لم يكن لها حظ من علم ولاثقافة كل هذه التقنينات؟.

نقول: إنها لم ترتب، وإنما رتب لها ربها الذى أحاط بكل شىء علماً، فكل هذه المراحل التى مر بها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين مايجب أن يفعلوه.

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخى من أبى وأمى، أو هذا أخى من الأب فقط، أو هذا من الأم فقط، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتى مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مـرة كلمة «إخـوان» لتعبرعن الأخوة فى المذهب والعقيـدة، وشاء الحق سبحـانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب، فقال عزوجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]

ليـدلنـا على أنهم مادامـوا قـد دخلـوا معنا فى حظيرة الإيمان فلهم علينـا حق أخـوة النسب فيما يوجـد من تواد وتراحم، وترابط وحمايـة بعضهم البعض دائما، وحب ووفاق إلى آخر مانعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب.

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ولم يقل إخوانكم، لماذا؟.

نقول: ليس من المعقول أن يخرجـوا من كل ماكانوا فيه من آثام بـالتوبة، ثم يصبحوا فى نفس التـو واللحظة إخـوة، لكن ذلك يحدث عنـدما يتعمق إيمانهم، ويثبت صـدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟. ومادام يعلم فلماذا التفصيل؟.

ونقول: إن المعنى هنـا أن الله سبحانـه وتعالى يفصل الآيـات لمن يريـدون أن يعلموا العلم الحقيقى الـذى يأتى من الله، لأن هـذا العلم لـه أثـر كبيرعلى مستقبل الإيمان، ولذلك فغيرالمسلمين الذين يهتمون بدراسـة الدين الإسلامى دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقى ينتهون إلى إعلان إسلامهم، لأنهم مادامو أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح فى فنونهم، ومـادامت شهوة العلم قد غلبتهم، وأرادوا أن يدرسـوا منهج الإسلام بموضـوعية، لذلك تجدهم يعلنون الإسـلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للـدين الذى يدرسونه، وهم يـأخذون الإسلام من منبعه الإيمانى وهو القرآن الكـريم والسنّة النبوية، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين لـلإسلام، أى من المسلمين ؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص، وقـد يكون فيهم سارق، وقد يكـون فيهم مُرْتشٍ، وقد يكـون فيهم كذاب، وقد يكون فيهم منـافق، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا: مـاهذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إننى أقول دائماً لمن لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى: لاتنظر إلى المنسوبين للإسلام، ولكن انظر إلى الإسلام فى جوهره ومنهجه: (القرآن والسنة)؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها.

إذن فهذه الأفعال كلها التى وجدتها فى عدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسلام فى شىء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه العلمية وهى معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه؛ لعلموا أنهم يفعلون شيئا خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك، وليس منهجا نظريا فحسب، بل هو منهج عملى يطبق فى الحياة، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملى التطبيقى للإسلام. ويقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلفت نظر غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه [1]، وحين يفعل مالا يرضاه الإسلام يُنَفِّرُ غير المسلم من الدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذى تدعو إليه وتؤمن به، فهو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيبا، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

إلى حجة ضد الدين، فيقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم يغش، ورأيته يسرق، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ووزر من اتخذوه قدوة لهم(١).

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسى فى العالم الإسلامى، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات فى معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامى؟. أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية فى الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟. أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعاً بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن لهذا الدين قوة ومناعة تحميه. وأن هذه المناعة هى التى منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر فى هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكى تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التى يقيمون فيها، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم قويا لتمسكوا به، ولم يتهافتوا على حضارتنا.

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

أى نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقى، الذى بينه الله عز وجل فى منهجه، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم فى الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد فى مسنده (٢ / ٣٩٧) الترمذى (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦). قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

فمثلاً فى القانون فى ألمانيا وصلوا إلى مادة فى القانون سموها: «سوء استغلال الحق» فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسيء استغلالها. وبدأت الدولة فى ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بنى سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية «سوء استغلال الحق»، فقام المحامى المسلم وقال له: أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟. فقال المحاضر الألمانى: نعم. فقال المحامى: لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً فى منهج الإسلام. وارتبك المحاضر الألمانى ارتباكا شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامى المسلم، وجاءوا بكتب السيرة النبوية، وأخرج المحامى للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابى يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة فى بيته، والبيت مملوك للصحابى الشاكى، والنخلة مملوكة لصحابى آخر ،وقد تعوَّد أن يأتى الصحابى صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ،وكأنه قد جعلها «مسمار جحا» كما يقول المثل الشعبى، فتعرضت عورة أسرة الصحابى صاحب البيت إلى الحرج، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : «إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ،وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها[1]» .

لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن النخلة حقك ولكنك

(١) عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إن لفلان فى حائطى عذقا وإنه قد آذانى وشق على مكان عذقه فأرسل إليه النبى ﷺ فقال: بعنى عذقك الذى فى حائط فلان. قال: لا، قال: فهبه لى، قال : لا. قال : فبعنيه بعذق فى الجنة ، قال : لا . فقال النبى ﷺ:« مارأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام».
أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٨) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٠) والبزار (٢٠٠٠) فى كشف الأستار. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ١٢٧): «فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق».

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب، مما عرَّض عورة صاحب البيت للمتاعب[١]. وكان هذا الفعل هو المثل الحى لسوء استغلال الحق. وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألمانى فى محاضرته ويقول: لقد ظننت أننى قد جئت بشىء جديد، ولكن الإسلام سبقنى إليه منذ أربعة عشر قرنا. وفعلا تم التعديل. واعترف القانون الألمانى بأن الإسلام قد سبقه فى نظرية «سوء استغلال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة.

ولذلك تجد أن صفة الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى أمته[٢]، كانت شهادة تفوق ؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى مايصل إليه غير الأميين فى علمهم أن يجىء إليهم العلم من بعضهم البعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله ،وسادت الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ ﴾

ونكثوا الأيمان : أى لم ينفذوا بنود العهود، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرشدنا رسول الله ﷺ لأدب عدم الاطلاع على عورات المسلمين، فعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل من جحر فى حجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦)

(٢) قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال القرطبى فى تفسيره: (الأمى): منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها . قاله ابن العربى. وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لايكتب ولايقرأ ولايحسب. قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]

العهود، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا فى الدين. أى عـابوا فى الدين عيباً مقذعا. وعندمـا يقال: إنَّ فلانـاً طعن فى فلان، فلابـد أنه قد تجاوز مـرحلة السب إلى مرحلـة أكبر بكثير. وهنا يأمـرنا الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ إما بقتـالهم، وإما أن يعلنـوا الإيمان. وهـذا حق للمسلمين لأنهم قـدمـوا من قبل كل سبل المودة ، لكن أئمة الكفر رفضوها.

وقول الحق سبحـانه وتعالى : ﴿فَقَـاتِلُوا أَئِمَـةَ الْكُفْرِ﴾، أى : أن القتل يأتى أولاً لزعماء الكفـار الذين يحرضون أتبـاعهم على محاربة دين الله، فالأتبـاع ليسوا هم الأصل، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون(١). وهم ـ كما يقال فى العصر الحديث ـ مجرمـو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تخلص من مجرمـى الحرب؛ لأن هـؤلاء هم الـذين يضعـون الخطط ويديرون المعـارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمـة الكفر، هؤلاء الذين اجترأوا على أساليب القرآن الكـريم، ومنعوا القبائل التى تأتى للحج من الاستماع إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلـم ،وحاربـوا الـدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعيد.

والأمـر العجيب أنـك تـرى من يبرر لك قتل مجرمـى الحرب ويستنكـر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

ويقول الحق عز وجل فى ذات الآية:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

وفى هـذا يـأتى المستشرقـون ومن يميلـون إليهم بقلـوبهم ويُحَسِّبـون علينـا

(١) قال تعالى فى سورة سبأ: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ [سبأ: ٣٣]

بقوالبهم وظواهرهم ليقولوا: إن هناك تناقضاً، فالله يقول: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى أثبت أن لهم أيماناً، ثم قال: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾. فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لايجتمعان فى وصف الشخص الواحد؛ ونقول: إنهما لايجتمعان عند من يفكر تفكيرا سطحيا ، أو يأخذ الأمور بظواهرها. ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشىء وإثباته فى القرآن الكريم يعنى : أن الجهة منفكة. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [**الأنفال** : ١٧]

فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمى. ويجىء نفى الشىء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى فى الأسلوب انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال : إن فلاناً يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه ، إذن فهو عالٍ وأسفل فى نفس الوقت؛ عالٍ عمن تحته وأسفل ممن فوقه.

أو تقول: ـ كمثال آخر ـ فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، أى أنه أب لابنه ،وابن لأبيه، فهو أب من جهة الابن، وابن من جهة أبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما نسميه انفكاك الجهة.

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له ؛ لأن رسول الله أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار[(١)] ، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر، لكن قدرة

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال:« يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين».أخرجه أبو نعيم (ص٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جندى من جيش الكفار، وفى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٦، ٧]

لقد قالوا: إن الله نفى العلم وأثبته لنفس الأشخاص، ونقول: لا، إنه نفى العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا مختلف عن ذلك تماماً، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيمانَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

أثبتت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

ونقول: فائدة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أى عهده لا قيمة له؛ لأنه مجرد من الوفاء. وعندما يحلف الكذاب نقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على المذاكرة، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئا، فتقول: ذاكرت وماذاكرت ، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما : لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان فى آخر الآية معناه : أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلاوفاء فلاقيمة لأيمانهم. وقوله تعالى:

﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد

قتل وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للإسلام ،وتنتهى اللجاجة فى أمر الدين.

ثم يقول الحق من بعد ذلك:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

فى هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقتال أئمة الكفر، وعدم تركهم يستشرون فى حربهم للدين ، ومنع الناس عن الإيمان، وصدهم عن سبيل الله. و«أَلَا» تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب. وقوله تعالى: ﴿نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ﴾ أى نقضوا عهودهم، وقوله تعالى: ﴿وهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾أى : هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، و﴿همّوا﴾، أى عقدوا النية على العمل، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى :أنهم هم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. والبدء هو : العمل الأول، و«المرة» هو فعل لايتكرر ؛ لأنه إن تكرر نقول: ﴿مرتين﴾ ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

هم إذن الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة.و الإسلام ـ كما نعلم ــ قد واجه

قوتين فى مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام : قوة المشركين من قريش، وقوة اليهود، وأما قريش فقد هموا بأن يخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال فى بدر. وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير تعويضا عن مالهم الذى تركوه فى مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا فى بدر[١].

إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبى سفيان [٢] إلا أن قريشا هى التى أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان ؛ ليقاتلوا المسلمين.

وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول من المدينة. كما حاول المشركون إخراجه من مكة، وكان بينه صلى الله عليه وسلم، وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله فى المدينة، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟. لا ، فقد تعهدوا ألا يعينوا عدوا عليه، ونكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين.

وكذلك فعل بنو النضير ، فقد أرادوا اغتياله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإلقاء صخرة عليه، بل وتمادى اليهود فى غزوة الأحزاب وأعانوا قريشا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لها أكثر من

(١) جاء فى سيرة النبى (٢/ ٢٤٧) لابن هشام أن ضمضم بن عمرو كان يستصرخ قريشا وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره (أى : قطع أنفه)، وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (هى: الإبل تحمل الطيب) أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لاأرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

(٢) وذلك أن أبا سفيان غيَّر طريقه إلى مكة ومعه قافلة قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدرا وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبوسفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له. انظر سيرة النبى (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

حيثية، ونقضهم العهود وبدْؤهم القتال يجعلكم تقاتلونهم ؛ لتأمنوا شرهم .

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]

وقوله تعالى : ﴿أَلاَ تقاتلون﴾ حث على القتال، أى :ماالذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

وهنا يلفت الحق سبحانه نظر المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين، خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً. ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله، فالله أحق بالخشية قطعاً. وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون مايمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولايخشون مايصيبهم من الله.

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار فى آية أخرى من ذات السورة، هى قوله سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا. وقوله تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم

بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر. وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يحدث تثبيتا لقلوبهم وأقدامهم فى مواقف القتال والنزال .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائى فيقول:

﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٣]

أى : راجعوا إيمانكم، فإن كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون فى الشهادة. وإن كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لاتقارن بالقوة البشرية. فإما أن تنتصروا عليهم فتكون لكم فرحة النصر، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة، وكلتا النتيجتين خير، أما مايصيب الكفار فهو ينحصر فى أمرين: إما أن يصيبهم الله بعذاب بأيديكم، وإما أن يصيبهم بعذاب من عنده.

إذن ففى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر، نجد أن الجانب الفائز هم المؤمنون ، سواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسر فى أى حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يعذبوا بأيدى المؤمنين ، وإما أن يأتيهم عذاب من الله تعالى فى الدنيا أو فى الآخرة. وهكذا وضع الله المقاييس التى تنزع الخشية من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، فلا تولوهم الأدبار أبدا فى أى معركة؛ لأنه مهما كبرت قوة الكفار المادية ، فقوة الحق تبارك وتعالى أكبر. ويقول المولى سبحانه:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا لا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية ، فهذه خشية لا محل لها

فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا﴾ فى الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال، و﴿قاتلوهم﴾ الثانية التى فى هذه الآية ؛ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار. ثم يأتى المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونتساءل: إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لايأتى بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لايؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِىَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين، ويحسبوا لهم ألف حساب، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفى آية أخرى يقول:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟. ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال : قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أى: لاينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين. ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم. ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولايوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا و كبارا، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أوتصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقضى على الكفار نهائيا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء

والصبيان[١] ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا[٢].

إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان فى الأمم السابقة.ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل فى عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع فى الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤]

وماالفرق بين العذاب والخزى؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛لأن معناه الفضيحة، كأن يكون هناك إنسان له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه، مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولايؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب. ولا يريد سبحانه أن يعذب

---

(١) وقد وردت بهذا السنة الشريفة، فعن عبدالله بن عمر قال:« وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٢) يقول عز وجل : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]
قال القرطبى فى تفسيرها : «هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم» وذكر أقوال من ذهب إلى أنها منسوخة بآية ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ثم قال: «وقال أكثر أهل التأويل: هى محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ: «هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم». خرجه البخارى ومسلم».

الكفار بأيدى المؤمنين فقط، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ،بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزى والهزيمة. إذن ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَيَنْصُرْكُم عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتى المرحلة الرابعة:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

أى : أن النصر الذى سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم، فكأن هذا النصر يشفى الداء ،الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أى : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور، فكأن قتال المؤمنين للكفار لايحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج ـ أيضا ـ قلوب المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ ﴾

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء ــ كما نعلم ـ إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين

أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعذبهم الله بأيديكم، وينصركم عليهم، ويخزهم سبحانه وتعالى.

ونلمس أنه ــ سبحانه وتعالى ــ رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغار على صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزى، ويشفى بهذا صدور القوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٥]

أى :أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمة، فالقتال أراده الله عز وجل ليِدُكَّ به جبروتهم، والتوبة حكمتها لمنع تمادى الكفار وطغيانهم فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، ومادام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ماأستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لاتوجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لايتمادى فى ظلمه ، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم ـ علم الواقع ـ من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد فى سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم[1]، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا مايقابله.

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يُصفِّى الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا فى سبيل الله. وساعة يقول الحق عز وجل فى شىء كلمة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا، فسبحانه يعلم كل شىء أزلا، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل ــ ولله المثل الأعلى ــ نجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذى يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] وقد قال تعالى : ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١] والتمحيص هو: الاختبار والابتلاء، والتمحيص أيضا: التخليص والتطهير. ومنها تمحيص الذهب أى اختباره لمعرفة الجيد منه من الردىء.

فيقول العميد: ولكنى أريد أن تعقد امتحاناً ؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وسبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلا، ولكن العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ [التوبة: ١٦]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٦]

«ولـمَّـا» للنفى، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى :أنه لم يتحقق المجيء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لاتؤذن بتوقع ثبوت مابعدها، فما يأتى بعدها لن يتحقق أبدا، أما «لما» فتؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها ، أى أن مابعدها.. لم يتحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستاننا» أى :أن البستان الذى تملكه لم يثمر، ولكنه قد يثمر بعد ذلك. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القول الكريم: أن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم إلى الآن، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قالت الأعراب: «آمنا» فأوضح الحق سبحانه وتعالى: بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكنه سلوك سطحى لم يأت من ينابيع القلب. وقول الحق هنا:

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة : ١٦]

لايعنى أن علمـه متصل بـوقت الكـلام، فعلم الله تعـالى مـوصـول أزلى وسبحانه مُنزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هـو علم الواقع الذى سوف يكـون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانـه وتعالى لـو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنـا يا رب بالقتـال لقاتلنـا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، وَلَكُنَّا أكبر المجاهدين.

ولذلـك جاءت الابتـلاءات كتجربة عمليـة، ومن هـذه الابتلاءات مـواجهة العـدو فى حـرب، فمن هـرب ثبت لـه التقصير فى المواجهـة، ومن لم يصبر على الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فالله يـريد بعلم الـواقع التمييز بين صـدق الجهاد وبين الفـرار منه، وأن يكون هنـاك سلوك إيمانى واضـح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخـذوا من دون الله ولا رسوله وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة».

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[الحج : ٦١]

أى: يُـدخْل الليل على النهار ويُـدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشىء الذى يدخل فى شىء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفـرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكـر وجمع المؤنث، وتقول: «امرأة وليجة»، و«رجل وليجة» ، و«امرأتـان وليجة»، و«رجلان وليجة»، و«نساء وليجـة» و«رجال وليجـة». كما تقول : «رجـل عدل» و«امـرأة عدل»، و«رجـلان عدل»، «امرأتـان عدل»، و«رجال عدل» و«نسـاء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء[1] التى تدخل على المؤمنين الضعاف، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[التوبة : ١٦]

فالممنوع هنا - إذن - أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شىء من أسرار المؤمنين. ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]

والمعنى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لاتخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شىء عن عيون الخالق ؛

(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله عزوجل». أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣/ ٣٩، ٨٨) والنسائى فى سننه (٧/ ١٥٨)

لأنكم إن عمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء[١] .

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى فى قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ اللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وكأن هذه الآيـة قد جـاءت حيثية للبراءة التى حـمَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر[٢] ؛ لأن البراءة هى القطيعـة، ومعنـاهـا ألاَّ يـدخل المسجـد مشرك، ولايطـوف بـالبيت عـريـان، فكأن البراءة من الله عـز وجل ورسـولـه من المشركين مَنْعٌ لهم من دخول المسجـد الحرام، وكان عـدد من المشركين قد جعلـوا من المسجد الحرام منتـدى لهم ، وكـانوا يجلسـون فيـه للتسـامـر والتجارة ولغير ذلك، كما كـانـوا يقـومـون بسقى الحجيج من شراب الـزبيب الـذى لم يختمـر ؛ ومعهم حجـاب البيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كـان يحدث فى مكة من الكفـار ولكن هذا انتهى بـالبراءة التى أعلنها على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذى أوحى إليه

(١) عن أم سلمـة قالت قـال رسـول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلى، ولعـل بعضكم أن يكون ألحن بحجتـه من بعض، فأقضى له على نحـو مما أسمع منه، فمن قطعـت له من حق أخيه شيئـا فلا يأخذه،فإنما أقطع لـه به قطعة من النار» أخرجه البخارى (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) عن أبى هريرة قـال : « بعثنى أبوبكر فى تلك الحجة فى المؤذنين،بعثهم يوم النحر يـؤذنون بمنى أ لايحج بعد العام مشرك، ولايطـوف بالبيت عـريان». قال حميـد: ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمـره أن يؤذن ببراءة. قـال أبوهـريرة: فأذن معنـا على فى أهل منى يـوم النحر ببراءة، وأ لايحج بعـد العام مشرك ولايطـوف بالبيت عريان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٥٦).

ربه بأن يفعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق فى ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾. والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس فى هذه المساجد بحيث تكون عامرة بزوارها، والمعنى الثانى هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته وإصلاحه. وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العمارة[1] .والكلام هنا عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾

[التوبة: ٢٨]

نقول : إنَّ المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس فى كل بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لأن كل مكان يسجد فيه إنسان مسلم يسمى مسجدا، وبتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مساجد، أو لأن جهات السجود تتعدد فى المسجد الحرام ؛ فواحد يسجد شمال الكعبة، وآخر جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة، ورابع غرب الكعبة؛ هذا فى الجهات الأصلية، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق، وأناس يتجهون جنوب شرق، وغيرهم يتجه جنوب غرب، وتتعدد الجهات الفرعية فى الاتجاه إلى الكعبة ؛ إذن فكل جهة متجهة هى مسجد وهناك ممن لا يرون الكعبة فى بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة]

نلحظ أنَّ «كان» هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى: ليس مقبولا فى عرف

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية: «اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فقيل: أراد ليس لهم الحج بعد ما نودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك بل أهله المؤمنون» .

العقل أو المنطق أو الـدين أن يقـرب الكفـار المسجـد، ولا أن يـرعى مشرك المسجد أو يصونه؛ لأن المسجد للعبادة، والعبادة تقتضي معبودا هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق ـ إذن ـ ألا يكون لهم دخل بالمساجد، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شيء منطقى بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهى سبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة قول ؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودى: على أى دين أنت؟فيرد بديانته ، وكذلك القول للنصرانى، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه[1]، هذه هى شهادة القول. أما شهادة الحال فهى أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله.

فكيف يكون الإنسان مشركا ثم لانقول له: ليس لك علاقة بالمسجد؛ ارفع يدك عنه ؟ وماأغنى الإسلام عن أن يبنى له مشرك مسجدا أو يعمر كافر بيتا من بيوت الله وما أغنى الله أن يزوره فى بيته من هو غير مؤمن به سبحانه . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

وهم قد نسوا الشهادة الأولى بالحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

(١) قاله السدى . نقله ابن كثير والقرطبى فى تفسيريهما للآية .

هم إذن قد أقروا لحظة الخلق الأولى بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناما. وادعوا الكذب وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]

وهذا هو الإشراك بعينه، وهذه هى شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

﴿ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

والمسجد ـ كما نعلم ـ هو المكان الذى نسجد فيه، وكل بقعة فى الأرض بالنسبة للمسلمين تصلح للسجود وتعتبر مسجدا، وهذا مما خص به الله تعالى أمة الإسلام، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصَل ، وأُحلَّتْ لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١).

فهذا الحديث يبين أن مما خص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحة لأداء الصلاة فيها ،كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً، ويكفى المسلم أن يتيمم من الأرض ويصلى عليها ، ولكنْ هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصلى فيه، وأن تباشر نشاط حياتك، وبين مكان مخصص للعبادة، فالحقل الذى تزرع فيه، لك أن تصلى فيه وتزرع، والمصنع لك أن تصلى فيه، ولك أن تصنع، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها، ولك أن تصلى فيها ، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام ، وهى أماكن سجود لله تعالى، لكن كلمة «مسجد» إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذى أخرج من نشاطات الحياة كلها، وخُصّ بأن يكون للصلاة والسجود فقط، فإذا

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

حيزت مكاناً بخط أبيض من الجير، أو حيزته بسلك وقلت: هذا مسجد، فلا يزاول فيه نشاط إلاَّ الصلاة، هذا هو المسجد الاصطلاحى الشرعى. وكل بيت لله بنيته فى أى مكان يسمى مسجدا، وقبلة المساجدالمنتشرة فى بقاع الأرض هى المسجد الحرام ؛ فهى أماكن خيزت للمسجدية ، أو للعبادة ، أوللصلاة وليست لغير ذلك من حركات الحياة، ولكن تحييز المكان كان باختيار البشر. وقبلته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى، والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّـةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

[آل عمران]

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله، وموضوع للناس. فلنا أن نسأل: هل الناس هم الذين وضعوه ؟ لا، بل وضعه غير الناس، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته، ولابد إذن أنه موضوع قبل آدم ، وبمنطق القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم، وإذا تعمقنا قليلا، نجد أن هذا البيت الحرام هو ﴿هدى للعالمين﴾ ومن العالمين الملائكة.

وهكذا نرى أن قول بعض القوم : إن إبراهيم هو'الذى حدد مكان وقواعد البيت، قول لايثبت صدقه، لأن البيت هو المكان لا المكين، فالبيت ليس هو الحجر أو المبنى ، وهو ما نسميه الكعبة، فالكعبة هى «المكين» أما البيت فهو المكان الذى أقيمت فيه الكعبة ؛ لأنه إن جاء سيل وأزال الكعبة، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصلى؟ نصلى إلى اتجاه المكان، فالسيل يُذْهِبُ المكين لكن المكان باق.

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعا، وأمره ربنا أن يرفع البيت، ولم يقل له : حدد المكان، بل أمره أن يبنى البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض، وإن كان دائرة فله المحيط، وإن

كـان مثلـثا يكـون من ثـلاثة أضـلاع. لكـن الارتفـاع يـدخل بـالشىء إلى الحجم، وقد رفع الخليل إبـراهيم القـواعد مـن البيت. بعد أن حـدد الـمولى سبحانـه وتـعالى لـه المكـان وأظـهره لـه : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القـواعد من البيت﴾ . [البقرة : ١٢٧]

فكأن البيت مخصص قبل الرفع، بدليل أن الحق سبحـانه وتعالى حينما تكلم عن مجىء هاجر وابنها إسماعيل الرضيـع، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما فى هـذا المكان قـال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقد رفـع إبراهيم عليـه السلام القـواعد وساعـده ابنه إسماعيـل بعد أن كبر واشتـد عوده، ولكن سـاعة أن أسكنـه وأمه بجـانب البيت كان طفـلا صغيرا. إذن فالبيتية والمكانية موجـودة، ولكن إبراهيم أقام المكين وهو البعد الثالث أى الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦]

أى أظهرنا وحـددنا المكان ،وهو الـذى سيبنى فيه سيدنا إبـراهيم بالأحجار ليبرز البيت، فالبيت ـ إذن ـ كان موجوداً من قبل.

ونلحظ أن المساجـد المنتشرة فى الأرض لابد أن يكون لها متجه واحـد، لإله واحد، وحـدد الحق هذا المكان بالقبلـة إلى الكعبة. وبعض المتحللين يحاول أن يقلب الفهم فى قول الحق:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]

يقـولـون : إننـا إن اتجهنـا إلى أى مكـان سنجـد وجـه الله تعـالى، ونقـول:

الصحيح أن وجه الله عز وجل فى كل الوجود ،ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة لتكون متجهنا، أنها هى وجه الله، لا، لكننا مأمورون بالاتجاه لها فى الصلاة. وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين فى كل الدنيا سوف تجد أن كل مسلم فى الأرض يتجه للكعبة فى صلاته، ومادامت الكعبة مركزا، وكلنا نتجه إليه ؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقه، وواحد يتجه وهو غربه، وواحد يتجه وهو شماله، وواحد يتجه وهو جنوبه .

إذن﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، ومادمنا قد عرفنا أن المساجد مميزة ومخصصة للعبادة ؛ فلايجوز أن يأتى إليها مشرك، ولانقبل أن يساهم فى إصلاحها ولانظافتها مشرك؛ لأن الله غنى عن ذلك، وعلينا أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية فى مسجد، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتى على الناس زمان يتحلقون فى مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا ، ليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم »[(١)]

كأنه لم يكفهم حب الدنيا خارج المسجد ويطمعون فى الدقائق التى يخصصونها للصلاة، فيجرجرون الدنيا معهم إلى المسجد،وأقول لهم : لماذا لاتتركون مصالح الدنيا فى تلك الدقائق؟ إن الواحد منكم إنما يحيا فى سائر الدنيا فى نعمة الله. إذن فليجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة .

إذن لابد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله، فلا بد أن نصحب هذا التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسان من أجلها للمسجد، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة، لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاق التعبد. ويجب أن يكون الانفعال، والتفاعل، والحركة والنشاط كله فى الله، ولذلك فأفضل ماتفعله ساعة تدخل المسجد، هو أن تنوى

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٣) من حديث أنس رضى الله عنه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

الاعتكاف فتنزع نفسك ممن ينوى أن يتكلم معك فى أحوال الدنيا.

لقد ورد فى الأثـر النهى عن الحديث فى المساجد لأنـه يحبط العمل ويمحو الحسنـات، وأنت قـد تصنع الحسنـات كثيرا خـارج المسجـد،ولكن عليك ألا تدخل المسجـد إلا بأدب المسجد؛ فالحضور بين يـدى الله تعالى فى مسجده وفى بيتـه لـه آدابه وسلـوكـه، فيجب عليك ألاّ تتخطى الـرقاب وهـذه لاتحتـاج إلى تنظيم، بمعنى ألا تجعل الأمـاكن فى الأمـام خـاليـة، وفى الخلف مـزدحمة؛ حتى يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلى دون أن يتخطى الـرقـاب[1]، ويكون الجلوس فى المساجد، الأول فالأول، وهكذا يتحقق الأدب الإيمانى فى المساجد.

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم دعا بـالبوار على كل صفقـة تعقد فى المسجد. ودعا على كل من يريد شيئاً دنيـوياً من المسجد ألا يوفقه الله فيه ، ودعا على كل من ينشد ضـالة فى المسجد ألا يرد الله عليه ضـالته ، حيث قال صلى الله عليـه وسلم فى الحديث الذى يـرويه عنـه أبو هـريرة رضى الله عنـه: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتـاع فى المسجـد فقـولـوا: لا أربح الله تجارتك[2] وإذا رأيتم من ينشد ضالـة فقولوا: لا ردها الله عليك»[3] وفى حديث آخر له رضى الله عنه قـال: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: «من سمع رجلا ينشد ضالته فى المسجد فليقل: لاردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا»[4].

فلنجعل الجلوس فى المسجـد ـ إذن ـ خاصـا بالمنعم وهو الله، أمـا فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات، فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم الله بها علينا .

(١) عن عبدالله بن بسر قال: جـاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقـال له رسول الله ﷺ: «اجلس فقد آذيت» أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٩٠) وأبو داود (١١١٨) والنسائى (٣/ ١٠٣)

(٢) أى : لاأوقع الله فيها الـربح ، لأنك أتيت بها فى محل جعل للذكر والصلاة وقـراءة القرآن . والبيع والشراء محلها فى الأسواق خارج المساجد .

(٣) أخرجـه النسائى فى عمل اليوم والليلـة (ص٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمـذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب. وكذا الحاكم (٢/ ٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٨) وأحمد (٢/ ٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٧٦٧) .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

وما دام بيت الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط، فكأن إشراقات الحق وتجلياته، أعظم ما تكون فى بيته أولا، ثم تشيع الإشراقات والتجليات فى جميع بيوت الله، وعلى عمارها والمتعبدين فيها، وبيوت الله هى الأماكن التى تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن نوره فى سورة النور قال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

أى أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد، وسورة النور جاء فيها ـ أيضاً ـ قول الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن نوره يملأ السموات والأرض. حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلا للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادى يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوى أو الغيبى إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد. فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلا من الأمور المادية المحسة؛ حتى تقترب الصورة من الأذهان؛ لأننا جميعا نرى الماديات. وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم .

وإذا كنا فى كون الله تعالى نجد النهار إنما يكون نهارا بإشراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول، فيتميز النهار بالضوء، ويتميز الليل بالظلمة، ومعنى النور فى الحسيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى ما حوله؛ حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إن كانت الدنيا ظلاما فسيصطدم الإنسان بما حوله ، وأمر من اثنين: إما أن يكون الإنسان أقوى من الشىء الذى اصطدم به فيحطمه، وإما أن يكون هذا الشىء أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابة تتناسب مع قوة الشىء الذى اصطدم به. والذى يحميك من أن تحطم أو تتحطم هو النور الذى تسير على هداه.

إذن فساعة أن يأتى النور ، تتضح أمامك معالم الدنيا، وتكون خطاك على بينة من الأمر؛ فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه، ولايرتطم بك ماهو أقوى منك فيحطمك، هذا هو النور الحسى، وأكبر مافيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد، وهذا النور نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النعم لجميع خلقه فى الدنيا سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا[1].

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكاناته؛ فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتى بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كل على قدر إمكاناته، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقى أحد على مصباحه مضاء ؟ إن الجميع يطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

(١) عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ،كما قسم بينكم أرزاقكم ،وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » .
أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبي وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف .

والفرق بين نـور بقدرات الإنسان ونور من خلق الله يتمثل فى أن النـور الذى من خلق الله يطفىء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع.

وفى المعنـويات نـور أيضا فـالنـور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لاتـرتطم بالمعنـويات السافلة التى قـد تقابلك فى مسيرة الحياة، إذن فكل مايهـــدى إلى طريق الله يســمى نورا. ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينيرلنا المعنويـات، وينيرلنا القيم؛ فلا يحقد أحدنا على الآخر، ولايحسد أحدنا الآخر، ولايرتشى أحد. ويرعى كل منا حقوق غيره.

وإذا كـانت التجـربـة قـد أثبتـت أن نـورا من خلق الله وهـو الشمس، إذا سطعت فالجميع يطفئون مصابيحهم. فكـذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانـه وتعالى فيجب أن تطفأ بقية الأنـــوار من مقترحات أفكار البشـــر، فلا يأتى أحد بفكر رأسمالى ، أ و يأتى آخر بفكر شيـــوعى، أو ثالث بفكر وجودى، لأن كل هـذه القيم تمثل أهواء متنـوعة من البشر، وتعمل لحسـاب أصحابها، أمـا منهج الله تعالى فهـو لصالح صنعـة الله وهم البشـر جميعا، فلا يحاول أحد أن يضـع قيما للحياة تخـالف منهـج الله ؛ لأنَّ الله قـد بيَّـنَ لنا منهـج العبادة ومنهج القيم، لذلك لا يصح أن يأتى إنسان بشـرع يخالف تعاليم الله.

ونقول لأصحاب الهوى فى المذاهب والعقائد المخـالفة لمنهج الله جميعا: لماذا لاتقيسـون الأمـــور المادية على الأمـور المعنـويـــة؟ لماذا إذا سطعت شمس الله تطفئون مصابيحكم، ولايحاول أحـد أن يوقد مصباحا ليهـديه فى نور الشمس؟. إذن. فما دام سبحانه وتعـالى قد أنزل نور الهدى منه فـلا بد أن نطفىء جميعا مصـابيح الأفكار القـائمـة على الهوى، ونأخـذ النور كلـه من منهج الله القـويم والصالح لكل زمان ومكان، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا التجربة الحسية التى لايختلف فيها اثنان، إلا أننا رفضنا أن نطبق هذا على منهج الله؛ وهو النور الذى أهداه لنا سبحانه وتعالى ليبين لنا الطريق، وأبى بعضنا إلا أن يأخذ من ظلمات العقل البشرى المحدود مايعطيه طريقاً معوجاً فى الحياة ،فامتلأت الدنيا بالشقاء والفساد ،ونسينا أن السبب فى ذلك أننا تركنا نور منهج الله عزوجل الذى يعطينا الحياة الآمنة الطيبة، ووضعنا لأنفسنا مناهج سببت التعاسة والفساد فى الكون.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر فى مثل مادى عن معنى نور الله فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السموات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانبا منها مظلما، وقال جل جلاله:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

والمشكاة(١) هى «الطاقة المسدودة بالحائط»، وهى عبارة عن مكعب مفرغ فى البناء داخل كل حجرة وكان أهل الريف يضعون فيها المصابيح لتنير، واستبدله أهل الريف والبادية حاليا بـ«رف» صغير يوضع عليه المصباح، ودائرة صغيرة يخرج منها النور، ولأن ضوء المصباح مركز فى هذه الفتحة، فهى تمتلىء بالنور الذى بدوره يشع فى الحجرة. وحيز المشكاة بالنسبة للحجرة التى توجد فيها قليل وصغير ، والنور الذى يخرج منها ، هو نور مركز يملأ الدائرة التى يخرج منها فلا يوجد فيها «ملليمتر» واحد مظلم، بل كلها نور، وإلا ما استطاع ضوءها أن ينير الحجرة. لأن هذا النور قبل أن يضىء الحجرة ؛ لابد أن يكون

(١) «المشكاة» كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح ، وما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح وفى التنزيل العزيز (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) [المعجم الوسيط الجزء الأول ص ٤٩٢]

مركزا بأعلى درجة من التركيز فى الدائرة التى يخرج منها.

إذن فنور الله سبحانه وتعالى فى السموات والأرض نور شامل عام لايدع مكانًا مظلماً. ولامكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام، تماما كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح فلا تجد فيها ملليمترا واحدا من الظلام، وقد سمى ما يعطى النور مصباحا ؛لأنه يعطينا بشائر الصبح. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج، ليحجب عنه الهواء الذى قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه، والزجاجة التى تحيط بالمشكاة عاكسة للنور، وهذا كله يعطينا معنى للتكثيف والتركيز داخل المشكاة .ثم ينتقل المثل من بعد ذلك إلى الحجرة، فيقول الحق :

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن الزجاجة ليست عادية، ولكنها مضيئة بنفسها لتزيد النور نوراً. ومن أى شىء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن الشجرة المباركة ليست زيتونة فقط؛ ولكنها ﴿لَاشرقيةٍ وَلَاغَرْبيَّةٍ﴾ أى أن النور يخرج منها غير متأثر بمزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافى فى مزاج معتدل، وقد أطلقت كلمة «النور الصافى» على آخر مرحلة من مراحل الترقى فى الضوء. ومراحل الترقى بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادى، والمصباح فى زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء، فتظهر وكأنها كوكب درى مضىء بذاته، والزيت الذى يضىء يخرج من زيتونة مباركة، بأعلى

درجات النقاء. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن كل شىء مضىء بذاته، ويضيف من قوة الضوء للنور، فالدائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها زجاجة تكثف النور، والزجاجة ذاتها مضيئة فتعطى إضافة، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطى ضوءا ساطعا، وفوق ذلك كله تجد الزيت مضيئاً بذاته، دون أن تمسه النار، فكأنه نور على نور، فلا يصبح فى هذه الدائرة الصغيرة أى نقطة مظلمة، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة، بل كله مغمور بنور الله ، وإياك أن تظن أن هذا القول : ﴿الله نور﴾ هو تشبيه لله، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذى يشمل السموات والأرض وما بينهما.

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبى تمام حين كان يمتدح أحد[1] الخلفاء فقال:

إقدام عمرو[2] فى سماحة حاتم[3] فى حلم أحنف[4] فى ذكاء إياس[5]

وهكذا جاء الشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو، وبالسماحة والكرم كحاتم ، وبالحلم كأحنف بن قيس، وبالذكاء كإياس، وقال الشاعر ممتدحا الخليفة : إنك قد جمعت كل هذه الصفات، التى لم تجمع فى واحد من خلق الله من قبل.

(١) أحمد بن المعتصم .
(٢) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن .
(٣) حاتم الطائى المشهور بالكرم .
(٤) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين وكان شهما ومشهورا بالحلم .
(٥) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء .

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال: كيف تمدح الأمير بصفات موجودة فى رعاياه، والأمير فوق كل ما وصفت، فهو أشجع من عمرو، وأكرم من حاتم، وأحلم من أحنف، وأذكى من إياس.

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول:

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

أى :أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا.

والحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى أن كل شىء مضىء بذاته ليضيف نورا على النور الموجود، فكما أن الماديات تحتاج إلى نور يضىء لك الطريق، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور يضىء لك البصيرة والسلوك ، فخذ منهج الله تعالى لأنه النور الساطع الذى لا يمكن أن يضىء مثله ولا معه نور آخر، وإذا أردنا أن نقرب الصورة إلى الأذهان، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله ﷺ :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء، فكيف يقول لهم : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ .

نقول : إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نفرق بين حياة وحياة. فالحياة المادية

المتمثلة فى الحس والحركة والجرى، هى الحياة الدنيا بأجلها المحدود، وإمكاناتها البسيطة، ولأنها حياة أغيار؛ لا تبقى فيها النعمة ولا تدوم لأحد، بل كل إنسان فيها إما أن تفارقه النعمة بالزوال ، وإما أن يفارقها هو بالموت، وهذه ليست هى الحياة التى يريد الله من الإنسان أن يعمل لها وحدها . أو يسعى ليتمسك بها. فبسببها يفعل كل ما يستطيع لكى يأخذ منها حلالا أو حراما، ولكن الحياة التى يطالب الله سبحانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هى الحياة المستقيمة الحركة على منهج الله وتقود إلى حياة آخرة فيها نعيم لايفارقك ولا تفارقه، وفيها أبدية تبقى ولا تنتهى، وفيها نعم عظيمة تأتى بقدرة الله تعالى، وليس بقدرة البشر المحدودة.

إذن فقوله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

معناه أن الحياة حياتان؛ حياة تحرك هذه المادة ؛ فتتحرك وتجرى وتروح وتجىء، وهى تنصلح بالمنهج الذى يقود إلى حياة أخرى فوق الحياة الدنيا.

إذن فالحياة الدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هى الغاية التى يجب أن يسعى إليها الإنسان، بل على الإنسان أن يسعى إلى الحياة الأرقى. وسبحانه لا يريدنا أن نأخذ المرحلة الأولى من الحياة التى تحرك المادة فتتحرك وتجرى، بل يريد لنا حياة تقودنا بالقيم، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التى تحرك المادة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص]

فهذه حياة المرحلة الأولى التى لا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذها كغاية، ولكنه يريدنا أن نأخذها وسيلة لنصل بها إلى الحياة الراقية فى كل صورها الخالدة بكل معانيها؛ المنعَّمة فى كل درجاتها. وكما سمَّى الحق سبحانه

وتعالى الروح التى تنفخ فى المادة فتعطيها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سمَّى المنهج الذى يعطينا المرحلة الثانية من الحياة روحا ،حيث يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

هذه هى روح المنهج التى تعطينا المرحلة الثانية من الحياة. فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات، تماما كما تنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية. إذن فالحق لم يترككم للنور المادى ليحافظ على ماديتكم من أن تحطموا أو تتحطموا، وإنما أرسل إليكم نورا لتهتدوا به فى مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ولم يقل سبحانه: «نور مع نور» ؛ لأن الإنسان لا يُكَلَّفُ من الله إلا بعد أن يصل إلى سن البلوغ[١] ، فالنور المادى يراه ويستفيد به قبل التكليف، ثم يأتى النور المعنوى فيتلقاه من الكتاب الذى أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله.

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥]

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد ؛ لأنه نور لكل الخلق، وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق

(١) عن على رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصغير حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المصاب حتى يكشف عنه» أخرجه أحمد (١/ ١١٦) وأبوداود (٤٣٩٩ - ٤٤٠٣) من طرق عن على، والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٥٨) وصححه وأقره الذهبى.

إلى الهداية، وهذا النور المعنوى يختلف عن النور المادى، فالحق لم يحرم - إذن - أحدا من النور المادى، وشاء أن يجعل النور المعنوى ضمن اختيارات الإنسان؛ إن شاء آمن واهتدى، وإن شاء ضل. وكل ذلك مجرد مثل من الأمثال التى يضربها الله تعالى للناس ؛ لذلك قال عز وجل:

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وجاءت الآية التى بعدها لتوضح لنا أين ينزل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦]

وعندما تسمع جارا ومجرورا لا بد أن تبحث عن المتعلق بهما، فما الذى فى بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجدها إلا فى قوله تعالى:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح ؛ لنصل إلى المرحلة الثانية من الحياة ، تماما كما يحدث فى الدنيا عندما تصاب آلة بعطب أو لاتؤدى مهمتها على الوجه الأكمل، فالذى يصلحها ويصونها لتؤدى مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذى صنعها . والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، فلا أحد يستطيع أن يدعى مهما اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس. وهذه دعوى لم يدَّعِهَا أحد قط.

وما دام الله عز وجل هو الذى خلق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذى يضع المنهج الذى يصون حياة الناس ويجعلها تؤدى مهمتها كاملة. ومادام ربنا هو الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، فكيف يأتى إنسان من البشر ليفتئت[1] على

(١) يفتئت : يقول الباطل ويختلقه .

الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهجا لحياة البشر، ويعلم الإنسان ما يفسد حياته لا ما يصلحها. ونقول لكل من يفعل ذلك: لماذا تلجأ إلى من يصنع التليفزيون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذى يصلح لك نفسك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون فى حضرة ربه دائما هو إصلاح لما فى النفس، فحين يقف المؤمن بين يدى الله ويصلى، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذى يصيب أى ملكة من ملكاته بالارتباك.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1]، وما معنى حزبه أمر؟ . أى :إن جاءه شيء أو أمر ، وكان فوق طاقته. وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئا تجاهه، وتضيق عليه الأمور . فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة ، فإن قابل أمرا مكروها وشاقا يقول : إن لى ربا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتحل أصعب وأعقد المشكلات . إذن فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بد أن نتجه إلى الله عز وجل . وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته . فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى [2]

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى أولذلك الذى يعانى من شيء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول: هذا الظاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث فى داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى

(١) عن حذيفة قال :« كان النبىﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ٢١١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من رواية زياد بن صخر عن أبى الدرداء وقال: «لم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات».

يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى وهى التى يتنزل فيها النور على النور الـذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛لأن أنـوار الله تدخل القـلوب فتجعـلها تطمئن، وتـدخل النفوس فتجعلهـا تحس بالرضا والأمن.

إذن فالمسـاجد لها مهمـة العيادة للطبيب[1] الخالق الذى خلق هذه النفس ويعـرف كيف يـداويها، وليس للطبيب الـدارس فى كليـة الطب الـذى يعـرف أشياء وتغيـب عنه أشياء. ونحـن فى المساجد إنما نعيـش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منـه التجليات والفيـوضات التى تعـالج نفوسنا أكثـر مما يعـالجها أبرع أطباء العـالم ، على أننا إذا دخلنا المسجد فلنعرف أن لهذا المكـان قدسيته، ولابد أن يحرص الإنسـان على نظافته ومظهـره، ولنرتد أحسن ثيـابنا ؛لأن الله لاينظر إلى نظـافتنا أو أنـاقتنا، ولكن ليحـرص كل منا على ألا يتأفف منـه من يصلى بجـانبه؛ فمن يعمل فى مصنع ويحضر إلى المسجـد بمـلابس العمل قـد لاتتناسب ملابسه مع المجىء إلى المسجـد إلا بعد أن يغتسل؛ إن ملابسه شرف له فى عملـه، ولكن عليه أن يغيرها حين يـذهب إلى المسجد،[2] ومن يعمل فى مكتب قد يكون الجو حـارا أو امتلأ جسده بالعرق، وملابسـه التى يوجد بها فى وظيفته هى شرف لـه فى عمله، ولكن عليه أن يغتسل، وأن تكون رائحتـه طيبة حين يـدخل المسجـد. ولـذلك نهى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم من أكل ثـوماً أو بصـلاً أن يأتى المسجد حتى لا يتأذى أحـد بالـرائحة التى تصـدر من فمه . وقال صلى الله عليـه وسلم فى حديثه الشريف الذى يرويـه جابر رضى الله عنه: « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا » [3] .

---

(١) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخـدمه فضيلـة الشيخ الشعراوى هنا هـو تعبير استخدمـه رسول الله ﷺ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقـت مع أبى نحو النبى ﷺ فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: «الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها».

(٢) وقد جاء بهذا حديث رسول الله ﷺ فعن عائشة قالت: إن الناس كانوا عمال أنفسهم، وكانت ثيابهم النهار (جلود النمـور) فكانوا يروحـون فى مهنتهم كما هى ، فقال رسول الله ﷺ: «لو اغتسلتم ومـا على أحدكم أن يتخذ ليوم الجمعـة ثوبين سوى ثوبى مهنته». أخرجـه أحمد فى مسنده (٦/ ٦٣) والبخارى (٢٠٧٠) وابن ماجه (١٠٩٦) واللفظ تاما لابن ماجه.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه(٨٥٥) ، ومسلم ، (٥٦٤) من حديث جابر بن عبدالله.

وفى روايـة لمسلم: «من أكل البصل والثـوم والكرات فـلا يقـربن مسجدنـا، فإن الملائكـة تتأذى مما يتأذى منـه بنو آدم» [١] . ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكـون الإقامـة فى المسجد طيبـة، لتكون الأفئـدة منشرحة. ويجب أن نـراعى جـلال المسجد ؛ لأننـا نعـرف أن الرحمات تتنـزل على الصف الأول ثم الـذى يليه[٢] ، فـلا يحاول واحـد منـا أن يحجز مكـانـاً بـالصف الأول بأن يضع فيـه سجادة خـاصة أو كـوفية، ثم يـأتى أحيانـا بعد إقـامة الصـلاة ويحاول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول.

وإيـاك أن تعتقد أن الصـف الأول محجوز لشخص معين ولـو أتى متأخـرا، فكل إنسان يأتى للمسجد عليه أن يأخذ دوره، ويقعد فى المكان الخالى. وإياك أن تعتقـد أن الله سبحانـه وتعالى لا يعـرف الذين يتكـوَّن منهم الصف الأول ، إنهم هؤلاء الـذين جاءوا للمسجد أولا. أمـا أن تحضر إلى المسجد وتحجز مكـانـاً فى الصف الأول لصـديق أو قريب بحيث إذا جـاء إنسـان آخر ليصلى فى هـذا المكـان قلت لـه : إن المكـان محجـوز. نقـول لك: أنت حـر أن تفعل ذلك فى بيتك، ولكن من جـاء إلى بيـت الله أولا فليجلس أولا، وكثيرا مـا تحدث مسألـة الحجز للأماكن فى مواسم الحج والعمـرة. وعلى من يجد مكاناً قد حُجِزَ بسجادة أو أى شىء آخر أن يزيحها بعيدا ويصلى.

وأنت فى بيت الله تكـون فى ضيافة الله. وأنـت تعلم أنه إن جـاءك أحد فى بيتك على غير دعوة فأنت تكـرمه، فإذا كان المجىء على موعـد فكرمك يكون كبيرا. فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيتـه، فأنت فى صـلاة منذ أن تبـدأ فى الـوضوء فى بيتـك استعداداً للصـلاة فى المسجد؛ لأنه سبحـانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمـة أن تكون فى حضرته.

(١) أخرجها مسلم فى صحيحه (٥٦٤) كتاب المساجد.
(٢) عن أبى أمامـة قال قال رسـول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلـون على الصف الأول ، قالوا : يـا رسول الله وعلى الثـانى؟ قال : وعلى الثـانى». أخـرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٠٥). قـال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٩١): «رجال أحمد موثقون».

وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب[١] ، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره فى أى وقت. فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرص من الله سبحانه وتعالى على أن يلقاك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة. ولكن إن أحببت أن تجلس فى المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل. تعالَ فى أى وقت وصلِّ كما تشاء، فإذا قلت: «الله أكبر» تكون فى حضرة الله . وإن لم تستطع فصلواتك الخمس فى اليوم الواحد هى القسط الضرورى لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تقابل ربك أثناء الصلاة وتعلن الولاء له .

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى منهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب. وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذن لصلاة الظهر ـ مثلا ـ فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه. وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائما. فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة[٢] ويكون معك دائما، ويقيك ذل الدنيا.

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر». أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٩٣) والدار قطنى فى سننه (١/ ٤٢٠) والطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٤٤٦) بسند صحيح.

(٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبى ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٨) وأحمد فى مسنده(٥/ ٢٧٦). وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٢٣) بلفظ «ما من عبد يسجد لله سجدة» الحديث.

وقلنا قديما: إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيما من العظماء فهو يطلب المقابلة، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان وفترة الزيارة. فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا، فبيته مفتوح دائما حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضرورى، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك فى أى وقت وتدعوه بما تشاء، وتطيل فى حضرته كما تريد، ولايقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت. وأذكركم دائما بقول الشاعر:

حَسْبُ نفسِى عِزًّا بأنِّى عَبْدٌ
يَحْتفِى بِى بلا مَواعِيد ربُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعزِّ ولكِنْ
أنَا أَلقَى متَى وأينَ أُحبُّ

●●●

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]

لأن المساجد مخصصة لعبادة الله تعالى، فمن غير المنطقى أن يبنيها أو يجلس فيها مشرك أو كافر، وقوله تعالى: «ما كان» أى ما ينبغى، وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أى هم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر؛

فشهادتهم بالحال، وبالمقال. كما نشهد على أنفسنا بالإيمان حين نلبى فى الحج والعمرة ونقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أى أننا ننزه الله تعالى عن الشرك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، و﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله، و﴿حَبِطَتْ﴾ أى نزلت من مستوى عال إلى مستواها الحقيقى دون مستواها الشكلى، فتجد العمل وكأنه منفوخ كالبالون الضخم، وهو فى حقيقته مجرد فقاعة ضخمة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط، فهى أعمال لا قيمة لها، وليس لها حصيلة ؛ لأنها أعمال باطلة. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

وتجد الواحد من هؤلاء يظل يعمل ويعمل، ويظن أنه سوف يجنى خيراً كثيراً من هذا العمل، وقد يكون العمل مفيداً لغيره من الناس. ولكنه افتقد النية، ففسد نتيجة لذلك. والقرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال فى آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]

والسراب هو ما يخيل إليك بلمعانه أنه ماء فى الصحراء. وعندما تذهب إليه لا تجد شيئا. والذى لا يحس بالظمأ قد لا يلتفت إلى ذلك. ولكن الظمآن تتعلق نفسه بالماء، فيجيل بصره فى كل مكان يبحث عنه، فإذا رأى أى لمعان حسبه ماء، وعندما يجىء إليه لا يجد شيئاً، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل هو

يجد الله عنده ليوفيه الحساب. ومثل هذا الانسان لم يضع الله فى باله يوماً من الأيام، وليس لمثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب. لأن الإنسان يطلب أجره ممن عمل له، وهو لم يعمل عمله وفى باله الله.

وأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرا، ولكن إن عملت معروفا لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله، ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيرا فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة. ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها. فمن بُنِى من أجله المسجد وهو الله عليم بكل شىء، ويعلم اسم من أقام البناء ، وعليك أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة، حتى لاتدخل فى دائرة «عملت ليقال وقد قيل ». وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المرائين فى حديثه الشريف الذى يقول فيه عليه الصلاة والسلام : «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال :

تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها ؟ قال :ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكن ليقال ؛ إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار»[1] .

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله فى باله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية ثانية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]

وذلك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة فى الرماد ؛ إنها لا تبقى منه شيئاً. والمشرك الذى كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمر، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً ؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) ﴾ [التوبة: ١٧]

لأنهم عملوا لغير الله فلقوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) عن أبى هريرة ، واللفظ للنسائى.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨)

الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقمة الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله». وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه، وأنه محمد بن عبدالله، وبعضهم قد قال: القرآن جميل ورائع فلماذا جاء على لسان محمد؟ وكان اعتراض كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١]

إذن فالمشكلة عندهم لم تكن فى القرآن ذاته، بل كانت فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .(١)

ويرد الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢]

أى أن رحمة الله تعالى خاصة به، لايقسمها إلا هو بمشيئته، يقسمها كيف

(١) ولايطعن فى هذا أن الله عزوجل قد حكى عن مشركى قريش أنهم قالوا : (أجعل الآلهة إلها واحدا) (ص:٥) وأن منهم من (ضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) [يس :٧٨]، فقد يكون هذا عند بعضهم سترا منه لحقيقة رفضه لشخص الرسولﷺ حسدا من عند نفسه وكبرا.

يشاء كما قسم بينهم معيشتهم وأعطاهم الرزق المادى، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى، فكيف يريدون هم أن يتصرفوا فى الأعلى؟ لقد قالوا ماجاء فى القرآن على ألسنتهم:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]

وكان المنطق الصواب أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية. فقد كانت عصبيتهم ـ إذن ـ ضد شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان على من يعلن إيمانه بالله منهم أن يشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله.

والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]

وهذا القول يحمل فى مضمونه إيماناً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله يقول بعدها: ﴿وأقام الصلاة﴾ وإقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذى قال لنا إنها خمس(١)، وهو الذى علَّمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها، وهو الذى نشهد له ونحن نصلى؛ فى الإقامة وفى التشهد، إذن فساعة نقيم الصلاة لابد أن نكون مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى ذلك فقوله تعالى: ﴿وأقام الصلاة﴾ يقتضى ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم. واشترط سبحانه وتعالى فى هذه الآية

(١) عن أنس رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله أخبرنى بما افترض الله علىَّ من الصلاة. فقال : «افترض الله على عباده صلوات خمسا» الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٠١) وصححه والدار قطنى فى سننه (١/ ٢٢٩) .

الكريمة الإيمان به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفى طيها الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إيتاء الزكاة، وطلب منا ألا نخشى غيره، والخشية هى الخوف. وسبحانه وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]

إذن فهناك خوف من أشياء أخرى، ونقول : إن الحق حين قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ أى لم يخش فى دينه إلا الله، لكن لامانع من الخشية التى تجعلك تعد لعدوك وتحذر عدوانه عليك. وانظر إلى دقة القرآن الكريم وعظمته، فقد جمع فى آية واحدة بين الإيمان بالله واليوم الآخر والصلاة والزكاة، ولم يأت فيها ذكر الإيمان بالرسول ؛ لأنه مسألة مطوية فى أركان الإيمان. ومن يفعل ذلك يدخل فى زمرة من وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

ولقائل أن يقول: كيف بعد أن آمنوا بكل هذا نقول: عسى ؟.. إذن فما حكم الذى لم يؤمن؟

ونقول: إن «عسى» و«لعل» أفعال رجاء، وذكرها يعنى الرجاء فى أن يتحقق ما يأتى بعدها، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف، أنت تقول مثلاً: اسأل فلاناً لعله يعطيك، هذه مرتبة من الرجاء، وتقول: لعلِّى أعطيك، وهذه أقرب إلى التحقيق من أن أرجو غيرى أن يعطيك.

إذن فهى مرحلة أعلى فى الإجابة، وأن تقول: لعل الله يعطيك مرحلة ثالثة وعالية من الرجاء ؛ لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر. والله سبحانه

وتعالى كريم يعطى بسخاء. ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: لعلى أعطيك، فيكون هذا توقعاً مؤكداً للعطاء.

إذن فمراحل الرجاء؛ رجاء لغيرك من غيرك، ورجاء منك لغيرك، ورجاء من الله لسواك، وقول من الله بالرجاء. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ [الإسراء: ٨]

نقول: إنه الرجاء المحقق ؛ لأنه سبحانه وتعالى كريم يحب أن يرحمنا ولاشىء يمنعه من أن يحقق ذلك. إذن فيكون الرجاء قد تحقق. وقوله تعالى:

﴿ فَعَسَىٰ[1] أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

والهداية إما أن تكون هداية إلى سبيل يؤدى لغاية، أى يهدينا الله للمنهج، فإن عملنا به نصل إلى الجنة، لأن المنهج هو الطريق للجنة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار:

﴿ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]

إذن فالهداية مرة تكون للمنهج فنؤمن به ونعمل به، وإما لطريق يوصل إلى غاية. والذين ذكرهم الله فى هذه الآية الكريمة هم كل:

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [التوبة: ١٨]

وما داموا قد فعلوا ذلك؛ فهذا هو تطبيق المنهج، وبذلك فَهُمْ ـ إن شاء الله ـ لابد أن تكون نهايتهم الجنة.

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) : كل عسى فى القرآن هى واجبة ، وقال محمد بن إسحق : وعسى من الله حق .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

جاءت هذه الآية ردا على كفار مكة الذين أسروا فى غزوة بدر، وكان منهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام وللجهاد فى سبيل الله فقال: إننا نسقى الحجيج ونرعى البيت ،ونفك العانى، ونقوم بعمارة البيت الحرام.[1] قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد. وماقاله العباس هو موجز رأى أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد فى سبيله. وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ﴾.

وكلمة ﴿سِقَايَةَ﴾ تطلق ثلاث إطلاقات : فهى المكان الذى يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذى نسميه :السبيل. وكذلك تطلق السقاية :على الإناء الذى نشرب منه الماء، والذى يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أويسمى صواع الملك، وفى قصة يوسف عليه السلام يأتى القول الكريم:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف : ٧٠]

أما المعنى الثالث: فهو الحرفة نفسها؛ فنقول: هذه خياطة ، وهذه حدادة

(١) ويقول ابن كثير: «قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسيرهذه الآية : نزلت فى العباس بن عبدالمطلب حين أسربدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى قال الله عزوجل : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لايهدى القوم الظالمين) يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولاأقبل ما كان فى الشرك . تفسيرابن كثير(٢ / ٣٤١) .

وهذه سقاية، أى أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية ـ إذن ـ هى المكان الواسع الذى يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذى نستعمله فى الشرب، أو الحرفة التى يقوم بها السقا.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا فى مقابل الإسلام ، فذلك لايصلح أبدا كمقابل للإيمان، ولاتتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج ، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة فى أن يتقبل العمل أو لايتقبله. والمؤمن المجاهد فى سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقى الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين ــ قبل الإسلام ــ فهو يطلب الجزاء ممن عمل من أجلهم، ولأنه سبحانه هو معطى الجزاء ، فهو جل وعلا يوضح لنا: أن هذين العملين لايستويان عنده، أى لايساوى أحدهما الآخر فى الجزاء.

ويقال[1]: إن سيدنا الإمام عليا رضى الله عنه، وكرم الله وجهه ،مر على طلحة بن شيبة ؛والعباس ووجدهما يتفاخران، أى: يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التى يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى فى الأشياء التى ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى.

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) من قول محمد بن كعب القرظى وعزاه لابن جرير بسنده. وفيه ابن لهيعة. فيه كلام.

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس فى الماء، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول، أى: أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس لأحد يد فيها، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر، وهو الذى يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب.

جلس طلحة والعباس يتفاخران، فقال طلحة بن شيبة: بيدى مفتاح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنمت.

فرد عليه العباس: وأنا معى سقاية الحاج ،ولو شئت ألا أسقى أحدا لاستطعت. ومر الإمام على كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران، فلما سمع كلامهما قال: ماأدرى ماتقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]

ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال : «إنَّا قد رضينا، إنَّا قد رضينا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى حكم، وفى هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التى كانت بين العباس وطلحة لم تكن فى موضعها.

وكلمة ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ فى الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، فلك مقاييس وللناس مقاييس. وقد تجامل نفسك فى مقاييسك. وقد يجاملك الناس فى مقاييسهم، أو قد يقسون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى ؛لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شىء. ولكن المقاييس

التى لا هوى فيها والتى ليس فيها إلا العدل المطلق هى مقاييس الله، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شىء، وليس فيها أى فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لايدخلهم فى مشيئة هديه، فقال:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق فى الكثير من آيات القرآن الكريم. وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هدانى ما قتلت، وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطىء، ولنرجع إلى القرآن الكريم، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللهُ لا يهدى﴾ أى نفى مايستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لايَهْدِى من قدم الكفر؛ أو قدم الظلم

أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذى يمنع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل فى هداية الله تعالى، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهديه الله؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية، فالحق يعطيه المزيد من الهدى ؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية، واستقبل منهج الله بالرضى. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨]

إذن فالحق يهدى من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر فى يقينه أن له ربا، واعتقد أن له إلهاً، وقد فصلنا ذلك فى مسألة القضاء والقدر، وقلنا : إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لايهدى الكافر، إذن فهو يهدى المؤمن، وأوضح أنه لايهدى الظالم، إذن فهو يهدى العادل، وأوضح أنه جل وعلا لا يهدى الفاسق، إذن فهو يهدى الطائع، فلا يقولن أحد: إن الله لم يشأ أن يهدينى ؛ لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله، وهو يهدى من قدم أسباب الهداية، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

ويقول أيضا:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن فـالله أخبرنـا مسبقـاً بمن يستحق هـدايتـه ومن لايـدخل فيهـا، وأنت باختيارك طريقك، إما أن تؤمن؛ فتدخل فى الهداية، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله؛ فتمتنع عنك الهداية. فـإذا جاء أحد يجادلك؛ ويقول لك: إن الله سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: ٣١]

لك أن تقـول له: لقـد بيَّن الله عز وجل من شـاء له الهدايـة، ومن شاء لـه الضـلال، ولقد ضربنـا لذلك مثـلاً ــ ولله المثل الأعلى ـ فقلنـا: إن الهداية قـد وردت فى القـرآن الكريـم على معنيين : المعنى الأول هـو الـدلالة على الطـريق، وهذه هـداية للجميع[(١)]، فقد دل الله المؤمن والكـافر على طريق الإيمان بـرسله وكتبه، أى: بيَّـن لهم ما يرضيـه ومايغضبه ومايـوجب رحمته وما يـوجب لعنته، فالهدايـة الأولى ـ إذن ـ وردت بمعنى الدلالـة للجميع، أى: أنها هداية عـامة. ثم هناك هـداية ثانية خاصـة للمؤمنين، وهى التى بيَّنها الله سبحـانه وتعالى فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أى: أعـانهم على منهجه؛ فيسَّر لهم الطـاعـة وصعَّب عليهم المعـاصى، فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطـاعه، فـالحق عـز وجل يشرح صدره بـذلك، ويحبب الطاعـة إليه؛ فيزداد طاعـة. وإذا شرع فى ارتكاب المعصية؛ بغَّضها لـه وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها.[(٢)]

وضربنا لـذلك مثـلا بالـرجل الذى يقـود سيارتـه ذاهبا لمكـان معين. وعند

(١) ومن هذه الهداية قول رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طـالب فى حديث طويل: «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم». أخرجه البخارى (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) فى صحيحيهما.
(٢) وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]

مفترق الطـرق وجـد رجلا من رجـال المرور ؛ فـدلـه على الطريق، هـذه دلالـة عامـة. وعندما يقدم الرجل الشكر لجندى المرور. فرجل المرور يُزيد من الإيضاح لـه: لاتتبع طريق؛ كـذا لأن فيهـا متاعب ومصـاعب، واتبع طـريق كذا وكـذا تصل فى سرعة ويسر، وهذه زيادة فى الدلالـة، أو زيادة فى الهداية. لكن إن قال سائق السيارة لنفسـه: إن هذا رجل مرور لايعرف شيئـاً ، وتجاهل شكره، فرجل المرور يتركه وشأنه.

إذن فالحق سبحـانه قـد هدى المؤمن والكـافر إلى طـريق الإيمان، فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه. ومن اتخذ طريق الكفـر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يعانى ويضل. ولـذلك لابد لنـا أن نتذكر دائما أن الهدايـة هدايتان؛ هـداية دلالة لكل الناس، وهداية معونة للمـؤمنين فقط، وفى الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠]

أما دلالة المعونة : فهى التى يقول فيها المولى عز وجل:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧]

وما يكشـف لنا أن الهداية عـامة، أن الحق سبحـانه وتعـالى حينما تكلم عن قوم ثمود وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحاً، قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧]

ولو كـانت الهداية هنـا بمعنى أنهم أصبحوا مهتـدين، وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها:

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧]

إذن ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فى هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وفى سورة الأنفال تصنيف آخر فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال]

وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع فى آية التوبة.

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفى هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، و﴿أَعْظَمُ﴾ صيغة أفعل التفضيل، وهى تعطى قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال: فلان أعلم من فلان. وبهذا يكون الشخص الثانى عالما، ولكن الشخص الأول أعلم منه. ويقال: فلان أكرم من فلان، أى أن الموصوف الثانى كريم، والموصوف الأول أكرم منه. والله

سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والفوز حكم يؤدى إلى أن تأخذ ماتحبه نفسك. فقال الحق موضحاً مايفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومادام هؤلاء هم الفائزون، فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين. فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لايتركك فيزول عنك، ولاتتركه لأنك فى الجنة خالد لاتموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى :

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

إذن فهـذا قمـة الفوز للقـوم الـذين يبشرهم الله فى هـذه الآيـة بالـرحمة منـه وبـالرضـوان المقيم. والبشارة ــ كما نعلم ـ هى نـوع من الإعلام بشىء سـوف يأتى مستقبلا ، أى ،أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشىء قادم يسره.

إذن ففـائدة البشارة أن تغـرى الإنسان بسلـوك السبيل الـذى يحققها، فأنـا أبشرك بـالنجـاح إن استقمت وذاكـرت واستمعت لـلأسـاتـذة ، ويشجعك كلامى لتجتهـد حتى تحقق هذه البشـارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الـوسيلة التى توصلك إليها.

ولـذلـك فقـد قلنـا : إن الأسبـاب والمسببـات والعلـة والمعلـول والشرط والجواب؛ كلهـا يجب أن تحرر بشكل آخر، لأننـا كنـا نتعلم أن الشرط سبب فى الجواب؛ كقولـك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلـك فالشرط هو المذاكـرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا، إن الجواب هو السبب فى الشرط لأنك لاتذاكر إلا إذا تمثل لك النجـاح بكل مايحققـه لك من فـرحة، إذن فـالشرط سبب فى وجـود الجواب واقعـا. والجواب سبب فى وجود الشرط دافعـا، أى أ: ن الـدافع لمذاكرتك هو مايمثلـه لك النجاح من قيمة مادية ومعنويـة. وكل إنسان يرغب فى النجـاح، لكن النجـاح لايتحقق بـالـدعـاء فقط، بل بـالمذاكـرة التى تحقق النجاح كـواقع. بمعنى أنك لاتذاكر إلا وقـد تمثل لك النجاح بمواهبه ومـزاياه وبمكـانتـه ويفرح أهلك بك، وبفـرحك بنفسك. ولهذا نقـول :إن السبب هـو الذى يوجد أولاً فى الذهن.

ومثال آخـر: لنفترض أنك تريد أن تسـافر إلى الطائف. فتكـون الطائف هى الغـاية، وتكـون أنت قـد خططت للوسيلـة وفى ذهنك الغـاية، إذن فـالجواب يوجـد دافعا، والشرط يـوجد واقعـاً. وقوله تعـالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلـون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التى يأمرهم

بها المنهج؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره[(١)] ، ولأن التشريع الإلهى تقييد لحرية الاختيار فى العبد، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى فى «افعل» و«لا تفعل». ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه فى كل حركاته، ويفعل مايشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به . فكأن الإيمان جاء ليقيد، ولكن إذا قارنا بين الجزاءين، نجد أن الذى يتبع شهواته فى الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة، وعمره فى الدنيا محدود، إذن فهو الخاسر ،لأن الذى قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا فى الدنيا ونعيما مقيما لايزول ولاينتهى فى الآخرة[(٢)] .والمثال الذى أضربه دائما هو الطالب الذى لايذهب إلى المدرسة ولايذاكر، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو ، وهو قد أعطى نفسه ماتريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاءبقية عمره.

أما الذى قيد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو.وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره.

إذن فكل من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لونًا من المتعة. ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت فى الدنيا؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و«لاتفعل»،

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) وقال : حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

(٢) وهذا فى مثل قوله تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل :٩٧]
أما الذى خرج عن منهج الله وأعرض عنه فقد قال عنه القرآن ﴿فمن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه : ١٢٤]

فظاهـر الأمر أنك قَيَّـدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك بـرضا، فـالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة فى النفس. ولـذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة فى ظاهـرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنهـا تعطى راحة نفسيـة ، كما أنها تعطى اقتناعا يفـوق التصور إن خشع فيها الإنسـان وأداها بحقهـا، وكان صلى الله عليـه وسلم يقول: «يـابلالُ أرِحْنَا بالصلاة».[1]

كما قال صلى الله عليـه وسلم ضمن حديث رواه عنـه أنس بن مالك رضى الله عنه «وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة».[2]

لأن التكليف ينتقل من المتعـة إلى الراحـة. ويتمتع الإنسـان فيها بتجليـات ربه وفيوضاته فترتاح نفسـه وتهدأ. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يبشرهم ربهم﴾، تجد البشارة هنا آتيـة من رب خالق. والرب هو المالـك ؛ والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة: ٢١]

والـرحمة والـرضوان مـن صفات الله وهى صفـات ذاتيـة فى الله، ومتعلقـات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١]

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ فى النعمة، فقـد بشرهـم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

(١) أخـرجـه الإمـام أحمد فى مسنـده (٥/ ٣٦٤) وأبـو داود فى سننـه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قـالـه أحمد واللفظ له.

(٢) حـديث أنس أخرجـه أحمد فى مسنـده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائى فى سننـه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركـه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجـاه ووافقه الـذهبى،وتمام الحديث «حبب إلَيَّ من الدنيا النساء والطيب...»

وهى ذاتية فيه، ثم بنعمة دائمة فى الحياة. ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دعاك إنسان فى بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لابد أن يكون التفاح فى الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين. فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهى تمثل الرحمة والرضوان. أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً فى التكريم.و المؤمنون حين يرتقون فى درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم الله»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمدلله»، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر فى الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة[1]؛ يباهى بعبادتهم وطاعتهم التى يلتزمون بها على أى حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية. ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل[2]» ؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية. فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد، فسوف يرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت؛ وأما الآخرون فيرونه لمحات ، ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قدر العمق الإيمانى للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٨٠١) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أبشروا .. هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يباهى بكم الملائكة . يقول : انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى » وقد أخرج نحوه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٦) ، قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لاتنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى. وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يحيا فى الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هى صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهى، وشاء الله ــ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدى فى الجنة. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٢٢﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لهم﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما تملك الإنسان فى هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لايتجاوز حدود أن يجلس ؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتى من ملك بإمكانه أن يحقق كل مايريده بيده. بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن فى الجنة ينال مايتمناه بمجرد أن يخطر الشىء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب فى شىء فى دنيانا، لابد أن تقوم به بنفسك ،أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك، حتى وإن كان ماتطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ،أو بقليل من السكر ،أو بكثير من السكر، لأن كلا منا فى الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله. ولكن المؤمن فى الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهى كما علمنا من قبل تقتضى القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاما، بل يخرج كل تلميذ قلمه . وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها والمنزلة التى وصل إليها [١].

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحيانا فى الدنيا حين يتفوق إنسان فى دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو مايحدث فى الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾
[الحجر]

أى :أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سينال من فيوضات الخير، التى عند الأعلى منزلة. عندما يأتى لزيارته وقد قالوا فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]

إن كل من علت منزلته فى الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنها مضيفة لمن يحبهم، إذن ففى الآخرة يفرح أهل الجنة

(١) عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأبها» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذى (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح ، وأبو داود فى سننه (١٤٦٤).

بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا.

وفى الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلابد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهى التى تعطيك نتاجها. ولست أنت الذى تنتزعه منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لاتعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق فى كل مكان وقد لاتجده. ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إنى لأصلى كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكى كما تزكون. ولكنى أبيت وليس فى قلبى غل لأحد. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال صلى الله عليه وسلم: «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا » [(١)]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال «رجال أحمد رجال الصحيح». وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تتبعه عبدالله بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق.

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والولى هو الذى يليك وينجز ماتحبه ، وتلجأ إليه فى كل أمر، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك .إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا: إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لا خلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق مايطلبه المخلوق ؛ لأنك إن أغضبت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ،وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولاترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك(١) . فإن شهدت زورا لصالح بشر. يعرف عنك هذا الذى شهدت زوراً فى حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدقة لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه» أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٥٤٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أرسلتها لمعاوية.

عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط فى نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل مايغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظا معه. وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣]

إذن فالذى يربط كل شىء هو الكفر أو الإيمان. وقد أعطانا صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المثل الخالد. فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا فى مكة، وكانت حياته فى مكة قبل إسلامه غاية فى الترف، وكان يرفل[١] فى الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادى الصعب ، لدرجة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رآه فى الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبى عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب - رضى الله عنه - أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش[٢] وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى:

(١) يرفل : يتبختر فى مشيته ويجرُّ ذيْله .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطَّق به فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/ ٢٩٥) إسناده حسن .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم فى الانتماء الإيمانى، والمجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذى يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه. فالإنسان مقهور فى أشياء ومخير فى أشياء.

ونعلم أن التكليف لايأتى فى الأمور التى نحن مقهورون عليها. وإنما يأتى فيما لنا فيه اختيار. فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن نختار بين البدائل فى إطار منهج الله تعالى، ولانخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون فى سبيل الله. واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتمال شديدين ؛ لأنهم وثقوا فى البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان ،والنعيم المقيم؛ خالدين فيه لايفارقهم ولايفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بيّن لنا الحق أسس الانتماء للدين، وجزاء هذا الانتماء، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ،فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا آباءكُمْ وإخوانكمْ أولياءَ إِنَ استحبُّوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ [التوبة : ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لايعلو عليه شىء، فإذا مِلْناَ عن الحق لنرضى أقارب ،أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل

أحدنا الإيمان خادما لكفار لايؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيْمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أى: طلب الحب ومثلها مثل «استخرج» أى: طلب إخراج الشيء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها : أجاب.

إذن فـ«استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الأِيْمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان،لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه ؛ وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨]

وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ ؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين نأتى إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبعى أن يبحث العقل عن الموجد، وخصوصا أن فى الكون أشياء ،لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض ،والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك.

كان من الطبعى ــ إذن ــ أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟. خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل :مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟. ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحمة منه ؛لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم. لماذا إذن لانصدق الرسول ، ونتبع المنهج الذى أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً ــ ولله المثل الأعلى ـ بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقى حيا، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ،وكل مايحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذى جاء به؟. وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذى أوجد هذا الكون؟.

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية ؛وضرورة عقلية أيضا، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك. وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذى يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ،أو فطرياً ،كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف. فالذى يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة، والذى يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة[1] ، والمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو .. يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى .أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذى يحتاج إلى تكلف، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئا فهو

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺعن البروالإثم ؟ فقال : «البِرُّحُسْن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٤/ ١٨٢) .

يأخـذ ما يـريـد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحـرف من يـدخل إلى غير حجرتـه ليأخـذ شيئـا من «دولاب» مـا، حتى ولو كـان «دولاب» الأب النـائم، لـذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقـامة لاتحتـاج إلى تكلف، ولكن الانحـراف هو الـذى يحتاج إلى تكلف، ولـذلك قال الله سبحـانه: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ ولم يقـل؛ «أحبوا»، لأن الحب أمر فطـرى، فالإنسان ـ مثـلا ـ يحب ابنه حبـا فطرياً عاطفيـاً، والحب العاطفى لايقنن. فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فـلانًا وسأكره فلانـاً ؛ لأن العاطفة لاتأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ،حتى وإن كان فاشلاً فى دراسته. لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كـان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكـذلك أنت تكره الـدواء المر بعـاطفتك، لكنك تحبـه بعقلك إن كان فيـه شفـاؤك، فتبحث عنه ، وتـدفع المال من أجله، وتحرص على أن تتنـاوله، وكلنـا نعلم أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قـال: «لا يـؤمن أحـدكم حتى أكـون عنده أحب إليه من نفسه»(١)

ووقف عند هذه سيـدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا رسول الله: أنـا أحبك عن مـالى وأحبك عن ولـدى، ولكـن كيف أحبك عن نفسى؟ فكـرر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قـائلا : «لايـؤمن أحـدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررهـا عليه الصـلاة والسلام ثلاثـا، فعلم عمر بن الخطـاب رضى الله عنه أن هـذا تكليـف. والتكليف لا يأتى إلا بـالحب العقلى الـذى يمكن أن يقنن. وقد يتسامى المؤمن فى الحب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً

(١) أخرجه البخـارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد بن لهيعـة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وعـاطفيـاً. ولكن الحب العقلى هـو منـاط التكليـف، أمـا الحب العـاطفى فـلا يكلف به. ولم يقنـن الحق سبحانه وتعـالى لانفعالات العـواطف، لأنه سبحـانه لايمنع العـواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعيـة، فأنت تحب من يسـدى إليك معـروفـاً، وهناك مـن تحبه دون أن تعـرف السبب. وهنـاك من تبغضـه دون أن يكون قد عاداك أو آذاك [1] ، وكل ذلك متروك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى أن يؤدى ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة: ٨]

أى :لا يـدفعكم كره قـوم على أن تخرجـوا عن طريق الحق وتظلمـوهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن فـالله سبحانـه وتعـالى لم ينـه عن الحب أو الكره ؛ ولكنـه نهانـا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنـا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صـورة حية لهذا ؛ فقد قتل أبو مريم الحنفى زيـد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر فى معـركة اليمامة، ثم دخل فى الإسلام؛ فكـان كلما مر أمـام سيدنـا عمر قـال له: إلـو وجهك بعيدا عنى ، فإنى لاأحبك. فقـال لـه أبـو مـريم الحنفى: أو عـدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى.

قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

والحق سبحـانـه وتعـالى حين قـال: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إنما يريد أن يلفتنـا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقـولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله، فـالولاء لله فوق كل حق ؛ حتى لو كـان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانـه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فـلا تجعل الخلق الفـرعى يطغى على الخلق الأصلى. ولـذلك يـذيل الحق هـذه

---

(١) عن أبى هـريرة أن رسـول الله ﷺ قـال : «الأرواح جنود مجنـدة ، فما تعـارف منها ائتلف ، ومـا تنـاكر منهـا اختلف » . أخـرجـه مسلم فى صحيحـه (٢٦٣٨) وأحمد فى مسنـده (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩) وأبـو داود (٤٨٣٤) .

الآيـة الكريمـــة بقـــوله: ﴿وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّـالِمُونَ﴾ لأنهم نقلـوا الحق من الله ســبحانه وتعــالى إلى الخـلق، ولأنهم ظلمـوا أنفسهم فحرمـوها مـن الجزاء فى الآخرة ليحققـوا نفعا عاجـلا فى الدنيـا. ولذلـك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٥٧]

لأن أحدا لايستطيع أن يظلم الله سبحانـه وتعالى ، والذى يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعـوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطـاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمـردين وجاءك الله بمرض؛ فهـل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟. وإذا جـاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمـرد على الموت وتبعـده عنك فـلا تموت؟. إذن: هنـاك أقـدار لاتستطيع التمـرد عليهـا ، وأنت متمرد ـ فقط ـ فيما لك فيه اختيار .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للمؤمنين. وقد جاء سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ثم الزواج، وهو وسيلة التكاثر، ثم الأهل والعشيرة ،ثم الأموال التى نملكها فعلاً ، ثم الأموال التى نريد أن نكسبها، ثم المساكن التى نرضى بها، وبعد ذلك ذكر التجارة التى تزيد من المال. وفرَّق الله سبحانه بين الأموال التى فى حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتى لنا بأموال فوق الأموال، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فائض من المال. ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أى مسألة من هذه الأشياء ، وهى زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى انتظروا حتى يأتيكم أمر الله، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ماعند الله تعالى من رضاء ونعيم.

ولهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التى اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ،وآبائهم وأبنائهم ،وإخوانهم وأزواجهم وعشائرهم ،التى تستطيع حمايتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركنوا للدنيا فبقوا بجوار أموالهم وأزواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت الواحدة من النساء المشركات تتعلق بقدمى زوجها المسلم الذى يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان قلبه يرقُّ لها ، ومنهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ،التى بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية [1] .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتماء الإيمانى ويدرب المؤمنين عليه. فقد كان المسلم لايتم إيمانه حتى يهاجر، ويصارم[2] أهله

(١) انظر تفسير القرطبى (٤ / ٣٠٢١) طبعة دار الغد ، وأسباب النزول للإمام السيوطى (ص ٩٢ ، ٩٣) .
(٢) يصارم أهله : يقاطعهم قطعاً بائناً .

وأقاربه ويقاطعهم، فشق ذلك عليهم. وقالوا: يارسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى ديننا قطعنا آباءنا وأبناءنا وأزواجنا وأقاربنا، وخفنا على أموالنا وتجارتنا من الفساد، وخفنا على مساكننا أن تخرب ، وبذلك نضيع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكأنها تأمرهم بأن كسب الإيمان أعلى من أى كسب آخر، فأنزل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة]

ولما نزلت هذه الآية الكريمة أخذها الصحابة مأخذ الجد وهاجروا ؛ وقاطعوا آباءهم وأبناءهم ، حتى إن الواحد منهم كان يلقى أباه أو ابنه فلا يكلمه و،لا يدخله بيته ،ولا ينزله فى منزله إن لقيه ، ولا ينفق عليه ، إلى أن نزلت الآية الكريمة:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٥]

أى :أن المعروف معهم يقتصر فقط فى المعاملة وفى الإنفاق على المحتاج . أما الطاعة لهم فيما يغضب الله فهى محرمة. وحاول بعض المستشرقين أن يطعن فى القرآن، فمنهم من قال : إن هناك تعارضاً بين آيات القرآن الكريم، فالآيتان اللتان ذكرناهما ؛ الأولى تطلب مقاطعة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر على الإيمان، والآية الثانية تطلب مصاحبتهم بالمعروف أو عدم القطيعة، وآية ثالثة تقول:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]

ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، وتود بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً فى إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفاً فى عدوك حين تجده فى مأزق، ولكنك لا تحبه ولا توده.

إذن : فالمنهى عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهيا عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن فى مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى فى النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعى فى الحياة، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف فى الدنيا، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر، لأن إيمانك بالله لابد أن يكون هو الأقوى. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ،و أن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».[1]

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب، والبعد عن الله سبب الكره. فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة. ففى معركة بدر كان سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما ابنه فلم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفار، فلما أسلم ابن أبى بكر وآمن؛ قال لأبيه: لقد رأيتك يوم بدر

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

فلويت وجهى عنك حتى لا أقتلك. فـرد سيدنا أبو بكر رضـى الله عنه: لو أنى رأيتُكَ لقتلتُكَ. وهذا منطقى مع الإيمان لأن الموازنـة النفسية اقتضت أن يقارن ابن أبى بكـر بين أبيـه وبين صنم يعبده ؛ فـرجحت كفـة أبيـه، ولكن أبا بكـر حين رأى ابنه قارن بين ربه وابنه فرجحت كفة ربه.

وإذا كان ذلك عن القـرابة ، وكيف يَجُبُّ الإيمان العـاطفة، فماذا عن المال؟ يتابع المولى سبحانـه وتعالى: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتَمُوُهَا﴾ أى: أخـذتموها بمشقة، وهى مأخوذة من «القـرف» وهى القشر، وأنت إن أردت إزالة القشر عن حبـة نبات ما، قـدتجد شيئا من المشقة ؛ لأن هنـاك التصاقا بين القشرة والحبـة، والحق هنا يقـول: ﴿وَأَمْـوالٌ اقْتَرَفْتُمُوُهَـا﴾ أى: أخـذتموهـا بجهد ومشقـة، وهـو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيـه صاحبه، وإنما ورثـه عن غيره، وفى هذه الحالـة قد يكون أمره هيناً على صاحبه. أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكدِّه[1] فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث. ويقـال :«فلان اقترف كذا»، أى: أنه قـام بجهد حتى حصل عليـه، ويقال: «اقترف الكـذب» و«اقترف السرقة»، بمعنى أنه قد بذل جهدًا ليكـذب، أو بذل جهدًا ليسرق، أى: قام بعملية فيها مجهود.

ثم يقول الحق سبحانه وتعـالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي القومَ الفَـاسِقِينَ﴾ وسبحانه هنا يـوضح لهم: انتظروا أمر الله الـذى سوف يأتى، لأنـه سبحـانه لا يهدى فـاسقـاً خـرج عن الإيمان، ولا يهدى من جعلـوا حبهم للعـلاقـات الدنيـويـة فـوق حب الله فخـرجـوا عن مشيئـة هدايـة الله تعـالى، فسبحانه لايهديهم كما لايهدى الظـالمين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم مـن قدموا الظلم والكفر والفسق، فكان ذلك سببا فى أن الله لم يـدخلهم فى مشيئة هداية المعونة على الإيمان، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم.

(١) الكدّ : الشدة والتعب فى تحصيل الشيء .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة الإيمانية فى نفوس المؤمنين، فيوضح لهم : إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه، وإياك أن تنظر إلى ولى آخر غير الله ؛ لأن ولاية البشر عرضة للتغير والتبدل، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين الأغيار، فالغنى فيها قد يصبح فقيرا، والسليم قد يصبح مريضاً، والقوى قد يصير ضعيفاً ، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لايتغير ،فإذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا ، والقاهر دائمًا ، والغالب دائمًا، والموجود دائماً ، والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار فى الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح ضعيفاً لايملك شيئا، والموجود يصبح لاوجود له بالموت ، إذن : فلابد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى : لأنه هو الدائم الباقى. ولهذا يعلّم المولى ـ عز وجل ـ عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً، فطناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨]

أى : لا تتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحى الموجود دائما ، العزيز الذى لا يقهر، القوى الذى لا يغلب. وينبه الحق سبحانه وتعالى المؤمنين: إن كنتم تخشون حين نعزلكم عن مجتمع الكفر لما فيه من عزوة كاذبة بالآباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال، فاعلموا أن الله هو الذى ينصر، وهو الولى، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون موالى من أغيار، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال: إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه نهاية الكمال، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة وكل شىء فى الدنيا يتغير، فلابد أن يتغير هو .ويقول القائل:

إذاَ تَمَّ شَىءٌ بَدَأ نقصُه ... ترقَّبْ زوالاً إذَا قِيل تَمّ

لأن كل شيء ابن أغيار لابد أن ينزل إلى أسفل، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفر؛ فأفقدهم بذلك قوة ونصيراً، فهم فى مَنَعة أكبر؛ لأنهم حينئذ يكونون مع الله، والله هو النصير، وليس هذا كلاماً نظرياً، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التى شهدتموها، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فى مَوَاطِنَ كثيرة ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده، والدليل على أن النصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والذين معه فى مواطن كثيرة، و ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه. وكل الناس مستوطنون فى الأرض، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذى هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن الناس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحيا فى حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه.

والله سبحانه هنا يقول: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فى مَوَاطِنَ كثيرة ﴾، وما دام الحديث عن النصر، يكون المعنى: إن الحق سبحانه قد نصركم فى مواطن الحرب أى مواقعها، مثل يوم بدر، ويوم الحديبية، ويوم بنى النضير، ويوم الأحزاب، ويوم مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه

فى هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ إذن: فكثرة عدد المؤمنين فى يوم حنين كان ظرفاً خاصًّا، أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا؛ ولم يختالوا بذلك، إذن: ففى يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب، وبذلك يكون يوم حنين له مزية، فهو يوم خاص بعد الحديث العام.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن فى بقية المواطن، وهذه دقة فى الأداء اللغوى تتطلب بحثاً لغوياً . فكلمة ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ هى ظرف مكان، و ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هى ظرف زمان، فكيف جاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول: هذا هو ما يسميه العرب « احتباك »؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر »؛ كل حدث لابد له من زمان ولابد له من مكان، فإذا قلت: أكلت، نقول: متى؟ فى الصبح، أو فى الظهر، أو فى العصر، أو فى العشاء ؟ وأين ؟ فى البيت، أو فى الفندق، أو فى المطعم، أو فى الشارع.

إذن: فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة؛ ظرفية مكان حدوث الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل. فإذا قلت: أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: أكلت فى البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصراً أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية.

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان فى الظرفية، ولكنهما يختلفان، فالمكان

ظرف ثابت لا يتغير. والزمان دائم التغير، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء. والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان فى الظرفية، ولكن الزمان ظرف متغير، أما المكان فهو ظرف ثابت.

وجاءت الآية هنا بالاثنين، فـ ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هو زمان ومكان لحدث عظيم، وأخذت الآية ظرف المكان فى ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ وظرف الزمان فى ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ فإذا قيل: لم يحضر ظرف الزمان والمكان فى كل واحدة، نقول: لا، لقد حضر ظرف المكان فى ناحية وظرف الزمان فى ناحية ثانية، وهذا يسمونه - كما قلنا - « احتباك ». وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثانى، وحذف من الثانى ما يدل عليه الأول، فكان المعنى: لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا. فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطن يوم حنين »، أى: جاء بالاثنين هنا. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك، وهذا يظهر واضحاً فى قوله تعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

[آل عمران: ١٣]

فما دامت الأخرى ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ تكون الأولى « مؤمنة »، ولكن حذفت «مؤمنة » لأن ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ تدل عليها، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله، فالفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان. وحذفت تقاتل فى سبيل الشيطان؛ لأن ﴿ تُقَاتِلُ فى سبيل الله ﴾ دلّت عليها. وذلك حتى لا يحدث تكرار. ونجد أن المؤمن الذى يستمع إلى كلام الله تعالى لابد أن يكون عنده عمق فهم، وأن يكون كله آذاناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية. إذن: فيكون ظرف الزمان موجوداً فى واحدة،

وظرف المكان موجوداً فى واحدة، وكلاهما يدل على الآخر. والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » (١).

فانطلق المسلمون - دون أن يستريحوا - إلى أرض بنى قريظة، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وخانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة كادت الشمس تغيب، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولابد أن نصلى العصر، وصلوا. وفرقة ثانية من الصحابة قالت: إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ولم يُصَلُّوا حتى وصلوا إلى هناك.

ونقول: إن الفريقين استخدما المنطق؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلى، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حدده رسول الله ﷺ؛ لم يُصَلِّ. وأقر رسول الله ﷺ الفريقين، واحترم اجتهادهما فى: ظرفية الزمان، وظرفية المكان. وفى هذا يروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يُرَدْ منا ذلك، فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

﴿ وَيَوْمَ حُنَينٍ إِذْ أعجبتْكُم كثرتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عنكُمْ شيئاً ﴾ والغنى هو عدم الحاجة إلى الغيرِ، وحنين (٢) هو موضع فى وادٍ بين مكة والطائف، تجمَّع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيِّع

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر .
(٢) حنين : اسم موضع بأوطاس ، عرف باسم رجل اسمه : حنين بن قانية بن مهلائيل من العماليق ، كما فى معجم البكرى .

قيمة هذا النصر. فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم فى هذه المعركة. واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم. ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين فى الجيش من مال، وبقر وإبل. وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال. وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة، ويستمر فى القتال بشجاعة وعنف؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده. وبذلك وضع كل العوامل التى تضمن له النصر. بينما المؤمنون عندما تبدأ المعركة سيقاتلون مدافعين عن دين الله ومنهجه.

واجتمع الكفار ونزلوا بواد اسمه « وادى أوطاس ». وكان فيهم رجل كبير السن ضرير. اسمه « دريد بنِّ الصِّمة ». وكان رئيساً لقبيلة « جشم ». فلما وصل إلى مكان المعركة سأل: بأى أرض نحن؟ فقالوا: نحن بوادى أوطاس.. فابتسم وقال: لا حزناً ضرس ولا سهلاً دهس، أى أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة، تتعب الذى يسير عليها، وليست أرضا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها، من « الحزن » فالحزن هو: الخشونة والغلظة، و«ضرس » هو: التعب أثناء السير، وأيضاً ليست أرضاً سهلة منبسطة رملية تغوص فيها الأقدام.

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء [١] الشاة، قال: أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر. فقالوا له: إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله، فقال: أما الأموال فلا بأس، وأما النساء والذرارى فهذا هو الأرعن - أى : لا يفهم فى الحرب - أرسلوه لى، فأحضروه له. فلما حضر قال: يا مالك ما حملك على هذا؟ قال: وماذا تريد؟ قال: ارجع بنسائك وذراريك إلى عُليًا دارك، فإن كان الأمر لك؛ لحقك من ورائك. وإن

(١) ثغاء الشاة : صوت الغنم والماعز وضجيجها.

كان الأمر عليك لم تفضح أهلك وذراريك. فقال له مالك: لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك. وأصر على رأيه. ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش فى الشِّعَاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم. فيتقدمون غير متنبهين للخطر، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان.

وعندما جاء جيش المسلمين لم يتنبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين. وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم، فخرج الكفار من كل مكان. وفاجأوا المسلمين بهجوم شديد، قال المتحدث: فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين فى الساعات الأولى للمعركة، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ فى ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ. وكان ممسكاً بالدابة التى يركبها رسول الله ﷺ. وسيدنا على بن أبى طالب وكان يحمل الراية. وسيدنا الفضل، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ. وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره. وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة [1].

وهنا نتساءل: لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين فى بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا: نحن كثرة لن نهزم من قلة، وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخزيهم ويُعْلى من قدر رسول الله ﷺ. ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث، قال للعباس - وكان العباس صاحب صوت عال: أذن فى الناس، فقال العباس بصوت عال: يا معشر الأنصار - يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة. فلما سمع الناس نداء العباس، قالوا: لبيك لبيك. وكان الذى يقول: « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال، وحمى القتال

(١) انظر: زاد المعاد فى هدى خير العباد (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

واشتدت الحرب وصار لها أوار[1] ، فضحك رسول الله ﷺ : الآن حمى الوطيس ، أى اشتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ البراء بن عازب ، فقد جاء فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه . أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رُمَاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : «أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب» [2] أى : أنه رسول الله ، والله لن يتخلى عنه ولن يخذله ، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوازن وثقيف ، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من النساء ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والغنم والحمير . وأحضر رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء وقال له : أنت أمير على هذا المغنم . اذهب به وأنا سأتتبع الهاربين .

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين . واختبأ مالك بن عوف قائد العدو . ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم ، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم ، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين ، بين سبايا هى أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه ﷺ فى رأيه ﷺ يستغنون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوى ، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة ، وتأثر هذا البعض بذلك .

(١) الأوار : الدخان واللهب .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى (٤٣١٧) ، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومى وما أنا . قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الناس فى تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال : يا معشر الأنصار ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم وجدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل . قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم ، أتيتنا مكَذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك (١)

أى : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم، وهى أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة.

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧٦) عن أبى سعيد الخدرى من طريق ابن إسحاق . وقد أورده ابن هشام فى سيرة النبى (٤/ ١٤٦).

فضائل ، وهى أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة ، وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمَّنه الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار.

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مفاخرهم. قالوا: المنة لله ولرسوله، أى : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبداً؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاهم. فالإيمان نَفْعُه نَفْع أبدى. والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾

[الحجرات: ١٧]

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام:

« أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة (١) من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعْب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». فلماَ سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسماً وحظاً. وانتهت المسألة.

(١) لعاعة من الدنيا : أى بقية يسيرة . وهذا الحديث هو بقية الحديث السابق، وقد سبق تخريجه.

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيئين ، لابد أن نتفاخر بالشىء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه، أما الشىء الذى مآله إلى فناء فإنَّ من ليس معه يعيش كمن عاش معه، وهو متاع الدنيا، تعيش معه وتعيش بدونه. ولكن لاأحد يستغنى عن الإيمان ، نستغنى عن الدنيا نعم، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا. وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم، جاء وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا . فقالوا : يا رسول الله إنَّا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منَّ الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بل تردُّ علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا ، قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس : يابنى سليم وهنتمونى . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم [١] . . ذلك هو ما يشير إليه قول الحق، تبارك وتعالى :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢١٨) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٦٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص من طريق محمد بن إسحاق، وأورده ابن هشام فى السيرة (٤/ ١٣٥). وانظر: تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٢٨) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾

[التوبة]

أى : أنكم بدأتم المعركة ولم يكن الله فى حسبانكم، بل كنتم معتمدين على كثرتكم فلم تنفعكم ولم تحقق لكم النصر ؛ ولذلك فررتم خوفاً من الهزيمة ووجدتم الأرض ضيقة أمامكم، أى : تبحثون هنا وهناك عن مكان تختبئون فيه فلا تجدون، مع أن الأرض رحبة أى واسعة، ولكنها أصبحت ضيقة فى نظركم وأنتم تفرون من المعركة. إلا أن الحق سبحانه وتعالى لم يرد أن ينهى المعركة هذا الإنهاء. ولكنه أراد فقط أن ينزع من قلوب المسلمين المباهاة بكثرة العدد وظنهم أن اللجوء إلى الأسباب الدنيوية هو الذى سيحقق لهم النصر. أراد منهم سبحانه وتعالى أن يعلموا جيداً أنهم إنما ينتصرون بالله عز وجل، وأن كثرتهم دون الاعتماد عليه سبحانه لا تحقق لهم شيئاً.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦) ﴾

أى : أن الله تبارك وتعالى أنزل سكينته أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فروا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى، وقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

[التوبة : ٢٦]

وقد حدَّثونا عن أن الملائكة نزلت وثبَّتت المؤمنين، وألقت الرعب فى قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم. والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم وصفوا كائنات على جياد بُلْق [1] ولم يكن عندهم مثلها.

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم [2]، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن، وأن يثق فى القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية. وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لأن وجود الشىء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده.

وهناك أشياء كثيرة فى الكون، موجودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود. وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة. وكل الاكتشافات التى قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة. ولكننا لم نكن ندرك كيفية وجودها من قبل. فالجاذبية الأرضية كانت موجودة. لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها، وكذلك الكهرباء كانت موجودة فى الكون منذ بداية الخلق، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها، والميكروبات كانت موجودة فى الكون تؤدى مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود، فكل هذه الأشياء كانت موجودة فى كون الله منذ خلق الله الكون. ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً؛ ولذلك إذا حُدِّثت بشىء لايستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين

(١) البَلَق: سواد وبياض. والجياد البلق: هى السوداء التى ارتفع البياض إلى أفخاذها.

(٢) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/٣٠٢٨): ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، يقوّون المؤمنين بما يلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعفون الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر. وروى أن رجلاً من بنى نصر قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق، والرجال الذين كانوا عليها بيض، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم، أخبروا النبى ﷺ بذلك فقال: تلك الملائكة.

مادية محددة. إذن: فوجود الشيء يختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أنزلَ الله سكينَتَهُ علَى رَسُوله وَعلى المؤمنينَ وأنزلَ جُنُوداً لَمْ تروْهَا ﴾ كلمة ﴿ لَمْ تَروْهَا ﴾ تعطى العذر لكل من لم ير، ويكفى أن الله قال ليكون هذا حقيقة واقعة. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

وحين كان يقال لنا: إنّ لله خلقاً هم الجن، كما أن له خلقاً آخرين هم الملائكة، والجن يروننا ونحن لا نراهم. كان البعض يقف موقف الاستنكار. وكذلك قال لنا رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يَجْرِى من ابن آدم مَجْرى الدم»(١).

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون: كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم؟! وعندما تقدمنا فى العلم التجريبى واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم فى العروق، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم؟ طبعاً لا، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا نحس به، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد. ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لاندرى عنه شيئاً، ويدخل إلى الدم ويجرى فى العروق ونحن لا نحس بشىءمن ذلك، والدم يجرى فى عروق يحكمها قانون هو: أن مربع نصف القطر يوزع على الكل، ومثال ذلك مايحدث فى توزيع المياه، فنحن نأتى بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمانى بوصات وندخلها إلى قرية، تكون كمية الصب هى ٨ × ٨.. أى ٦٤ بوصة

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٣٥ ومواضع أخرى)، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حُيىٍّ زوج النبى ﷺ.

مربعة، حينما نأتى لنوزعها على مواسير أخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة ، المهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة.

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجرى فى شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة. . ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم ، وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التى نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم. وهناك جراحات تجرى بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات؛ لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أى شعيرة ولا تُسيل أى دماء.

إذن : فكل ما فى داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحس به، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب فى الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث.

فإذا كان «الميكروب» وهو من مادتك، أى : شيء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً مخيفاً ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة، إذا كان هذا «الميكروب» لا تحس به وهو فى داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذى هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسدك؟ لا ، وإذا كان الشيء المادى قد دخل جسدك ولم تحس به، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجرى من ابن آدم مجرى الدم؟!

فإذا قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم». . فلا تتعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به. فالله أعطاك فى عالم الماديات ما هو

أكثر كثافة فى الخلق ويدخل فى جسدك ولا تحس به.

إذن : فالعلم أثبت لنا أن هناك موجودات لا نراها. ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية فى جسم الإنسان فإننا سنرى العجب، سنرى فى جلد الإنسان الذى نحسبه أملسَ آباراً يخرج منها العرق، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين، فإذا حدَّثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال: ﴿جُنُوداً لَمْ تروْهَا﴾ ، فإن قال واحد: إنَّه رآها، وقال آخر: لم أرَ شيئاً ، نقول: إن قول الحق ﴿ لَمْ تَروْها﴾ أى: لم تروْها مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يرها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وعذَّبَ الذينَ كَفَرُوا﴾ أى: بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿وذلكَ جزاءُ الكَافرينَ﴾ أى: أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاءً لهم على كفرهم. ولكن البعض يتساءل: لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة فى القتال؟ نقول: إن الله أراد أن يزيد عذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة من أول لحظة، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتى الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة ، والشاعر يقول :

كَما أدركَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ

فلمَّا رأوْهَا أقشعتْ [1] وتجلَّت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش، هم يحلمون أن تمطر عليهم، لكن الحلم يتبدد تماماً كالمسجون الذى يعانى من عطش شديد. فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان: سأحضرها لك. وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده

(١) أقشعت : انقشعت وذهبت عن وجه السماء .

ونفسه تمتلئ فرحاً . وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض، فيصاب المسجون بصدمة شديدة. وهذه أبشع طرق التعذيب. ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلاماً للسجين. لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه فى يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذاباً. وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شيء، وبذلك تجتمع لهم فجيعتان : فجيعة الإيجاب ، وفجيعة السلب.

ثم تأتى لمحة الرحمة التى يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله، ويفتح الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله، ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ ﴾

وهذه هى عظمة الخالق، الرحمن الرحيم، فهو يفتح الباب دائماً لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون، وكل مَن عصى يفتح الله أمامه باب التوبة، وهذه مسألة منطقية ؛ لأن الذى يكفر والذى يعصى لا يضر الله شيئاً، ولكنه يؤذى نفسه ويحاول أن يفترى على نواميس الحق، وحين يعلم العاصى أنه لا ملجأ له إلا الله، فالله عز وجل يفتح له باب التوبة.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا فى هذه السورة أن الله ورسوله برىء من المشركين، وكشف عن طبيعتهم بأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ويصفى هذه المسائل تصفية عقدية فى ﴿ بَرَاءَةٌ منَ الله ورسُوله ﴾ ، وطلب منا أن ننهى العقود التى بيننا وبينهم. . فمن نقضَ العهد انتهى عَهده ، ومن حافظ عليه حافظنا نحن على العهد إلى مدته ، ثم طلب من المشركين ألا يقربوا المسجد الحرام، وصفَّى أى ضغينة أو ذنب بفتح باب التوبة. ومن بعد ذلك ينتقل

سبحانه من المعاهدة التى انتهت مع ذوات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

أى : أنه لا يكفى أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين، بل لا بد أن يبرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم؛ لأنهم نجس، والنجس هو الشيء المستقذر الذى تعافه النفس وتنفر منه، وقد يكون المشرك من هؤلاء مقبولاً من ناحية الشكل والملبس، ولكن هذا هو القالب، والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم إنما يتكلم عن المعانى وعن الخلق. فالله عز وجل لا ينظر إلى القوالب، بل إلى القلوب، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[(١)] .

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً، لكن العقيدة التى توجد فى قلوب تلك الأجساد قذرة ونجسة، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور، بل بالقيم. وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقة الصادقة، تجد كل عقيدة تنبئ عن تكوين مادتها، وعلى سبيل المثال، حينما تكون فرحاً، يتضح ذلك على

(١) يعنى : أن العبرة يوم الحساب بالنظر إلى قلوبكم لا إلى مظاهركم ، وفيه حث على الاعتناء بالقلب وتطهيره ، والحديث رواه الإمام مسلم (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم .

أساريرك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج ، وإن كنت غاضباً أو تعانى من ضيق ، فهذا يتضح على أساريرك .

إذن : فالمادة تنفعل بانفعال القيم ، وما دامت القيم فاسدة فالمادة التى يتكون منها جسده تكون متمردة على صاحبها ؛ لأن المادة بطبيعتها عابدة مسبحة لله ، وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبحة لله تعالى ، ولا ينشأ الفساد إلا بعد أن توضع الروح فى المادة ، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً ، المادة والروح ، فإن غلَّبت النفس منهج الله صارت مطمئنة ، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة والمعصية ، فإما أن تطيع فتكون نفساً لوامة ، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر فتكون نفساً أمارة بالسوء . أما قبل أن تنفخ الروح فى المادة ، فكل منها مسبح لله تعالى ؛ لأن كل شىء فى الوجود عابد مسبح ، والنفس فى كل سلوكها مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل ، وحين يأتى الموت ، تنتهى الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده ، بل إن هذا الجسد يشهد على صاحبه يوم القيامة . والإنسان فى الحياة الدنيا يعيش وإرادته تسيطر على مادته بأمر من الله ، فاليد قد تضرب إنساناً ، وقد تعين إنساناً آخر وقع فى عسرة ، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة أخرى .

إذن : فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها فى دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة ، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها فى المعصية ، وتتمرد عليه ، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها فى المعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتنى فى الدنيا وأكرهتنى على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لأننى عابدة مسبحة لله، وإن ما أمرتنى به يخرج عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذى يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجنود، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكوا له مما كان قائد الكتيبة يكرههم عليه، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة. فإن كنت عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك. وإن كنت غير ذلك كانت جوارحك ضدك، فاللسان مثلاً عابد مسبح فى ذاته، فإذا أكرهته على أن يشرك بالله فهو مُكْرَهٌ فى الدنيا، ويصير شاهداً عليك يوم القيامة.
والحق سبحانه وتعالى ينادى يومئذ قائلاً :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق عز وجل: ﴿ إنما المشْركُونَ نَجَسٌ﴾ أى : أن عقيدتهم الفاسدة تنضح على تصرفاتهم، وسبحانه وتعالى يربب المعانى الإيمانية فى النفوس أى يزيدها، ومثال ذلك: نحن نرجم إبليس كمنسك من مناسك الحج، نرجم قطعة من الحجر رمزنا إليها بالشيطان، ونحن لا نرى الشيطان، وقد وضعنا له رمزاً وأرسينا فى أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لنبتعد عن مراداته، وبذلك أبرزنا هذه المعانى فى أمر حسى؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لنا، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن نبين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصعة فيهرب منا. وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يضحك على العاصين والكافرين فى يوم القيامة، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[إبراهيم: ٢٢]

وفى هذا القول سخرية ممن صدقوه ؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شىء بالقوة، وإما سلطان الإقناع

بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً. والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فإنه يوضح لنا أن نجسهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التى لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر. وجعل الحق سبحانه وتعالى النجاسة المعنوية مثلها مثل النجاسة المادية، ولذلك قال العلماء: ما دام الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلابد أن يكون فيهم نجس مادى، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة ، لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة. وعندما ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا، لم نجد فى البيوت حمامات ؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً ، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن، ولكن بعد أن تحررت الجزائر صار فى البيوت حمامات ؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة ، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر، وكلما كان جنباً اغتسل.

ولقد قال البعض: لو أننى سلَّمت على مشرك ويده رطبة.. فلابد أن أغسل يدى[(١)] . فإذا كانت يده جافة فيكفى أن أمسح على يدى. وفى هذا احتياط وتأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين. وإذا كنا نجتنبهم أجساداً وقوالب، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً ؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة فى العام التاسع من الهجرة وهو العام الذى صدر فيه منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين، وتساءل العلماء: هل الممنوع والمحرم هو اقتراب المشرك

(١) قال الحسن البصرى : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣٠) ، قال ابن كثير (٢/ ٣٤٦) : «دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح «المؤمن لا ينجس» . وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . . رواه ابن جرير » .

من المسجد الحرام، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعى التحريم على المشركين بالوجود فى المسجد الحرام. ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعى نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ ولم يقل: فلا يدخلوا. وتحريم الاقتراب يعنى ألا يكونوا قريبين منه، وأقرب شىء للمسجد الحرام هو كل الحرم، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمنع الحق دخولهم إليه بالنص على ذلك(١).

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث فى المعانى ليستخرج المضمون الحق. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. وفى هذا القول الكريم حديث عن الغيب. والغيب - كما عرفنا - هو مايغيب عنك وعن غيرك، أما الشىء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً، فإذا سرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذى سرق، والسارق فى هذه الحالة غيب عنك، ولكنه ليس غيباً عن غيرك؛ فالسارق يعرف نفسه؛ والذى دبر له الجريمة يعرفه، ومن رآه وستر عليه يعرفه. وأنت - أيضاً - لا تعرف مكان المسروقات، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبأها فيه.

إذن: فهى غيب عنك وليست غيباً عن غيرك. وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يُسخِّرون الجن، فما دام الشىء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس؛ فالكشف عنه مسألة سهلة، ولكنّ هناك غيباً عنك وعن غيرك، وهذا هو ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧)﴾ [الجن]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣١): «قال الشافعى رحمه الله: الآية عامة فى سائر المشركين، خاصة فى المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد. قال ابن العربى: وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل ﴿إنما المشركون نَجَس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة».

ولكنْ هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان، فمثلاً الكهرباء كانت غيباً واكتشفناها ، وتفتيت الذرة كان غيباً وعرفناه، وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت فى علم الإنسان فأصبحت معلومة له وليس هذا هو الغيب الذى يقصده الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾، فهذا غيب يختص نفسه به، فلا تقل: إن فلاناً يعلم الغيب، ولكن قل: إنه مُعلِّم غيب، والمسائل الغيبية: إما أن يحجبها الزمان أو يحجبها المكان، فالآثار المطمورة مثلاً، تعبِّر عن شيء ماض واندثر، وفيه أخبار الأمم السابقة، ولا يعرفها أحد ، وستره حجاب الزمن الماضى، إلى أن يتم الكشف عنها ويهيِّئ الله لها من يفكُّ ألغازها.

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء فى القرآن الكريم فهو اختراق لحجاب الزمن الماضى ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ﴿٤٥﴾﴾ [القصص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ فى آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ بما كان مستوراً فى الزمن الماضى. أما الشيء الذى سوف يحدث فى المستقبل، فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل، وقد اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل فى آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين، وحرف السين دليل على أن الشيء لم يحدث بعدُ، وقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]

دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة فى الأرض، وقوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ ﴾ [الروم]

وهذا اختراق لحجاب المستقبل ؛ لأن النصر حدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات. إذن : فالذى يحدث فى المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل، ولكن هناك شيئاً يحدث فى الحاضر ولا نعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان، فما يحدث فى مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه، فأنت إن كنت جالساً فى مكة مثلاً ، فأنت لا تعرف ما يحدث فى المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان ، وهناك أيضاً حجاب النفس، أى : أن مايدور فى نفسك لا يعرفه أحد غيرك ؛ لأنه محجوب بحجاب النفس.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إنما المشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهِمْ هَذَا﴾ فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن ينفذوا هذا الأمر ، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التى تستقبل النص. مثلما يأتى إنسان ويخبرك أن المخبز القريب من منزلك سوف يغلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال: ومن أين سنأتى بالخبز؟ أو أن يقال لك : «إن الباخرة التى تحمل اللحم والخضروات ضلت الطريق» فأول ما يخطر على بالك لحظتها : ومن أين نأكل؟

وكان المشركون يأتون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتاجرون وينفقون، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بيت الله الحرام فترة الرواج المادى الذى يعيشون عليه طوال العام.

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿ إنما المشْركُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهِمْ هَذَا﴾ فأى شيء يختلج فى نفوس المسلمين؟ لابد أن يدور فى أعماقهم السؤال: ومن الذى سيشترى بضائعنا؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى: ﴿ وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ منْ فضله إنْ شَاءَ﴾ .

وهكذا كشف الله حجاب النفس، وردَّ على ما سيدور فى نفوس المؤمنين فى نفس الآية التى حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام، ولم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يعلن المؤمنون ما فى أنفسهم، بل رد على ما يجول بخواطرهم قبل أن يعلنوه.

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل، فالمؤمن الذكى يقول: هذا ما جاء فى بالى. ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسى فسوف يرزقنى. ولو لم يأت ذلك فى بالهم لكَذَّبوا النص. ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان، وما داموا قد بَقَوْا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم تماماً.

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ⟨٨⟩ ﴾ [المجادلة]

وقول النفس لا يسمعه أحد، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا فى أنفسهم لقالوا: والله ما خطر ذلك فى نفوسنا. ولأنهم قالوه فى أنفسهم فقد بُهتُوا لكشف القرآن الكريم لما يدور داخل أنفسهم. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة على ما سيدور فى خواطر المؤمنين عندما يستمعون إليها ، فلم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله ﷺ خوفهم الفقر وقلة الرزق، بل أجاب سبحانه وتعالى على ذلك قبل أن يخطر على بالهم.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة هى الفقر، ويتابع الحق جل وعلا: ﴿ فَسَوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فَضْله إن شَاءَ﴾، ولم يقل الحق «سيغنيكم» بل قال: ﴿فَسوْفَ﴾ وهى تقتضى زَمَناً سيمر ولكنه زمن قريب؛ لأن الخير الذى سيأتى له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه كأن يعوضهم الله عما كان يأتى به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فينبت النبات، وهذه تحتاج إلى زمن، وأن يأخذوا بالأسباب بأن يروج لهم تجارة على غير المشركين، أويكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم. ولذلك قال: ﴿فَسوْفَ﴾. والأسباب تحتاج إلى وقت، فنزلت الأمطار قرب جدة التى أسلمت ونبت الزرع فى وادى خليط، وتبالى باليمن وجرش وصنعاء، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية، فجاء الخير من الجزية والخراج. وهكذا نرى أن ﴿فَسوْفَ﴾ امتدت لمراحل كثيرة، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن.

إذن: فقد أخذت الأمد الطويل. على أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً﴾ هى حيثية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون فى أمر دينه رغبة فى تحقيق أَمر من أمور الدنيا، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن تضيع منه فائدة مادية أو دنيوية، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يضيع منه منصبه، أو يغضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته، نقول له: لا عذر لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ مِن فضله ﴾.

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو كلام الله عز وجل، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رزقه، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده.

على أن قوله تعالى: ﴿إن شَاءَ﴾ قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سوف يباعد بينه وبين الرزق ؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغْنيكم اللهُ من فضلِه﴾

فإننا نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصلة الدائمة بعبده وألا يفسد على العبد الرجاء الدائم فى الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿إن شَاءَ﴾ هو إبقاء لهذا الرجاء ؛ لأن العبد سيظل فى رجاء إلى الله عز وجل فيظل الله تعالى فى باله؛ ولأنه سيطلب دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يبتعد عن المعصية ويتمسك بالطاعة.

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة فى كونه ، فقدر الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى تقيد مشيئته سبحانه ، فمشيئة الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله. فهو إن شاء حدث القدر. وإن شاء لم يحدث. وهكذا تظل طلاقة قدرة الله فى كونه.

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب، فيخبر الواحد منهم الناس، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه؛ حتى يظل الله وحده عالم الغيب؛ فما دام ذلك الذى اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه. فسبحانه يُغيِّر أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أى غيب آخر.

إذن فكلمة: ﴿إن شَاءَ﴾ هى إثبات لطلاقة قدرة الله فى كونه، فإن شاء أعطاكم، وإن شاء لم يُعْطِكم، فالإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ، فقد يفترى البعض بالنعمة فيحجِبها الحق عنهم، وهذا ما حدث فى كثير من البلاد

التى طغت وكفرت بنعمة الله عليها ؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون ضوابط لاستشرى فى تلك البلاد الفساد والمعاصى، إذن : فالمشيئة تقتضى إعطاءً، أو منعاً، والإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأغيار القُلَّب؛ منهم من تأتيه النعمة فتطغيه، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

أى : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عدّ هذا كرماً من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رضا من الله .

ويرد الله تبارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول: ﴿كَلاَّ﴾ أى لا المال دليل على الإكرام، ولا قلة المال دليل على الإهانة.

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر]

إذن : فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهى نعمة وليست نقمة. ولذلك قال تبارك وتعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

قد يمنع عنك المال الذى إن وصل إليك غرَّك فتحسب أنك فى غنى عن الله تعالى وتطغى ، وهذا المنع نعمة وليس نقمة، إذن فقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لطلاقة القدرة فى الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادَة وحدَها ولا بالمال وحده، ولكن بالقيم أيضاً، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن منهج الله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ يعنى: أنه سبحانه إن شاء أعطى،

وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة، فى حدود حكمة الله عز وجل، فلا تقل حين يمنع : إنه لم يحقق قوله: ﴿فَسوْفَ يُغْنيكُمُ اللهُ من فَضْله﴾ لأن الإغناء كما يكون بالمادة، يكون أيضاً إغناء بالقيم. ويؤكد هذا قَوْلَه سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ اللهَ عليمٌ حَكيمٌ ﴾ أى: عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه والمنع فى موضعه.

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة، هم المشركون وأحوالهم، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان (١) .

وعرفنا من قبل السبب، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم غيرهم. . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : «لا يترك بجزيرة العرب دينان» . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٥) : «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع».

وهو رسول من أنفسهم، فهم يعرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التى جاء بها ﷺ من جنس فصاحتهم، فإذا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرآن لم ينزل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركى مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد فى هذه السورة موقف الإيمان من المشركين به، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوى، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فنجد أن النبى ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غُلبتْ الروم فى أدنى الأرض[1]. لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيَقفون أيضاً ضده ؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحى إليهم وأن له كتباً منزلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين، فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر. صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين فى موقف العداء

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان، فذكر ذلك المسلمون لأبى بكر رضى الله عنه فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لك كذا وكذا وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال : ألا جعلته ـ أراه قال : دون العشرة ـ قال : فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى ﴿ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال : فغلبت الروم ثم غلبَتْ بَعْدُ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان : وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٣) وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٠) من حديث ابن عباس وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُسَرِّى الحق عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم]

وهنا يبرز سؤال يقول: متى سيغلبون؟ تأتى الإجابة من الحق تبارك وتعالى:

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]

والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتى بعد بضع سنين. وبالله قولوا لى: كيف يتحكم نبى أمى فى جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبى أن يأتى بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر فى الكتاب الذى يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة؟ لقد قالها بثقة فى حدوث ما جاء فى القرآن فى المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول.

وإلا، فماذا كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة فى أن القائل هو الحق سبحانه الذى شاء أن ينزل بالخبر فى آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ، ويُصَلَّى بها فى كل وَقت إلى أن تقوم الساعة. وينزلها سبحانه على محمد ﷺ وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أم لا؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن فى حسبان محمد ﷺ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول.

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى . . ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشِّر بالولد:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

أى: ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث.

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب ؛ ولأن لهم صلة بالسماء، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء، ويتسمع أخبار المؤمنين فى القمة العقدية. ومن العجيب أن هذه الآية تصدق فى الروم وفارس ، فينتصر الروم على الفرس، وتصدق فى محمد ﷺ وأصحابه، فينتصر رسول الله وأصحابه فى بدر . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ..! ﴿٥﴾﴾ [الروم]

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان. والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذى يعطى الله جلال

الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزير، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عمَّا لا يليق بها، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لايتفق مع مرادات الله تعالى؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم فى الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحى. ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلابد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونتساءل: ما هو النعيم الروحى؟ هل النعيم الروحى هو خواطر فى النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحى ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا الله عز وجل بشىء لا نعلمه؟ إذن: فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم فى الجنة، وقال: إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

إذن: فالله عز وجل يعطى مثلاً فقط. ومعلوم أن اللفظ فى اللغة لابد أن يوضع لمعنى معروف. ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لابد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[١]

إذن : فلا توجد فى اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الجَنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التى تكون فى المَثل. فمثلاً الخمر فى الدنيا فيها خصلتان؛ الأولى أنها تغتال العقول [٢] والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذى يشرب الخمر لايشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذى يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس فى فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعى الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر فى الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسى من موقع قدمى » هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر فى الجنة لا غَوْل فيها . . أى : لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥]

أى: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التى حرمها الله فى الدنيا. وتتجلى الحكمة فى معنى الاستطعام فى قول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تتجافَى جُنُوبهم عن المضَاجع يَدعُونَ ربَّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقْنَاهُمْ ينفقُون . فَلا تعلَمُ نفسٌ مَا أُخفى لهُمْ من قُرَّة أعين جَزَاءً بما كانُوا يعملُونَ ﴾ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وَهب عنَ أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

(٢) تغتال العقول : تسكرها وتذهب بها .

مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى فى النار »[1] .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام. فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب فى الله ويكره فى الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التى تستبقى إيمانه؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى تصوير الجنة المثل لما فى الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما فى الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾
[السجدة]

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهى لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهى لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود فى الدنيا ولكن ليس هو [2] ،أما أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) . ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٨٤) : ﴿من قَبْلُ﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به فى الدنيا والثانى : هذا الذى رزقنا فى الدنيا ، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل ﴿ من قَبْلُ﴾ يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها فى آخر النهار، قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول.
وقال ابن عباس : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء ، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أى سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلكَ فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]

أى: ليس فيه كل الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة:

﴿وَأَنهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: ١٥]

وكلمة ﴿ لَمْ يتغيَّرْ طَعْمُه ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربى كان يحلب الجمال ويضع ألبانها فى الأوانى، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وأنهارٌ من لَّبَن لَّم يتغيَّرْ طَعْمُه﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من كل الشوائبِ التىِ تفسد طعم اللبن فى الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَاتلُوا الذينَ لا يُؤمنُونَ بالله ﴾ أى الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه. واليهوَد يؤمنون إيماناَ إجمالياً بالله، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه فى قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمد يده لبنى إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ فى التصور. وكذلك كان خطؤهم فى تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثلَ هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ولا يُحرِّمون ما حَرَّمَ اللهُ ورسولهُ ﴾

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا فى دينهم فأحلوا ما حرم الله. ولذلك يقول سبحانه: ﴿ ولا يَدينون دين الحقِّ ﴾

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير. وإذا نظرنا إلى كل رسول فى عصره؛ نجده قد جاء بالحق، وإذا جاء رسول من بعده فهو لاينسخ العقائد، ولكنه ينسخ فى الأحكام، وهكذا نعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التى تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ، فكان النبى الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولابد أن يكون الحق الذى جاء به هو الحق الثابت الذى لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن فقوله: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ أى: أنهم لايؤمنون حتى بما جاء فى كُتبهم من بشارة به ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله و أنه مرسل إليهم، وسَنَّ رسول الله ﷺ فى معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً إن وجدناهم، أو أن يسلموا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلموا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أى: حتى يؤدوا ما فُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية، وفى هذاً صون لدمائهم، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم ، وهناك نعمة ثانية وهى أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذى يرونه، وفى ذلك رد على من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف، ونقول: إن البلاد التى فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية الاختيار، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً. لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف. ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا فى البلاد التى فتحها أناساً باقين على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب. وأخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان الجزاء هو الجزية. وهى مادة «جزى» و«يجزى». فكأن الجزية فعلة من «جزى» «يجزى» ؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه ، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون فى مجتمع إيمانى؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم فى أنفسهم وأهلهم وفى أموالهم وفى كل شىء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون فى المجتمع الإسلامى ينتفعون ـ أيضاً ـ بالخدمات التى يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً فى حرب ضد أى عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن: فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هى مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على

حياتهم وإبقاء على دينهم الذى اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية ﴿عَنْ يَد﴾ واليد هى الجارحة التى تُؤدَّى بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليَد ، ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام، والحق تبارك وتعالى يجازى على القول الطيب أو السيىء، ولكن الأصل فى العمل هو « اليد »، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التى تعمل، أو يراد بها النعمة، مثل قولنا: فلان له يد على فلان، وفلان له أياد بيضاء على الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حتَّى يُعْطوا الجزْيَةَ عَنْ يَد ﴾.

فهل المقصود بـ ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى من يُعْطُونَ الجزية، أم أيدى الآخرين الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول: ﴿ عَنْ يد ﴾ مثلما يقال: فلان نفض يده من هذا الأمر، أى خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى غير رد للنعمة . وعن يد منهم أى من المعطين للجزية، أو ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى: يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب فى الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام فى مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية، لا، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده. [1] أو نقول: ﴿ عَنْ يَد ﴾ من معنى القدرة، فمن عنده قدرة، فنأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز [2] .

إذن: يشترط فى اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول: أن

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَد﴾ قال ابن عباس: يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً. وقيل ﴿عَنْ يَد﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. قال عكرمة: يدفعها وهو قائم والآخذ جالس، وقاله سعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبى (٤ / ٤٢ .٣).

(٢) عن عروة بن الزبير قال: مَرَّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط (فلاحو العجم) بالشام. قد أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا فى الجزية. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١٣) وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٠٤) وأبو داود فى سننه (٣٠٤٥).

يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا، والملحظ الثانى: أن يأتى بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتى بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صَغار؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافضين الأيدى، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية (١).

﴿ حتَّى يُعطُوا الجزْيَةَ عَنْ يد وهُمْ صَاغرونَ ﴾ والصَّغَار من مادة الصاد والغين والراء، وتدل على معنيين؛ إن أردتها عن السن يقال «صَغُر» «يَصْغُرُ» مثل قولنا: فلان كبر يكبر. وإن أردتها فى الحجم والمقام نقول «صَغِر» «يصغَر»، أى: صغر مقاماً أو حجماً، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

وهنا فى قوله: ﴿ حتَّى يُعْطُوا الجزْيَةَ عَنْ يَد وهُمْ صَاغرُون ﴾ تعنى أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إنَّ من يُعطى لا يظن أنه يعطى عن علو، ونقول له: لا، إن اليد الآخذة هنا هى اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤١): «قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولايكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء. وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٣٠ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره فى الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود ؛ وإمَّا لكى يعينه ابنَه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله . إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ اليهُود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هى التى جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادى، بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه

مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً فى الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابله شخص فى الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجْت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمْل بعير، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنهَ ابن الله؛ لأن الله أعطاه التوراة وآثره على القوم جميعاً (١). ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلاَّم بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله: ﴿ وَقالت اليهُود عُزير ابنُ الله ﴾ لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولَم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقالتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ ذَلك قولُهمْ ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلتفتوا إليها وينزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى.

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شيء خلق كل الخلق

(١) انظر قصة العُزير هذه فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٤٣) وابن كثير (٢/ ٣٤٨). والعزير هو نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو الذى ضربه الله مثلاً لإحياء الموتى فى قوله تعالى: ﴿أو كالذى مرَّ على قَرْيَة وهى خَاويةٌ عَلَى عُرُوشها قال أنى يُحيى هذه الله بعْدَ موتها فَأماتهُ الله مائةَ عام ثُمَّ بعثهُ. . . ﴾ (البقرة: ٢٥٩).
قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (ص ٣٨٠): «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كَتْبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله».

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجدَ من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكانَ من الأوْلى أن تجيء ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فأيهما كان أوْلى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إنَّ مثَل عيسى عند الله كمثَل آدَمَ ﴾. والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أي شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - في جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله: ﴿وَخلقَ منها زَوجها ﴾، وإما بوجود واحد من الشيئين وهي الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها في التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ لِلَّه مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

أي: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطي لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى، فإياك أن تقول إنها بأسباب، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء ذكوراً، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل، ويحارب الأعداء. ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتى منها الفضائح، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

وجاء الإسلام ليوضح: أنه مادام لا دخل لك فى الإنجاب والإنسال، فَدع الأمر لمن يهب الأبناء. وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شيء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك، فالذكور هبة، والإناث أيضا هبة. فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة. ودائماً أقول للذى ينجب بنات، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء: لو استقبلتم هبة الله فى الإناث كما تستقبلونها فى الذكور، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال، فيحسن الله كل ابنة لكم فى عين رجل صالح ويتزوجها، فإن كُن عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله فى الإنجاب، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور، فالذى يرضى بالهبة فى الإناث يوضح له الله: رضيتَ بهبتى فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب فى تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أى أبناء تنجبهم أنت. ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفِّقَ فى زيجات بناته، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن: فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله ؛ لَوَجَدَ فى كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة فى المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور. إذن: مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجِدَ أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وُجِدت من قبلهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت فى الكون وبقيت صورة ناقصة، هى أن يوجد إنسان من أم دون أب، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى المسيح ابنُ الله ذَلِكَ قَولهم بأفواهِهِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً ﴿ قَوْلهم بأفواههمْ ﴾. ونسأل: وهل يوجد قول بغير أفواه ؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه. ونقول: هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعانى، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقى، وكاذب.

ولنعرف أولاً: ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل: اجلس، ولابد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزى فلن يفهم معناها.

إذن: فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولابد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موضوعات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذى يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشيء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم. وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوى وكان مشهوراً فى النحو والألفاظ واللغة، ويتقعر فى استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التى لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة النحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: قد أكلت من لحوم هذه الجوازىء فقصأت منها قصأة أصابنى منها وجع من الوابيــة إلى دأبة العنق، ولم يزل يمنى حــتى خــالط الخلب وأملت منه السراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً فى اللغة ولا معاجم عنده، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: أعدْ علىَّ ما قلته فإنى لم أفهم، فأعاد علقمةعليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء، وكتب له: خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: أعدْ علىَّ فوالله ما فهمت شيئاً، فقال الطبيب: لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه. وعرف علقمة أنه متقعر فى اللغة ويأتى بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس. وقال أساتذتنا لنا: ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أى خادمه، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال: يا غلام أصعقت العتاريف، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً: زقفيلا، وقال علقمة للغلام: وما زقفيل؟ قال: وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له: يا بنى لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تَصِحْ.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إذن: القول هو اللفظ الملفوظ من الفم، وهذا القول إمَا أن يكونَ له معَنَى، وإما ليس له معنى. مثل كلمة « زقفيل » التى قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود فى اللغة فهى قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهى كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهى نفس الحروف أيضاً ولها معنى . أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له فى اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلانى » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول فى حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له فى الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى اللغة ، وإما أن يكون له معنى فى ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

والله سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

هذا إذن كلام لا وجود له فى الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّاً لزوجها والولد المتبنى لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ ﴾

[الكهف]

أى : أن هذا القول منهم كلام له معنى فى اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع ، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههمْ ﴾ أى : لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

﴿ ذَلِكَ قَوْلُهم بأفْواههمْ ﴾ وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوه ؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا : ﴿ يُضَاهِئُون قَوْلَ الذينَ كفروا من قَبْل ﴾ أى : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شىء له واقع ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ۝١٩ ﴾ [الزخرف]

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله - وسبحانه منزه عن ذلك ، فى ذلك يخاطبهم المولى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأنثى ﴾ - إذن : فهذا كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم : ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أى : يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية فى الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أى : يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و« المضاهاة » هى المماثلة والمشابهة ، وقالوا : إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْياء »[1] وهى التى ضاهت وشابهت

(١) قال فى لسان العرب : امرأة ضَهْيأ ، وهى التى لايظهر لها ثدى ، وقيل : هى التى لا تحيض ، فكأنها رجل شبهاً .

الرجل ، فى عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهى بذلك تكون شبيهة بالرجل .

﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذينَ كَفروا من قَبْل ﴾ والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالَى عليهم ، وَلم يتركه الحَق لنا ، وساعة تسمع : ﴿ اتخذَ اللهُ ولَدًا﴾ فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام: قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً ؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول: قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير: « فليعش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ ترد بمعنيين ، فمرة تعنى « من أين ؟» ، ومرة أخرى تعنى « كيف ؟» ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول [1] :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧]

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذى يكفلها ،والمفترض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أى : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء فى القرآن الكريم :

---

(١) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وبها سميت مريم أم المسيح. ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا.

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾
[آل عمران : ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هى فى كفالته . بل هى تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات، ومقدمات ونتائج ، بل هى بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطى بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور :

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا فى آن واحد: إنك يا زكريا تأتى لها بالرزق فى حدود قدراتك وحساباتك البشرية، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتى به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذى رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتى إلا فى الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس فى بلادهم مثله ، ولذلك قال : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأتِ بها هو، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها، فحينما ترى فى يد ابنك قلم حَبر غالى الثمن وأنت لم تحضره له، لا بد أن تسأله: من أين جئت به ؟ وذلك لتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سَيِّئ فأغراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك: من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدى ثوباً لم تأتِ لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك: من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث فى البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى فى بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم : من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التى تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه «الشيكولاتة» من مصدر معلوم لها وحلال فهى تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون : « من أين لك هذا ؟» يحكم العالم كله ؛ لأنه يتحكم فى التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيمانى ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام : أنت تتكلم بحسابك ولكنى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً : ما دام الله عز وجل يعطى بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطينى الولد ؟

إذن : فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهى أن الله يعطى بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل : كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن، ولم يكتَف الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته ، ولله ملحظ فى تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمى الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها [1]، مثل أن يسمى رجل ابنه «سعداً» رجاء أن يكون سعيدًا، وقد يسمونه «فارساً»، رجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فضلاً» رجاء أن يكون كريماً، ويسمون الفتاة «قمراً» لعلها تكون جميلة. إذن: فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة ، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً :

سَمَّيْتُه يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ يكُنْ لِرد قضاء الله فيه سَبِيلُ

إذن : فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذى يدل على الشىء المؤمّل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن المسمى لا يملك أن يكون سعيداً ، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذى يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذى سمى يحيى ، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً ؛ لأن الذى يملك هو الذى سمَّى، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التى نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ وأجابت :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

(١) عن على بن أبى طالب قال : «لما ولد الحسن سميته حرباً ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قال : قلت حرباً ، قال : بل هو حسن . فلما وُلدَ الحسين سميته حرباً . فجاء رسول الله ﷺ فقال : أرونى ابنى ما سميتموه؟ قال : قلت : حرباً ، قال : بل هو حسين » أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٩٨ ، ١١٨) و الحاكم فى مستدركه (٣/ ١٦٥ ، ١٨٠) وصححه وأقره الذهبى .

لقد رأت كل ذلك فى سيدنا زكريا وفى ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستُمتحن فى عِرْضها فهى التى ستنجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائماً قولها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم فى قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشَّرها الحق تبارك وتعالى بذلك فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب، فتساءلت: كيف يكون لى غلام من غير أب. ويُذكِّرها الحق عز وجل بهذا القول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها :

﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلما قال لزكريا من قبل، إذن ﴿أنّى﴾ هذه هى مفتاح الموضوع العقدى كله، فى زكريا ويحيى، وفى مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿أنّى﴾ وقلنا إن «أنّى» تأتى بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وماكان يصح أن تغيب عنهم، فكيف يُصرفون عن

هذه الحقيقة التى توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال فى اللغة «حبر» أو «حَبْرُ» أى رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيس» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحى قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أى العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية فى الإسلام(١)، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهى باذة الهيئة (أى : رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها : ما شأنك؟ فقالت : زوجى يقوم الليل ويصوم النهار (أى: أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبى ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال : «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فىَّ أسوة، فوالله إنى لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).

فى اليوم، فالمسلم الذى يرغب فى زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلى ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف فى المائة، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه. وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى فى الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان [1]، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

أى: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان. ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا فى فروض الدين ألا نهجع [2] إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء وننام إلى الفجر. لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله. وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج ، فهنا زيادة فى العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التى حُدِّدَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وَعلم أزلاً قدرات من خلق،

(١) قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٨): «الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته، فكأن جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً فى الآخرة.. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضًا النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها».

(٢) الهجوع : النوم ليلا.

لذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة فى العبادة ، وليس فى ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب » ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذى يُحل ويحرم بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلُّوا شيئاً حرمه الله أو حرَّموا شيئاً أحلَّه الله، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحريم هى سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ فى عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هى العبادة[1] .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذى يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : «ياعدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) .
قال : «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب .

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله، ولذلك يتابع الحق قوله :

﴿وَمَا أمرُوا إلا ليعبدوا إلـهاً واحداً لا إلهَ إلا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهكذا يذكرَ الحق أن الأمر لم يصدرَ منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد مَن يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول :

« خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله »[1].

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد النفى فى «لا» والاستثناء من النفى والإثبات فى «إلا»، وهذا نفى الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين نقول : «الله واحد» فهذا يتضمن الإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفى»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون : كل التقاء بين موجب وسالب إنما يعطى طاقة، والطاقة يمكن استخدامها فى الإنارة أو تدار بها آلة، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر إقبال :

إنما التوحيدُ إيجَابٌ وسَلَبٌ

فيهما للنفْسِ عزمٌ ومَضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذييلاً للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانه عَمَّا يُشركُون﴾ وحين تسمع كلمة ﴿سُبْحَانهُ﴾ فاعرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فالله غنى وأنت غنى، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلى؟ وأنت حى والله حى ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) والبيهقى فى سننه (٤/ ٨٩، ٢٨٩) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ذاتية وحياتك موهوبة، فسبحانه حى بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه «الحى» واسمه «المحيى»، فهو حى فى ذاته، ومُحْى لغيره، وإن كانت الصفة لله فى الذات فهى لا تتعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها، فتقول «حى» ولا تقول المقابل، ولكن إن قلت: «محيى» فأنت تأتى بالمقابل وتقول «مميت». وتقول: «قابض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن: فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها فى غيره، فسبحانه هو مُحى لغيره، ومميت لغيره، لكنه حى فى ذاته. إذن فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعنى التنزيه ذَاتاً، وصفات، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتى مثله فعل من البشر، نقول: إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج [1]، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لانهائية.

ولذلك حين قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقد أسْرىَ بى إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نَضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ [2] لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل: لقد ذهبت

(١) أى أن فعل الله سبحانه وتعالى يتم فى الكون بدون معالجة أو تهيئة أسباب بل الأمر بالنسبة لله: كن فيكون.

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة فظعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبى، فقعد معتزلاً حزيناً. قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء: هل كان من شىء؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: ماهو؟ قال: إنه أسرى بى الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه» الحديث، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧). والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

وقد قال ابن إسحاق: فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الإِمْر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ (سيرة النبى لابن هشام: ٢/ ٤). والإِمْرُ: هو الشئ العظيم العجيب المنكر.

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرىَ بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
إذن: فالذى أسْرَى هو الله القوىَ القادر ولا يحتاج الله إلى زمن.

إذن: فـ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه، وكلما زادت القوة زادت القدرة والله هو القوى. وقولهُ تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يشركُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لايقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لاتجد كافراً معانداً محاربًا لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

إذن: فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله».

والله عز وجل يقول هنا: ﴿لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشركُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية؛ لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفضل. فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولاتردمها، والأصلح من ذلك أن تحمى

جدرانها بالطوب حتى لاتنهار الأتربة وتسُدَّها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذى القرنين:

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

[الكهف]

أى : أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذى القرنين الأسباب، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن : فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلح فى الأرض حتى يسعد المجتمع بأى إصلاح فى الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولاالنجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون. وكل شىء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا فى الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها الشر. بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم فى زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذى بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك ، حتى

إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقى وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله فى الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقاً لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]

إذن: فالميزان للعلويات لا يختل أبداً، فإذا عرفتم ذلك فنفِّذوا أمر الحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨]

فإذا سرْتم على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً، وهذا شأن الشيء الذى فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم. وعلى هذا إذا رأيت عورة فىَ الكون من أى لون، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطِّل.

ولذلك نجد - أيضاً - أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدى المفسدين، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يريد أن يعدل ميزان الكون فهم يحاربونه.

وأنت حين تشترى سلعة، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك. ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتى مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج.

ومن قبل قلنا: إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين.. النور الأول حسى وهو فى الماديات، والنور الثانى معنوى وهو فى القيم، وكما أن النور الحسى يهدى الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأى شىء؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشىء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشىء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب النور دوراً فى الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا؛ لأن الإنسان فى الأمر الحسّى لايستطيع أن يطفئ النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التى تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفئ «المُنوِّر» والمنوِّرُ الأعلى هو الله، ولا أحد يستطيع إطفاءه.
﴿يريدُونَ أنْ يطفئُوا نُورَ الله بأفْواههمْ ويَأبَى اللهُ﴾ أى: لا يريد الله شيئاً ﴿إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وسبحانه قدَ أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل

ليتصر عليهم الكفر، ولذلك يقول لنا : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أى لا يريد ﴿إلاَّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ .

ويتابع الحق جل وعلا قوله :

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة «دين» أخذَتْ واستعملت أيضاً فى الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول لكفار ومشركى مكة :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]

فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات ؛ لكن ﴿دين الحقِّ﴾ هو الذى جاء من السماء .

﴿هُوَ الذى أرسلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه﴾ ولنلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أى ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

ونتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَلى الدِّين كُلِّه﴾، فلو أن الفساد كان فى الكون من لون واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكنَّ هناك أدياناً متعددة؛ منها البوذية وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات،

وكذلك الصابئة [1]. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه ؛ الذى هو دين الحق على دين واحد ؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقفاً فوق ظَهْر هذه الأديان كلها، والشيء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عالياً ظاهراً. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧]

أى: أن يأتوا فوق ظهره. وكل الأديان هى فى موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامى. بعض الناس يتساءل: إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت دياناتهم موجودة فى الكون وأتباعها كثيرون ، نقول: لنفهم معنى كلمة الإعلاء، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا باتباع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام، وهم فى هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة بدونها. وأنت كمسلم حين تتعصب لتعاليم دينك، فليس فى هذا شهادة لك أنك آمنت، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق ، ولكن الشهادة القوية تأتى حين يضطر الخصم الذى يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته، هنا تكون الشهادة القوية التى تأتى من خصم دينك أو عدوك. ومعنى هذا أنه لم يجد فى أى فكر آخر فى الكون حلاً لهذه القضية فأخذها من الإسلام.

فإذا قلنا مثلاً: إن إيطاليا التى فيها الفاتيكان الذى يسيطر على العقائد

(١) الصابئة: قوم تركَّب دينهم بين اليهودية والمجوسية. وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. انظر: تفسير القرطبى (١/ ٤٧١) والملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٦٢) ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار (ص ٢١٣ وما بعدها).

المسيحية فى العالم الغربى كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التى واجهت المجتمع الإيطالى وغيره من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك.

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه ،أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من ديننا ويطبقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية، يتأكد لهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ليظهرَهُ علَى الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ الكَافرُونَ﴾، وبالله لو كان الإظهار غلبة عقديَة، بمعنى ألاَّ يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا : ﴿ولَوْ كَرِهَ الكَافرونَ﴾ ولما قال فى موضع آخر من القرآن : ﴿ولَوْ كَرِهَ المشْركُونَ﴾ وهذا يعنىَ أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين لَلإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان، لا ، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام. ومثال آخر من قضية أخرى، هى قضية الرضاعة، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾

[البقرة: ٢٣٣]

وقامت فى أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم، وكان ذلك فى نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه. واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاعة الطبيعية وبحماسة بالغة. هل فعلوا ذلك تصديقاً للقرآن

الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حَلَّ لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية؟

وكذلك الخمر نجد الآن حرباً شعواء ضد الخمر فى الدول التى أباحتها من قبل وتوسعت فيها، ولكن شنُّوا عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنسانى، هذا هو معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّه﴾ أى: يجعله غالباً بالبرهان والحجة والحق والدليل علىَ كل ما عداهَ. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ولوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ﴾ فقد ظهر هذا الدين وغلب فى مواجهة قضايا عديدة ظهرت فى مجتمعات المشركين والكافرين الذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه، وهو ظهور غير إيمانى ولكنه ظهور إقرارى، أى رغماً عنهم.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الأحبار والرهبان لايؤمنون بالله الإيمان الصحيح، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم، ويحلون ماحرم الله، ويحرمون ماأحل الله، ويتخذهم أتباعهم أرباباً من دون الله. هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾

وبعد أن شرح سبحانه لنا ما يدور فى ذواتهم ، وانحرافهم عن منهج الله تعالى ، والغرق فى حب الدنيا وحب الشهوات، وهم قد اشتروا بآيات الله

ثمناً قليلاً، وحرَّفوا تعاليم السماء حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولكن هل الأموال تؤكل؟ طبعاً لا، بل نشترى بالمال الطعام الذى نأكله، فلماذا استخدم الحق سبحانه عبارة ﴿لَيأكُلونَ أمْوالَ النَّاس﴾؟ أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب، ولكنهم يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه [1].

ولذلك يأتى قوله تعالى فى ذات الآية أنهم ﴿يَصدُّونَ عَنْ سبيل الله والذينَ يكنزُونَ الذهبَ والفضَّةَ ولاَ ينفقُونَهَا فى سَبيل الله فَبشِّرْهُمْ بعذاب أَليمَ﴾. هم إذن أكلوا أموال النَاس بالباطلَ، مصداقاً لقولَ الحَق سبحانه ﴿لَيأكُلونَ أمْوالَ النَّاس بالبَاطل﴾ ومعنى ذلك أنَّ هناك أكْلاً من أموال الناس بالحق فى عمليات تبادل المنافعَ، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة؛ ويذهب التاجر ليشترى بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا فى أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ كثيراً منَ الأحْبَار والرُّهْبان ليأكُلُونَ أمْوالَ النَّاس بالبَاطل﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطلَ، بل قال ﴿إنَّ كثيراً منَ الأحْبَار والرُّهْبان﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لايظلم أحداً؛ لذلك جاء بالاحتمال. فلو أن الله سبحانه وتعالى عمَّم ووُجد منهم من هو ملتزم بالدين. فمعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم لم يُغطِّ كل الاحتمالات، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه يصون الاحتمالات كلها.

إذن: فاستيلاء بعض من هؤلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس لا يكون بالحق، أى لا يحصلون فقط على ما يكفيهم، بل بالباطل أى بأكثر مما

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٤٩): «كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى. وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذى ذكره سلمان الفارسى عن الراهب الذى استخرج كنزه» والتزلُّف هو: التقرب.

يحتاجون. وهم يأخذون المال ليصدوا به عن سبيل الله، وهم فى سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُغيِّرون منهج الله بما يتفق مع شهوتهم للمال، وما يحقق لهم كثرة الأموال التى يحصلون عليها، ولهذا تأتى العقوبة فى ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿وَالذينَ يكنزُونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ ينفقُونَهَا فى سَبِيلِ الله فَبشِّرْهُمْ بعَذاب أليم﴾ والكنز مأخوذ من الامتلاء والتجمع، ولذلك يقال : «الشاة مكتنزة»، أى مليئة باللحم وتجمَّعَ فيها لحمٌ كثير.

إذن : فيكنزون أى يجمعون، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يكْنزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ﴾؛ وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل، أى سلعة مقابل سلعة، وهى ما يسمى عمليات المقايضة، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول. والعملة من بدايتها حتى الآن ترتكز على الذهب والفضة. وحتى عندما وجدت العملة الورقية، كان لا بد أن يكون لها غطاء من الذهب لكى تصبح لها قيمة اقتصادية ؛ لأنَّ العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يغطيها من الذهب والفضة.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان، يجعلهما الأساس فى النقد والتجارة، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً. لكن لايزال الأساس النقدى فى العالم هو الذهب والفضة. وعلى مقدار رصيد الذهب الذى يغطى العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أى بلد أو تنخفض.. فمثلاً فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون الفائض من الذهب مليونى جنيه، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصرى تساوى جنيهاً من الذهب مضافاً إليه قرشان ونصف القرش. والذى يهبط بالنقد إلى الحضيض أن يكون رصيد

الذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة والأساس فى الاقتصاد العالمى.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل فى تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن هذا التعامل يقتضى الحركة الدائمة للمال ؛ لأن وظيفة المال هى الانتفاع به فى عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فإنه ينقص كل عام بنسبة ٥, ٢٪ وهى قيمة الزكاة. ولذلك يفنى هذا المال فى أربعين سنة. فإن أراد المؤمن أن يُبْقى على ماله ؛ فيجب أن يديره فى حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة ؛ وهى نسبة قليلة تُدفَعُ من المال. ولكن إذا أدار صاحب المال مايملكه فى حركة الحياة، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به ؛ لأن الذى يستثمر أمواله مثلاً فى بناء عمارة ليس فى باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التى صنعت مواد البناء أخذت، وأخذ العمال أجورهم؛ فى مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن : فقد انتفع عدد كبير فى المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم. ولذلك فإن الذى يبنى عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عدد من الناس، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً .

إذن: سبحانه وتعالى لايريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريده متحركاً ولو كان فى أيدى الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع، وتشغيل للأيدى العاملة إلى غير ذلك، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره فى حركة الحياة، فالسلع لن تستهلك ، والمصانع ستتوقف ، ويتعطل الناس عن العمل.

وكما يحث الإسلام على استثمار المال، يطالبنا أيضاً بألا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع الكسل وعدم العمل. ولذلك قيل: إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم ولو بحفر بئر ثم تأمرهم بطمّها أى ردمها، فى هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكنز؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَالذينَ يَكْنِزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ يُنفقُونهَا فى سَبيل الله فبشِّرهُمْ بعذاب أليم﴾ لأنهم بكنزهم المال إنمَا يُوقفُونَ حركة الحياة التى أرادَها الله تعالى لكَونه. وأنت ترى العالم الآن يعيش فى غائلة البطالة؛ لأن المال لايتحرك لعمارة الكون، بل هناك من يكتنزون فقط.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقى، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة؛ نقول: إن العملة الورقية ليست نقداً بذاتها، ولكنها استخدمت لتعفى الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والفضة، قد لا يقدرون على حملها، إذن فهى عملية للتسهيل، وهى منسوبة إلى قيمتها ذهباً، إذن: فالذين يكنزون العملة الورقية ولاينفقونها فيما يعمر بها الكون وتتم عمارته تنطبق عليهم الآية الكريمة (١).

ولكن الكنز فى هذه الآية لا يأتى فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لايؤدون حق الله فيها. ولذلك فإن المال الذى أخرجتَ زكاته لا يُعدُّ كنزاً، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر؛ أما المال المكنوز فهو المال الذى لا تُؤدَّى زكاته.

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤٩): «الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة. ألا ترى قوله ﷺ: «ألا أخبركم بخير مايكنز المرء: المرأة الصالحة» أى يضمه لنفسه ويجمعه. وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لايطلع عليه بخلاف سائر الأموال. قال الطبرى: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها». والحديث الذى ذكره القرطبى هنا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٦٤) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٠٩) (٢/ ٣٣٣) وصححه وأقره الذهبى فى الموضع الأول.

والذى يملك مالاً مهما كانت قيمته ويؤدى حق الله فيه لا يعتبر كانزاً للمال. بل الكنز فى هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله (١).

وإذا عُدْنا إلى نص الآية الكريمة: ﴿وَالذينَ يكْنزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ يُنفقُونها﴾ نتساءل: لماذا لم يقل الله: ولاَ ينفقونهما مع أنهما معدنان؟ ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقات كثيرة، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب، وغيره يملك مائة دينار من الذهب، وثالث ليس لديه إلاَّ دينار ذهبىّ واحد وكذلك الفضة، وما دام الجمع هنا موجوداً فلا بد أن تستخدم ﴿يُنفقُونها﴾.

ولم تقل الآية الكريمة: والذى يكنز. ولكنها قالت: ﴿وَالذينَ يكْنزون﴾، إذن: فالمخاطبون متعددون، فهذا عنده ذهب، وهذا عنده ذَهب، وثالث عنده فضة، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع. ويلفتنا القرآن الكريم إلى هذه القضية فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات: ٩]

ولم يقل «اقتتلا» لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين، فإذا جاء القتال لاتقوم طائفة وتمسك سيفاً وتقاتل الثانية، وإنما كل فرد من الطائفة الأولى يقاتل كل فرد من الطائفة الثانية، إذن فهما طائفتان ساعة السلام، ولكن ساعة الحرب يتقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَتَلوا﴾، ولم يقل «اقتتلا». أما فى حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩]

واستخدم هنا «المثنى» لأننا ساعة نصلح بين طائفتين، لا نأتى بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية، ولكن نأتى بزعيم

(١) قال ابن عمر: ما أُدِّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مالم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض. ذكره القرطبى فى تفسيره. وقال: «ومثله عن جابر، وهو الصحيح».

الطائفة الأولى ونصالحه على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح. ولذلك هنا تجب التثنية.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالذينَ يَكْنِزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ﴾ لم يقل ولاينفقونهما، ولكن قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يُنْفقُونَها في سَبيل الله﴾ والإنفاق في سبيل الله يشمل مجالات متعددة، ففي سبيل الله تحدث حركة في المجتمع يستفيد منها الناس، فحين تُخْرجُ الزكاة يستفيد منها الناس، وحين تُجهَّزُ بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس، ونظرية عدم كنز المال ربما ظهرت حديثاً في الاقتصاد العالمي ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم.

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج في السوق. والرواج معناه إيجاد العمل ووسائل الرزق. وإيجاد الحافز الذي يؤدي إلى ارتقاء البشرية، وأنت حين تشتري لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيت بيتاً صغيراً فإنك تُوجدُ رواجاً اقتصادياً في المجتمع. وفي نفس الوقت ارتقيت بوسائل استخداماتك. والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذي يفيد البشرية، ولكن إذا كنزت كل مالك ساد الكساد الاقتصادي.

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وزيادة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد الوسط في كل الأشياء. ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

[الفرقان]

والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق، وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أي أزمة مفاجئة. لكنك إن قترت حدث كساد في السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال، والإسلام يريد نفقة معتدلة توجد الرواج السلعي، وادخاراً تستخدمه في الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات.

والإنفاق أنواع : إنفاق فى المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك، وإنفاق فى غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تنقى المجتمع من مفاسد كثيرة [١]؛ فهى تمنع الحقد بين الناس ؛ لأن الفقير إذا وجد من يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على الغنى، والغنى والفقير متساويان فى الانتفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله، والغنى حين يعطى يحس أن هذا أمان له ؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه.

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة، ولا يوجد من لديه فائض يحبسه عن الناس[٢]. ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة. والإنسان إذا عمل فإنه لايفيد نفسه فقط بل يفيد المجتمع أيضاً. فسائق «التاكسى» مثلاً إذا كسب مائة جنيه فى اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط، ولكنه فى الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسَّر على العباد مصالحهم، فنقل هذا إلى عمله؛ ونقل ذلك إلى المستشفى، ونقل غيرهما إلى السوق ليشترى ما يحتاج إليه، ونقل رابعاً ليزور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا.

إذن : فالذى يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط، فمن أين يعيش غير القادر على العمل؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة؟ إنه لايعيش إلا بفائض القادر على

---

(١) ولذلك يقول عز وجل فى هذه السورة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة : ١٠٣)

(٢) وقد أرشد الرسول ﷺ المسلمين إلى هذا ، فقال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حَقَّ لأحد منا فى فضل. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٢٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٤) وأبو داود فى سننه (١٦٦٣).

العمل، ولذلك لابد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته، وليس على قدر حاجته. والعمل على قدر الحاجة يجعله يوفى بحاجات من يعولهم، ولايضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين؛ أى أنه يقيهم شر الحاجة. أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته، ويعطى لغير القادر ما يقيم حياته، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين.

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر. ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد من يدوم غناه أو من يدوم فقره؛ لأن دوام الحال من المحال، إن عاش الغنى فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيبادر ليعين الفقراء كنوع من رَدِّ الجميل. وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة، كما أن الحياة فى مثل هذا المجتمع إنما تهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم، ذلك أن الأعمار بيد الله، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفل المجتمع بهم، عندئذ يحس بالأمان فى حياته، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حق اليتيم، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده الصغار، ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم [1]؛ ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَونهُ، فَيُحسُّ الأب بالأمان وتُحس الأم بالأمان ويحس الصغار بالأمان، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) كفالة اليتيم من الأمور التى حثَّ عليها الإسلام، وورد ذكر اليتيم واليتامى فى القرآن (٢٣ مرة)، وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية (النساء: ٣٦).

وانظر إلى القرآن وهو يوصى كافلى اليتامى بالتعامل بحس إيمانى نابع من قلوبهم وضمائرهم مع أموال هؤلاء اليتامى فيقول عز وجل ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦).

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

وتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمع اليتيم؛ فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار.

إذن: فساعة يكفل المجتمع اليتيم فالطفل لن يسخط على القدر الذى حرمه من أبيه لأنه وجد آباء يرعونه، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده صغار، وكانت الأم تبكى على أطفالها لأنهم تيتموا، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً، والثالث أصبح محامياً، بينما من لا يزال آباؤهم على قيد الحياة كانوا متعثرين فى دراستهم، فقال أحدهم للآخر: ليتنا نموت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا.

إذن: فهناك آباء محابس رزق، إذا ذهبوا فاض الله بالرزق على أولادهم، وهذه صورة نراها فى الكون؛ فنعرف أن المسألة فى يد الله سبحانه وتعالى القائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات]

إذن: فالاقتصاد الإسلامى مبنى على وجود حركة فى الكون، ولابد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين، وليس على قدر حاجاتهم؛ حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر.

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لمحة إيمانية، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى العطاء من أى إنسان غنى يتعب فى عمله، وكأن من هم أغنى منه يعملون ليعطوه، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوَّضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسخط على اختبار الله تعالى له بالابتلاء.

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وساعة تسمع كلمة ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون فى خبر سار، وإن جاءت فى خبر محزن تكون تهكمًا ، فالإنسان الذى هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه ؛ لأنه لا يخشى الله فيهم، هذا الظالم يُؤتَى به يوم القيامة ويُعذَّب أشد العذاب ، ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

وبطبيعة الموقف فى النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً، ولكن قول ملائكة النار : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾، هو تهكم شديد، وهو فى ذلك كقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف ٢٩]

وهم ساعةَ يسمعون كلمة ﴿يُغَاثُوا﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوى وجوههم ، فهل هذه إغاثة ؟ إنه تهكم عليهم وزيادة فى عذابهم ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذاب أليم﴾ ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذى سيتعرضون له، ويُبيِّن لنا خبرَ المغيَّب عنَّا فى الآخرة بصورة مُحَسَّة لنا فيقول :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن ، فإن كان ما كنزوه أوراقَ نقد فكيف يُحمَى عليها ؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهى صالحة لأنْ تُكْوَى بها أجسادهم، أما الورق فكيف يتم ذلك ؟ ونقول: إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحمىً ، أو يحولها إلى ذهب وفضة؛ وتكوى بها نَواحٍ متعددة من أجسادهم ، والكية هى أن تأتى بمعدن ساخن وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً.

وحين مات أحد الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وبحثوا فى ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول ﷺ: « هذه كَيَّة من النار » ؛ لأن صاحبه كان حريصًا على أن يكنزه ، كما وجدوا مع صحابى آخر دينارين كنزهما ، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان كَيَّتان» (١).

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً ، وإلا لو قلنا: إنَّ الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً ، لو قلنا ذلك لكنا قد أخرجنا آيات الميراث فى القرآن الكريم عن معناها ؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفى. والمال المورَّث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله، لذلك لا يعتبر كنزاً.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب؟ لأن كل جارحة من هذه

(١) عن أبى أمامة قال: توفى رجل من أهل الصُّفَّة فوجد فى مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: كية. ثم قال: توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كيتان. أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٠): رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب . وقد وثق. وهذا الحديث ونحوه رواه أحمد عن عدة من الصحابة.

وقد يقول قائل: وما دينار أو ديناران حتى يكوى بهما بالنار ؟ والجواب: إن هذا رجل من أهل الصُّفَّة أى من الفقراء المعدمين الملازمين لمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين، بينما هو يكتنز الذهب ولو ديناراً فى طيات ثيابه فكأنه أخذ حق غيره وحرم مجتمع المسلمين مما يكتنزه ومن جهده فى العمل، فلو بهذا الدينار أتى بقدوم واحتطب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره لكان أنفع لنفسه ولأهله ولغيرهم ؛ ولهذا استحق الوعيد.

الجوارح لها مدخل فى عدم إنفاق المال فى سبيل الله. كيف؟ مثلاً: تجدون الوجه هو أداة المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متجهاً إليك ليطلب صدقة، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدى حق الله أن تشيح بوجهك عنه، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب، فإن هذا الفقير يحس بالمهانة والذلة ؛ لأن الغنى قد تركه وابتعد عنه، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير فى تقدمه من الغنى ، فإنه يعرض عنه بأن يدير له جنبه ليحس بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطى له ظهره.

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشترك فى منع الإنفاق فى سبيل الله، وهى الوجه الذى أداره بعيداً، ثم أعطاه جانبه، ثم أعطاه ظهره. هذه هى الجوارح الثلاث التى تشترك فى منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لابد أن تُعذَّب فَتُكْوى الجباه والجنوب والظهور.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿هَذَا مَا كَنزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾، أى: هذا ما منعتم فيه حق الله، فإن كنز الإنسان مالاً كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالاً قليلاً ؛ لأن الكَىَّ سيكون بمساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة. ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تكنزونَ﴾ أى: أن عذابكم فى الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال، فالمال الذى تَفرحون بكنزه فى الدنيا كان يجب أن يكون سبباً فى حزنكم؛ لأنكم تكنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور فى الحياة الدنيا ، فسوف يقابله فى الآخرة عذابٌ ، كُلٌّ على قدر ما كنز .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

والشهر : هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هى الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى بعيدة عنا تستطيع أن تأخذ مليون شمس فى جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة عن مدى اتساع الكون ، فلا تعتقد أن الشمس هذه موجودة بذاتها، بل هى تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعيننا محدود ، وهناك ما لا يمكننا أن نراه؛ لأنه غير منظور لنا. وأنت إذا نظرت إلى مصباح كهربائى، فنور المصباح ليس ذاتياً، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من أسلاك وكابلات وأكشاك، ثم محطة توليد الكهرباء التى تولد التيار الكهربائى، ثم المصانع التى أنتجت الآلات التى تعمل فى محطة الكهرباء، إذن: فوراء هذا المصباح الصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة.

ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء والنور؟

الضياء: فيه نور وفيه حرارة. والنور : فيه ضوء وليس فيه حرارة. ولذلك

يسمون ضوء القمر «الضوء الحليم» ، أى : أنك عندما تجلس فى ضوء القمر لا تحتاج إلى مظلة تحميك منه، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة .

والحق سبحانه وتعالى يسمى الشمس سراجاً وهَّاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء . أما القمر فسماه منيراً ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذان الكوكبان العلويان - الشمس والقمر - وضع الله فيهما موازين الزمن. والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليلة، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشيء وظله، وأوقات يكون الظل مثْلَىْ الشيء. والليل فيه الظلام، ويأتى بعد النهار والليل - فى مقاييس الزمن - الشهورُ ، وبعد الشهور تأتى السنوات .

إذن : فمقاييس الزمن محتاجة لآلات تقاس بها، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس. إذن فالشمس معيار اليوم. وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس. وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى الشمس فإنك لا تعرف هل أنت فى أول الشهر أو فى منتصفه أو فى آخره. ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت، ففى أول الشهر يكون القمر هلالاً ، وفى منتصفه يكون بدراً ، وفى آخره المحاق[1] . والشهور عند الله اثنا عشر شهراً.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان، ويجعله خليفة فى الأرض؛ خلق له كوناً مُعَدّاً إعداداً حكيماً لاستقباله ، فقدَّر فى الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأنزل المطر ، فكل ما يقيم حياة الإنسان كان

---

(١) المحاق : آخر الشهر إذا امحق الهلال فلم يُرَ. وهو أن يَسْتسرَّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية. قال ابن الأعرابى : سمى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته ، فلم يره أحد. انظر لسان العرب (مادة محق).

موجوداً فى الكون قبل أن يأتى الإنسان إليه. والإنسان جعله الله خليفة فى الأرض وله حركة، وهى الأحداث التى تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان. إذن: فالحياة كلها تفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان.

وكما أعدَّ الله سبحانه وتعالى للإنسان فى كونه مقومات حياته اليومية.. أنزل له القيم التى تحفظ له معنويات حياته، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تتعاند، ومعنى التساند أنْ تتحد حركة الناس جميعاً فى إيجاد النافع لمزيد من الإصلاح فى الأرض، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض، فإن الفساد يظهر فى الأرض؛ لأن كل واحد يريد أن يهدم ما فعله الآخر.

ولكى تتساند حركات الإنسان فى الكون؛ فلا بد من مُشَرِّع واحد - وهو المشرع الأعلى - يعطى قوانين الحركة البشرية لكل الناس. وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى، وأخذوا يقنِّنون لأنفسهم، نجد قوانين البشر تتبع أهواءهم، وكل واحد يحاول أن يحصل على مَيْزات لنفسه، ويأخذ حقوق الآخرين؛ فتفسد الحياة، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]

إن اتباع الحق لأهوائهم سيُخضعُ الكون لأهواء البشر، هذا يريد وهذا لا يريد، والحق سبحانه يريد فى الكون حركة السلام والأمن والاطمئنان، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان بمنهج الله؛ حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل، مستوعب لسلام الإنسان مع نفسه، ولسلام الإنسان مع الكون، ولسلام الإنسان مع الله، لكن الإنسان الذى خلقه الله مُخيَّراً وأنزل له المنهج بالتكليف، فى إمكانه أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه. وإن عصى الإنسان المنهج فهو يفسد فى الأرض وينشر فيها الظلم والفساد.

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماناً ، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد فى الأرض ؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود فى هذا الكون ؛ لتتصارع الإرادات ، فما دام للإنسان اختيار ، وما دام هناك من يعصى ومن يطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها فهى لا تعكر السلام فى الكون ، فلن تقوم ثورة - مثلاً - لكى تشرق الشمس ، أو تشتعل حرب لإنزال المطر ؛ لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التى أرادها الله لها ، وتعطى نفعها للجميع ، ولكن الفساد يأتى من انحراف الناس عن منهج الله ، وما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم [1] ؛ فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى . ولكن إن عَمَّ الفساد ، ولم يوجد فى المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس فى حياتهم وأرزاقهم.

ولكى يسود السلام فى الكون ؛ وضع الحق سبحانه فى الزمن وفى المكان حواجز أمام طغيان النفوس ؛ عَلَّها تفيق وتعود إلى الحق ، فجعل فى الزمان أشهراً حُرماً يمتنع فيها القتال ، ويسود فيها السلام بأمر السماء ، وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسرى فرصة تجعل هؤلاء المتحاربين يفيقون إلى رشدهم وينهون الخلاف بينهم ، كذلك خصَّ الله بعض الأماكن بتحريم القتال فيها ، فإذا التقى الناس فى هذه الأماكن كانت هناك فرصة لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف .

(١) عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣ ، ٢٦٨٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح ، وانظر شرح ابن حجر العسقلانى لهذا الحديث فى فتح البارى (٥/ ٢٩٥ ، ٢٩٦) ففيه كلام قيم جداً .

والإنسان فى حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بنيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالاً ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب الضعفُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات منتصراً كان أم مهزوماً ، ولكنه أمام عزة نفّسه فى مواجهة خصمه يريد أن يستمر فى الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذُلَّ . فيشاء الله برحمته لخلقه أن يجعل فى الزمان وفى المكان ما يحرم فيه القتال ؛ حتى لا يقال : إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقفت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى ؛ ولكن ليقول الناس : إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله.

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته ؛ فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والنفوس.

وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التى يحرم الله فيها القتال ،أمن على نفسه ، وفى هذا منع للشر أن يستمر ، وصون للنفوس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير ؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا : أنا خالقكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الزمان زماناً أحرم فيه القتال ، وأجعل لكم مكاناً مَنْ دخله كان آمناً ، فاستتروا وراء ذلك وكُفُّوا عن القتال.

وهذه هى بعض من رحمة الله ، يعطى بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو لخلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والعاصى ، وكل نعم الكون من عطاءات ربوبية الله.

إن عطاءات الله سبحانه لا تفرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا تعطى الزرع للطائع وتمنعه عن العاصى ، والشمس لاتضىء وتسقط دفئها وحرارتها للمؤمن دون الكافر ؛ فَنِعَمُ الكون المادية كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه.

الأسباب - إذن - هى للناس جميعاً ، ولهم أن يتخذوا الأزمان المواتية لحركة الحياة كما يحبون ، فيسيرون الزراعات على أى تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يفيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التى هى من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قَيِّم ، ولذلك فهناك عطاء ألوهية لله فى المنهج الذى أرسل به الرسل للناس فأوضح : أنا أختار الزمان الذى أجده مناسباً للقيم والمعانى السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعانى السامية .

وأراد الحق برسالة محمد ﷺ أن يشيع اصطفاء المكان والزمان لكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هى اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال : ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، فهناك "عند" غير الله ؛ وهناك « عند » الناس .

وأوضح سبحانه لخلقه : قَدِّروا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث فى الواقع المعاش . . إنك تجد من يزرع حسب التقويم القبطى ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف ؛ لأن التقويم القبطى قائم على التقويم الشمسى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً مخصوصة ؛ لذلك قال : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ وأوضح سبحانه : لا تجعلوا زمن القيم كالأزمان التى تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القيَم كل الزمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها وقت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والمغرب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محددة فهى تشمل

الزمن كله ؛ فالصلاة تقام مثلاً فى أسوان ، وبعد دقائق فى الأقصر ، وبعد دقائق فى القاهرة ، وبعد دقائق فى الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوربا ، وهكذا . فكأنها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هى مستمرة حسب اختلاف الأوقات فى الدول المختلفة ، فصلاة الفجر - على سبيل المثال - قبل شروق الشمس. والشمس تشرق فى كل دقيقة على بقعة مختلفة من الأرض. فكأن الصلاة دائمة على سطح الأرض. بل أكثر من ذلك نجد أننا فى الوقت الذى نصلى فيه نحن الظهر ، قد يصلى غيرنا العصر فى شمال أوربا ، والمغرب فى أمريكا ، والعشاء فى كندا مثلاً ، فكأن الصلاة تقام فى كل وقت على ظهر الأرض ؛ ذلك لأن الكون كله مُسبِّح لله.

ونأتى بعد ذلك إلى اختيار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتى مرة فى الصيف ، كما يأتى فى الشتاء وفى الربيع ، وفى الخريف . كذلك الحج يأتى فى فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هى اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها الشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لنا اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لنا الشهر ؛ فهو فى أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدْر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذى يحدد بداية الشهر ونهايته.

ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وقال : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ .

ولكن لماذا لم يجعل الحق كل الأشهر سلاماً ؟ نقول: إن الحق فى تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن الحرب أيضاً قد تكون سبباً لتحقيق

السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تخرج جماعة عن الجادة ، و لهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة للخير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار ؛ فقد يسير في اختياره إلى ناحية السوء ؛ لذلك لابد أن يضرب المجتمع على يد المسيء ، وإذا ما اختارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع . وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرُماً لأذلَّ الكفار والمشركون المؤمنين ؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكأن الله قد فرض العبودية على المؤمن به . وأعطى السيادة لغير المؤمن. ثم إن قوى الخير والشر تتصارع في هذا الكون ، وقوى الحق والباطل تتقاتل ، ولابد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق في الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقي:

الحرْبُ في حَقٍّ لَديْكَ شريعةٌ
ومِنَ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ

إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقاوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه ؛ لذلك لم يشرع تحريم القتال في العام كله. ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة السلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصلح.

ولقد أوجد سبحانه في الكون سُنَّة ، هي أنه إذا ما التقى حق وباطل في المعركة فالباطل ينهزم في وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول سنوات طويلة فاعرف أنها بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين باطل وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت المعركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حَقَّيْنِ أبداً ؛ لأن الحق

فى الدنيا كلها واحد ، فلا يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما ؛ لأن الباطل زهوق بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماء توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أولى بأن ينصره الله على الآخر ؛ بل يترك سبحانه هذا الصراع لأسبابهم ؛ مما يطيل أمد الحرب.

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن الناس مطلوبات السلام الدائم ؛ لأن الناس تنهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليوقفوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة. ونحن نلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا فى بيت يسكنه عدد من الناس - كما يحدث فى الريف - وسُرِق شيء ثمين من هذا البيت ، والسارق من السكان ونريد منه أن يعيده دوَن أن ينكشف أمره فهم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتى ليلاً ويضع حفنة من التراب فى هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه بين حفنة التراب ، وهو بذلك يأخذ فرصة من مجتمعه الصغير ليعيد ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفى هذا ستر له فلا ينفضح أمام الناس.

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن ينفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار فى الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكبر للسلام والصلح ، وبذلك تكون فرص السلام أكبر من فرص الحرب بكثير.

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدى عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين فى الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها ؟ إن الحق سبحانه لا يعنى بتشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين ؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتمادوا

فى العـدوان على المؤمنين ، فـأباح للمـؤمنين القـتـال فى هذه الأشـهـر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك فى الأماكن المحرَّم فيها القتال ، فقال :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... (٢١٧)﴾

[البقرة]

وهكذا أباح الله القتال فى الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال فى المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتال المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال فى المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال :

﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة]

وهكذا جاء التقنين الإلهى ليحمى المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال فى الأشهر الحرم كما أمر الله ؛ بشرط التزام الطرف الآخر الذى يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن خالفها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال .

وهنا يقول سبحانه :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ والكتاب يطلق على الشىء المكتوب المدوَّن ، ولا يُدوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التى تتم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذى يُكتب حتى يكون حجة فى الاستشهاد به فى حالة وجود خلاف .

ولكن أين ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذى كُتِبَ فيه هذا ؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التى نزلت فى مواكب الرسل ، ويقصد بالكتاب - أيضاً - القرآن الكريم الذى نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتغير فى القرآن كثير من الأحكام الموجودة فى الرسالات السابقة ، أما العقائد فهى واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التى لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (١٨٩)﴾ [البقرة]

وأيضاً يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (٥)﴾ [يونس]

فكأنه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن إعجازات الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن العالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد فى حسابها على الحساب القمرى ، والله سبحانه يريد منا حين نقرأ كتاباً أن نتمعن فى وضع الألفاظ فى موضعها . فيقول سبحانه:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وبعد ذلك يأتى باستثناء هو : ﴿ مِنْهَا﴾ أى من الاثنى عشر شهراً ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الله : " فيها "بدلاً من ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ما دام قد قال من قبل: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ؟

ونقـول: إن الحق ينهى عن الظلم العـام فى كل الشـهـور ، وإن كـان المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود النهى عن ظلم الحرب . وهنا قاعدة لغـوية يجب أن نلتفت إليهـا ؛ وعندنا فى اللـغة جمع قلة وجمع كثرة ؛ جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويختلط الأمر على بعض الناس فى مسألة جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع التكسير وجمع الصحيح . فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير ، والجمع الصحيح ؛ لأن التكسير هو أن تكسر بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول جمعها رسل ؛ هنا كسرْتَ بنية الكلمة أى: غيَّرتها.

أما إن قلت : " مسلم " فجمعها " مسلمون " ، وهنا تضيف "واواً ونوناً" ، ولكن كلمة " مسلم " صحيحة ، أى أننا لم نكسر المفرد . ولكن إن قلت: " سفينة " وجمعها " سفن " تكون قد كسرت المفرد.

وقول الحق هنا: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة ؛ لأن جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة الجماعة. وإن زاد على عشرة يعـاملونه معـاملة المفـرد المؤنث ، مثل وضع الشهـور الأربعة المحرمة فى كتـاب الله ، ولذلك قـال: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وجـاء هنـا بـ"نون النسوة" للجمع . والقاعدة - كما قلنا - إن جمع القلة يعامل معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عـومل معاملة المفرد المؤنث ؛ لأن الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أى أنه بمفرده ضعيف. فإن وجد جماعة ينتمى إليها فهو يُحِسُّ بالقوة.

إذن : فالفـرد يعصم بالجمـاعة ، وبهذا تعامل الجمـاعة كلها كهيئة واحدة ، وهناك شاعر يستهزىء بقوة جماعة ما ، فيقول:

لاَ أُبَالِى بِجمْعِهِنَّ فَجَمْـ ـعُهُنَّ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثٍ

إذن: فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطبق على قوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ . وأكرر : إن أردت الظلم العام فإن الله قد حرم الظلم فى كل شهور السنة ؛ سواء ظلمك لنفسك أم ظلمك للناس ، وإن أردتَ من معنى الكلام تحريم الحرب فى الأشهر الحرم تكون : ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى: إياكم أن تظنوا أن مخالفتكم لمنهج الله يحدث منها شىء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تضروا أنفسكم أو غيركم ، لكن لن يضر أحدكم الله ؛ لأن صفات الله فى الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عَصَوا . ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالحنا نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أنزله الله من قيم هو لصالحنا حرباً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خصَّ الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر ؟ وأقول: لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت الشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام فى أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً فى بلاد باردة إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، والذين يعيشون فى مناطق حارة فى أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الذين يعيشون فى المناطق الحارة بسهولة ، بينما يؤديه من يحيا فى المناطق الباردة بصعوبة ، ولتمام عدل الله بين خلقه نجده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية فى السنة الميلادية ، فلا يأتى الحج أبداً فى طقس واحد ، وبذلك تستوى كل البيئات وكل الناس فى أحكام الله .

وأيضا صوم رمضان لو كان يأتى فى الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثمانى أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون عشرين ساعة فى اليوم ، ولكن مجىء رمضان فى فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعتين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، فيتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون فى المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثمانى أو تسع ساعات يومياً .

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام ، أى أن رمضان يأتى مرة فى يناير ومرة فى فبراير ومرة فى مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون فى الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون فى الشتاء ويومه قصير . والذين يعانون من الصوم فى حرارة الجو ، يصومون أيضاً فى برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج فى شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويُسْراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين .

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذى ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفى ، لماذا ؟

لأن القمر نراه أياماً ، ولكننا لا نراه فى أيام المحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لضاع منا الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا فى أوقات غير متساوية ؛ فعندما يكون هلالاً لايظهر للعين فى الأفق إلا دقائق معدودة ،

ولكن الشمس تشرق كل يوم فى وقت محدد، وتغيب كل يوم فى وقت محدد ، وهى بضوئها ظاهرة للناس كل الناس من الشروق إلى الغروب ، فلا يجدون مشقة فى رؤيتها . ولذلك فربْطُ الصلاة بالشمس فيه يُسْر التكليف ودوامه ، وكما قال رسول الله ﷺ : " الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين "(1) وهى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن تقال مرة واحدة فى العمر ، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً . إذن فهى عماد الدين ، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض ، فالصبح فى دولة قد يكون ظهراً فى دولة ثانية ، وعصراً فى دولة ثالثة ومغرباً فى دولة رابعة وعشاء فى دولة خامسة ؛ وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول العالم ، وهكذا تكون فى كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض ، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة فى كل الزمن فى كل بقاع الأرض . وهكذا يرتفع الأذان : الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله فى كل لحظة على الأرض.

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لكن له إشراقات نورانية ، أفاض الله عليه يقول: يا زمن وفيكَ كل الزمن ، أى يا فجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض . ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس ، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض فى كل

(1) حديث ضعيف . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣٩): « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً » قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٤٧): « قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر. قال: ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط: إنه غير معروف». وقال النووى فى التنقيح: منكر باطل. ورده ابن حجر فى التلخيص (١/ ١٧٣): وليس كذلك ، بل رواه أبو نعيم شيخ البخارى فى كتاب الصلاة بلفظ : « الصلاة عمود الدين » وهو مرسل رجاله ثقات.

ثانية ، ولا يوجد جزء من الزمن إلا والله معبود فيه بعبادات كل الزمن ، أي أنه فى كل لحظة تمر نجد الله معبوداً بالصلوات الخمس على ظهر الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس.

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصلى لله فى كل لحظة من الزمن ، فإننا نعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل جيل يأخذ من القرآن على قدر عقله ، فإذا ارتقى العقل أعطى القرآن عطاءً جديداً. وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها فى الذهن كلما مر الزمن ، فتتنبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتى المستشرقون ليقولوا : إن فى القرآن تناقضاً فى الكونيات .

نقول لهم : مستحيل .

فيقولون : لقد جاء فى القرآن:

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الشعراء]

ويقول :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ويقول :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... (٤٠) ﴾ [المعارج]

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمى جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هى النظرة العامة ، إذن فقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ صحيح ، ثم عرفنا أن الشمس

حين تشرق عندى ، تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ؛ لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة .

فإذا سأل أحدهم : لماذا تخصون القمر لحساب الزمن وتخصون الشمس لحساب اليوم ؟ نقول : إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهى النهار ، واختفاؤها عنك مرتبط بعلامة يومية ظاهرة وهى الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يراه إلا فى أوقات محددة .

بعض الناس يقول : إذا كان المقصود بهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - هو بيان الأشهر الأربعة الحرم ، فما فائدة باقى أشهر السنة ؟

ونقول : إنك لن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم إلا من خلال بيان وتوضيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضرورى أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم فى العام . وإلا كيف يمكن أن نميز هذه الأشهر وزمنها ؟ لابد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام فيه اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم . والأشهر الحرم منها ثلاثة متتابعة وشهر فرد ، والأشهر المتتابعة هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو الشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعنى أنها تتميز بخصوصيات ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه الشهور فى أى وقت من السنة لتركها لنا لنحددها بمعرفتنا فنختار

أى أربعة أشهر على هوانا ،لنمتنع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها فذلك لخصوصيات فيها . جاء البعض وقال : ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثنى عشر شهراً وجعل منها أربعة حرماً ، ونحن نريد أن نحارب فى شهر المحرم فلنفعل ذلك ونمتنع عن القتال فى شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدد الأشهر الحرم وهى أربعة كما حددها الله .

ونقول : إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله ﷺ لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثنى عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكنه ﷺ خصصها ؛ لأننا علمنا بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حَلّتْ لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيئوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبى عليه الصلاة والسلام الذين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات [1] ، وأضاف المستشرقون تساؤلاً : إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فلماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه ، ولماذا اتخذ تسع زوجات ؟

ونقول : إننا إذا قمنا بعملية حسابية منصفة ، لوجدنا أنها ليست توسعة لرسول الله ﷺ وإنما هى تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول : إن رسول الله ﷺ أخذ تسع زوجات وأمته أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود ، أى أنه إذا ماتت زوجاتك الأربع

(١) عن ابن عمر قال : أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : « خذ منهن أربعاً » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤) ، وابن ماجه (١٩٥٣) والدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٦٩) . أما لفظ الإمساك والمفارقة فقد ورد فى حديث لابن عباس أخرجه الدار قطنى (٣/ ٢٦٩) . وفيه الواقدى وهو متفق على ضعفه .

أحلت لك أربع أخريات ، وإن ماتت واحدة أحلت لك أخرى ، إذن فأنت - كمسلم - عندك عدد لا معدود ، بحيث إذا طلَّقْتَ واحدة أو اثنتين حلَّت لك زوجة أو زوجتان أخريان ، فأنت مُقيَّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه . أما رسول الله ﷺ فقد نزلت فيه هذه الآية الكريمة :

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نجد أن التشريع ضَيَّق على رسول الله ﷺ في المعدود . وكان استثناؤه عليه الصلاة والسلام في العدد للتشريع ، فقد كان الرسول ﷺ يتزوج بإرادة التشريع التي يشاؤها الله .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وعرفنا أن قوله سبحانه : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلقَ الإنسان . فهي إذن مسألة من النظام الكوني الذي خُلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خلق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن ؛ لليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : أنهما خُلقَا بحساب دقيق، ويقول سبحانه :

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام: ٩٦]

أى : أنه سبحانه يطالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذى تريد أن تتخذه حساباً لك ، لابد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت ؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهى تعطيك الزمن الدقيق . إذن : فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس.

وقبل أن يُنزلَ الحق هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، كان العرب يعترفَون بالأشهر الأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يغيِّرون فى مواعيدها ، فكانت الجماعة منهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا: نستبدل شهراً بشهر ، أى نقاتل فى الشهر الحرام ، ثم نأخذ شهراً آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ماداموا قد حافظوا على العدد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على المعدود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التى لابد أن نؤمن بها ونطبقها.

والإيمان - كما نعلم - هو انقياد وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيار لنا فيه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار البشرى ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأى شكل من الأشكال ؛ لأننا فى حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له: وكَّلْناكَ فى هذا الأمر ، وسنسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا سنسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم.

إننا لا نعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرفه .

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق فى علمه ، وواثق فى صدقه ، وواثق فى حكمته .

والمثال الحى المتجدد أمامنا هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله ﷺ أعلن أنه نبى الله ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضى الله عنه هذا القول ؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله ﷺ لم يكذب قط فى كل الأحداث السابقة ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء ؟ [1] طبعاً هذا غير معقول .

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوى لك إلا إذا كانت هناك مقدمات أثبتت أنه أعلى منك فى ناحية معينة، صحيح أنه مساويك فى الفردية وفى الذاتية ، ولكنه أعلى منك علماً فى المجال الذى يتفوق فيه . فما يقوله تنفذه بلا نقاش لأنك وثقت فى علمه . وأنت إذا مرضت - لا قدر الله - وكان هناك طبيب تثق فى علمه وقال لك : خذ هذا الدواء ؛ أتناقشه أو تجادله ؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش .

فإذا سألك أحدهم : لماذا تتناول هذا الدواء ؟ تقول : لقد كتبه لى الطبيب الذى أثق فيه . وهذا يكفى كحيثية للتنفيذ .

(١) جاء هذا فيما وقفت عليه خاصاً بحديث الإسراء، وقد سبق تخريجه، وهو حديث عائشة قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سمى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٦٢) وصححه وأقره الذهبى .

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذى أعدَّ لنا هذا الكون وأنزل إلينا منهجاً وطالبنا أن نُسلمَ له وجوهنا ، وأن نفعل ما يأمرنا به فى كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرزاق ، وعنده كنوز السماوات والأرض . أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسْلمَ زمامنا له ونفعل ما يأمرنا به ؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد: لماذا نتبع هذا المنهج ؟ نقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه . وهذا هو الإسلام الحقيقى ؛ أن تسلم اختيارك فى الحياة لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى قَيِّم على كل أمور حياتنا ، والدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فمادام الله سبحانه وتعالى قد قال ، فنحن نفعل . إذن : فالدين قَيِّم علينا . والدين قَيِّم أيضاً على غيره من الرسالات السماوية ، أى مُهَيْمِنٌ عليها ، وفى هذا يقول الحق:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]

حددت الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحذرت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فنرى الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب.

نقول: إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْذاً لهمَم المقاتلين ضد الكفر والظلم ؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكنك تمتثلَ لأمر الله فى وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذى يحدثه الباطل فى تحديه

للنفس المؤمنة ، فإذا انتهت الأشهر الحرم كنت أكثر حماسة . تماماً كالإنسان الحليم الذى يرى إنساناً يضايقه باستمرار فيصبر عليه شهراً واثنين وثلاثة ، فإذا نفد صبره كان غضبه قوياً شديداً ، وقتاله شرساً ، ولذلك قيل : « اتقوا غضب الحليم » ؛ لأن غضبه أقوى من غضب أى إنسان آخر . وكذلك يكون حلْم المؤمن على الكافر فى الأشهر الحرم ؛ شحذاً لهمته إذا استمر الباطل فَى التحدى ، وفى هذا تحذير للمسلمين من أن تضعف فى نفوسهم فكرة القتال وعزيمتهم فيه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

وكلمة ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا سبقها أمران : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ فإلى أى طرف ترجع ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا ؟ هل تُرجعها إلى المؤمنين المقاتلين ، أم إلى المقاتلين من الكفار ؟ وهذا إثراء فى الأداء القرآنى فى إيجاد اللفظ الذى يمكن أن نضعه هنا ونضعه هناك فيعطيك المعنى .

ولكن هل يريدنا الحق أن نقاتل المشركين حالة كوننا – نحن المؤمنين – كافة ؟ أم نقاتل المشركين حالة كونهم كافة ؟ . إن « كَافَّةً » كما نعرف لفظ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى ، فالرجل كافة ، والرجلان كافة ، والقوم كافة ، وهى مأخوذة من الكف . وتطلق أيضاً على حافة الشىء لأنها منعت امتداده إلى حيز غيره . وفى لغة من يقومون بحياكة الملابس يقال : « كافة الثوب » حين يكون الثوب قد تنسل ، فيقوم الحائك بمنع التنسيل بتكفيف الثوب .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى : يٰأيها المؤمنون كونوا جميعاً فى قتال المشركين . وهى تصلح للفرد ، أى : للمقاتل الواحد ، وللمقاتليْن ، ولجماعة المقاتلين .

وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ذلك أن الباطل يتجمع مع الباطل دائماً ، والمثال الواضح فى السيرة أن يهود المدينة تحالفوا

مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل يجتمع مع بعضه البعض فاجمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك.

ويقول الإمام على كرم الله وجهه: « أعجب كل العجب من تضافر الناس على باطلهم وفشلكم عن حقكم »[١] ويتعجب الإمام على رضى الله عنه من أن أهل الحق يفرطون فى حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم . ويعطينا القرآن صورة من تجمُّع أهل الباطل فى قول اليهود لكفار مكة:

﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ... (٥١) ﴾ [النساء]

أى أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه[٢]، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله ﷺ سيأتى بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين: لقد أظل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك فى كتب أهل الكتاب نبأ رسول الله وأوصافه وزمانه. وعندما تحقق ما فى كتبهم كفروا به واجتمعوا مع أهل الباطل.

وهنا يوضح لنا الحق: ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلابد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال: « فيا عجباً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم هدفاً يرمى، وفيئاً ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَوْنَ ولا تَغزُونَ ، ويُعصَى الله وترضون ». انظر خطبته بكاملها فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيقى. نشر دار الروضة - القاهرة.

(٢) وذلك أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد. فقال أبو سفيان: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. ذكره القرطبى فى تفسير الآية ٥١ من سورة النساء .

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إذن : فالله يأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين ، ولأن الله مع الذين آمنوا ؛ لذلك فهو ينصر المؤمنين ، وإذا وُجدَ الله مع قوم ولم يوجد مع آخرين ، فأيُّ الكفتين أرجح ؟ لابد من رجحان كفة المؤمنين. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

والعلم - كما قلنا - حكم يقين عليه دليل ، أى لا يحتاج إلى دليل ؛ لأن العلم هو أن تأتى بقضية غير معلومة ، ثم تقيم الدليل عليها لتصبح يقيناً.

وإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فالعلم هنا ينتقل من علم يقين إلى عين يقين . والعلم - كما نعرف - قضية معلومة فى النفس يؤيدها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل . فإذا علمت بشىء أخبرت به ، ويقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك.

والمثال: حين قيل لأبى بكر رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: إنه أُسْرِىَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرجَ به إلى السماء السابعة ، هنا قال الصدِّيق : إن كان قد قال فقد صدق [1]، وكانت هذه هى ثقته فى القائل ، وهو يستمد منها الثقة فيما قال وروى.

وحينما أخبر رسول الله ﷺ سيدتنا خديجة رضى الله عنها بخبر الوحى وأبدى خوفه مما يرى ، قالت: « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكْسبُ المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين علَى نوائب الحق » [2]، وهى بذلك قد أخذت من المقدمات حيثيات الحكم وكانت أول مجتهدة فى الإسلام عملت بالقياس . فقد قاست الحاضر بالماضى.

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٩٠ .
(٢) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، وستة مواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) واللفظ للبخارى .
- تحمل الكل : أى تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق .
- تكسب المعدوم : تعطى المعدوم مالاً مالاً ، والمعدوم مكارم وأخلاقاً أخلاقاً حسنة طيبة .
- تقرى الضيف : أى أنك كريم جواد تطعم الضيف طعام القِرى .
- تعين على نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

وعندما يقول الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيكفينا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً فى نفوسنا، وهناك علم يقين يأتيك ممن تثق فى علمه وصدقه، وأنت إن رأيت الشيء الذى أخبرت به وشاهدته يصبح عين يقين، فإذا اختبرته وعشْت فيه يصبح حقَّ يقين.

وحين قال الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم يقين ، أو عين يقين ، أو حق يقين ؛ لأنهم شاهدوا ذلك فى المعارك حين كانوا قلة ، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية - لأن الله هو القائل - أخذه علم يقين . والذى أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين ، والذى أخذ الكلام كأنه عايشه فهذا عين يقين ، ولكى نعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)﴾ [التكاثر]

وهذه أولى الدرجات: علم يقين؛ لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾ [التكاثر]

أى : أنكم فى الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين ، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أى مشاهدة بالعين . وفى هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين وعين اليقين ، ففى الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم ، ويرى الناس - كل الناس ، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم ، وهم يمرون فوق الصراط ، ويرونها مشتعلة متأججة ،وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها ، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه ؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب،

وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن : الحمد لله الذى أنقذنى من النار . وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل :

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]

ويَرِدُ الشىء أى يصل إليه دون أن يدخل فيه [(١)] ، ويقال : ورد الماء أى وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر ؛ لأنه يُعذب فيها .

وقد ضربت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارىء أنها مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هى علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو

(١) اختلف الناس فى الورود على أقوال :
١ - الورود : الدخول . عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . . ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٧) وصححه وأقره الذهبى .
٢ - الورود : الممر على الصراط . ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط .
٣ - الورود : ورود إشراف واطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿ولما وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أشرف عليه لا أنه دخله .
٤ - ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا ، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها .
٥ - الورود : النظر إليها فى القبر ، فينجي منها الفائز ، ويصلاها من قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى ، واحتجوا بحديث ابن عمر « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » .
وقد جمع الإمام القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال : ظاهر الورود الدخول ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين ، قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنَّا نرد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .

يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين.

وفي سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة في سورة الواقعة ، فقال:

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة]

وحقُّ اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر في حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل في حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكابر في واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « وحينما شهرت سيفي لأقصف رأس فلان ؛ وجدت شيئاً سبقني إليه وقصف رأسه »[(١)] أي : هناك من شاهد ذلك بنفسه.

وبعد ذلك يعطي الله الحكم فيمن يُغيِّر الأشهر الحرم أو يُبدلها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول:

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٣٧) ﴾

(١) لم أقف على أثر عمر رضي الله عنه هذا رغم طول بحث ، ولكن وقع من حديث أبي واقد الليثي قال : « إني لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي » ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٧/ ٣١٣) وعزاه لابن إسحاق.

والنسيء هو التأخير ، فكأنهم إذا ما دخلوا فى قتال وجاء شهر حرام قالوا : ننقله إلى شهر قادم ، واستمروا فى قتالهم ؛ وهم بذلك قد أحلُّوا الشهر الذى كان محرماً وجعلوا الشهر الذى لم تكن له حرمة ؛ شهراً حراماً ، وهنا يوضح الحق سبحانه أن هذا العمل زيادة فى الكفر ؛ لأنه أدخل فى المحلل ما ليس منه ، وأدخل فى المحرم ما ليس منه ؛ لأن الكفر هو عدم الإيمان فإذا بدَّلْتَ وغيَّرْتَ فى منهج الإيمان ، فهذا زيادة فى الكفر.

ثم يقول سبحانه: ﴿ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا** ﴾ و﴿ **يُضَلُّ** ﴾ هنا مبنية للمجهول ؛ ومعنى ذلك أن هناك من يقوم بإضلال الذين كفروا ، وهذه مهمة الشيطان ؛ لأن هناك فرقاً بين الضلال والإضلال ، فالضلال فى الذات والنفس ، أما الإضلال فيتعدى إلى الغير ، فهناك ضال لا يكتفى بضلال نفسه ، بل يأتى لغيره ويضله ويغويه على المعصية بأن يزينها له . ولذلك هناك جزاء على الضلال ، وجزاء أشد على الإضلال ، فإذا كان هناك إنسان ضال فهو فى نفسه غير مؤمن ، أى أن ضلاله لم يتجاوز ذاته ، ولم ينتقل إلى غيره . ولكن إذا حاول أن يغرى غيره بالضلال والمعصية يكون بذلك قد ضلَّ وأضلَّ غيره . ويتخذ بعض المستشرقين هذه القضية مطعناً فى القرآن-بلا وعى منهم أو فهم- فيقولون: إن القرآن يقول:

﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ⑱** ﴾ [فاطر]

ثم يأتى فى آية أخرى فيقول:

﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ...⑬** ﴾ [العنكبوت]

فكيف يقول القرآن: إن أحداً لا يتحمل إلا وزره ، ثم يقول: إن هناك من سيتحمل وِزْره ووِزْر غيره ؟

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا المعنى ، فالأول: هو الضَّالُّ الذى يرتكب المعاصى ولكنه لم يُغْرِ بها غيره ، أى : أنه عصى الله ولم يتجاوز المعصيَة . أما الثانى : فقد ضلَ وأضل غيره . . أى : أنه لم يكتف بارتكاب المعصية بل أخذ يغرى الناس على معصية الله . وكلما أغرى واحداً على المعصية كان عليه نفس وِزْر مرتكب المعصية .

وهنا يقول الحَق : ﴿ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا**﴾ وطبعاً التحليل والتحريم هنا حدث منهم لظنهم أن هذه مصلحتهم ، أى أنهم أخضعوا الأشهر الحرم لشهواتهم الخاصة ، وخرجوا عن مرادات الله فى كونه ، يوم خلق السموات والأرض .

ولكن لماذا يُحلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ؟ تأتى الإجابة من الحق: ﴿ **لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾ أى : ليوافقوا عدة ما أحله الله حتى يبرروا ويقولوا لأنفسهم : نحن لسنا عاصين ، فإن كان الله يريد أربعة أشهر حرم ، فنحن قد التزمنا بذلك ! ولكن تشريع الله ليس فى العدد فقط ولكن فى المعدود أيضاً ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ الأشهر الحرم [1].

وكان عمرو بن لحى أو نعيم بن ثعلبة هما أول [2] من قاما بعملية النسئ هذه ، فأحلَّ شهر المحرم ، وحرَّم غيره .

وهؤلاء الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون أن هناك أربعة أشهر حرم بدليل أنهم أحلوا وحرموا . ولو لم يعرفوها ما أحلوا ولا حرموا ، ولكن هم أرادوا أن يُخضعُوا تشريع الله لأهوائهم . وهذا هو المغزى من تحليل

(١) عن أبى بكرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٧) ومسلم فى صحيحه (١٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء فى تحديد أول من نسأ الشهور على العرب ، فكونه عمرو بن لحى هو قول ابن عباس . أما كونه نعيم بن ثعلبة فهو قول الكلبى . وقد قال ابن إسحاق : إنه القَلَمّس وهو حذيفة بن عبد ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٥٧) وانظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٦٤) والقلمس فى اللغة هو: الرجل الداهية . انظر لسان العرب .

شهر المحرم وتحريم شهر آخر ، وأرادوا بذلك إخضاع مرادات الله لشهوات نفوسهم ؛ لأن المحرم ثابت فيه التحريم ، وهو شهر حرام سواء قام الإنسان بتأجيله أم لم يؤجله ، فهو شهر حرام بمشيئة الله لا مشيئة الناس. ولذلك حكم الحق سبحانه على النسئ بأنه زيادة فى الكفر ؛ لأنك حين تؤخر حرمة شهر المحرم إلى شهر غيره ، تكون قد قُمْتَ بعمليتين ؛ أحللت شهراً حراماً وهذا كفر ، وحرمت شهراً حلالاً وهذا كفر آخر . . أى : زيادة فى الكفر . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾ وقد حكم الله عليهم بالكفر بأنهم أحلوا ما حرمه الله .

ثم يقول الحق : ﴿ **زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ** ﴾ والتزيين : هو أمر طارئ أو زائد على حقيقة الذات مما يجعله مقبولاً عند الناس ، فالمرأة مثلاً لها جمال طبيعى ، ولكنها تتزين بأن تبالغ فى إظهار مفاتنها حتى تكون أجمل فى عيون الرجال ، هذا هو التزيين . إذن : فالتزيين تغيير فى المظهر وليس فى الجوهر . وهناك تزيين فى أشياء كثيرة ، تزيين فى الفكر مثلاً ، بأن يكون هناك استعداد للقتال فيأتى القائد فيزين للمقاتلين دخول المعركة ، ويقول : أنتم ستنتصرون فى ساعات ، ولن يصاب منكم أحد وسيفرّ عدوكم ؛ هذا تزيين محمود.

ولذلك أراد الحق أن يكشف لنا حقيقة التزيين الذى قاموا به حين حللوا حرمة الأشهر الحرُم ، وكشف لنا سبحانه أن هذا لون من التزيين غير المحمود فقال : ﴿ **زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ وما دام قد زُيِّن لهم السوء فهذا العمل قد خرج عن منطقة الهداية ، وخرج عن نطاق التزيين المحمود إلى التزيين السيئ . وما داموا قد خرجوا عن هداية الله فلن يعينهم الله ؛ لأنه سبحانه لا يعين من كفر ، ولا يعين من ظلم ، ولا يعين من فسق.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنهم بكفرهم قد أخرجوا أنفسهم عن هداية الله ، فالحق سبحانه لم يمنع عنهم الهداية ، بل هم الذين منعوها عن أنفسهم بأن كفروا فأخرجوا أنفسهم عن مشيئة هداية الله لهم ، وهذا ينطبق فقط على هداية المعونة ، ونحن نعلم أن لله سبحانه هداية دلالة وهداية معونة ؛ هداية الدلالة هى للمؤمن وللكافر ، ويدل الله الجميع على المنهج ، ويريهم آياته ،وتبلغ الرسل منهج السماء الذى يوضح الطريق إلى رضاء الله والطريق إلى سخطه وعذابه . فمن آمن بالله دخل فى مشيئة هداية المعونة ، فيعينه الله فى الدنيا ويعطيه الجنة فى الآخرة. أما من يرفض هداية الدلالة من الله ، فالله لا يعطيه هداية المعونة ؛ لأن الكفر قد سبق من العبد . وكذلك الظلم والفسق ، فيكون قد منع عن نفسه هداية المعونة بارتكابه لتلك الآثام.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

إذن : هم الذين قدَّموا الكفروالظلم والفسوق، فمنعوا عن أنفسهم هداية المعونة التى قال الحق عنها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وبعد أن طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يواجهوا الباطل جميعاً ، كما يجتمع الباطل عليهم ويقاتلهم جميعاً . يقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

وساعةَ تسمع ﴿ يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهذا نداء خاص بمن آمن بالله ؛ لأن الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن . ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعةَ تسمع : ﴿ يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به ؛ لأنك أنت الذى آمنت باختيارك ، ودخلتَ على الإيمان برغبتك ، فالحق سبحانه لم يأخذك إلى الإيمان قهراً ، ولكنك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لك : ما دُمْتَ قد آمنت بى إلهاً قادراً قيُّوماً ، له مطلق صفات الكمال ، فاسمع منى ما أريده لحركة حياتكَ.

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل فى الإيمان ولا ينفذ المنهج [1] ، ولا يحسب أحد أنه قادر أن يضر الله شيئاً ، وسبق أن ضربنا المثل بالمريض الذى يختار أبرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأجرى الطبيب الكشف على المريض ، وحدد الداء وكتب الدواء ، ولكن المريض بعد أن خرج من العيادة أمسك بتذكرة الدواء ومزقها ، أو أنه اشترى الدواء ولم يتناوله . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه ؟

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

إن الطبيب لن يتأثر ولن يضره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذى سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويُغرقها فى الشقاء ؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان نجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه الشقاء . بل يمتلئ بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فلن يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء ويهلك نفسه.

وحين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وهذه التكليفات لمَ تأتِ مبنية للمعلوم ، فمن الذين يكتب ؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : يأيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم . ولماذا يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ؟ . ونقول : لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين

آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف [1] ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك تم فى نفس اللحظة التى دخلت فيها باختيارك فى الإيمان . وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبتْ علينا باختيار كل منا ، فمن لم يَخْتَرْ الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أَحكام الإيمان ؛ لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ؛ وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان .

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من اللهَ ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كَلَّف . ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوى للمساوى ، فإن ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب فى الدواء وفوائده ؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كلية الطب واقْضِ فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تَعَالَ وناقشنى .

إذن : فأنت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يخطئ . أما إذا جئنا بمجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض احتار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر ؛ لأنه مُسَاو له فى الفكر والثقافة والعلم إلى آخره ، لكن إنْ أردتَ أن تسأل عن الحكمَة فى تكليف من الله فلن تجد مساويًا لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة .

(١) ويتضح هذا من حديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٦) ومسلم (١٩) . قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى (٣/ ٣٥٩) : « قوله : « فإن هم أطاعوا لك بذلك » أى : شهدوا وانقادوا . . واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دُعُوا أولاً إلى الإيمان فقط ، ثم دُعُوا إلى العمل » .

إذن : فالمكلف لابد أن تكون له منزلة سابقة على التكليف ، ومنزلة الحق أنك آمنت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ؛ ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فريضة الصوم عن المريض فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... (١٨٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسْمَح معها بالصوم .

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شئ غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ؛ لأن لحم الخنزير ملئ بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قَـلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر .

ونعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ ، ونجد كلمة : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ تأتى حين نتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار

أمر متوقع وتقتضيه الحال ؛ لأن المؤمنين حين يقاتلون الكفار إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدى الكافرين فقد ينحرف منهم من تراوده نفسه على الانحراف ، أما إن وجد من يضرب على أيدى الكفار ، فإنه بفعله هذا يربب فى المؤمن إيمانه ؛ لأنه يرى عدوه وهو يتلقى النكال . كأن تقول للتلميذ : ما لك تهمل فى مذاكرتك وقد قَرُبَ الامتحان ؟ أى : أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لابد أن يجتهد الطالب فى المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فنحن نتعجب من سلوكه ؛ لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستنكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستنكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم.

ويتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال ؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت . ويعطى ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين.

إذن : فَلِكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً ؛ لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق : ﴿**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار هذا

الأمر موطناً للتعجب ؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال فى سبيل الله أو أن يتكاسلوا .

وقوله سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ من «النفرة» وهى الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً فى مكانه ، قد يأتى أمر يهيجه فيقوم ليفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنت مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط فى بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنطلق من مكانك لتجذبه بعيداً ، ومنه النُّفْرة التى تحدث بين الأحباب الذين يعيشون فى وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوِّل هذا الود إلى جَفْوة .

إذن : فكلمة ﴿ انفِرُوا ﴾ تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعى الذى يجب أن يكون ؛ لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجهتهم . وقول الحق سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ يدل على الاستفزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ .

والثقل معناه : أن كتلة الشئ تكون زائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشئ ثقيل فهذا يعنى أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما التثاقل فهو عدم موافقة الشئ لطبيعة التكوين . كأن تقول : فلان ثقيل أى أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة .

ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة ، أى : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تتصنع أنك غير قادر ، كأن يكون هناك - على سبيل المثال - شئ وزنه رطل ، ثم تدَّعى أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ** ﴾ أى : تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم.

وهكذا نعرف أن الموقف يقتضى النفرة ليواجهوا الكفر ؛ لأن المنهج الذى ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل ، فالنفرة تكون فى سبيل الله ، والمقابل فى سبيل الشيطان أو فى سبيل شهوات النفس.

لقد تحدث العلماء فى المسائل التى تجعل الإنسان يُقبلُ على المعصية ، وهى النفس التى تُحدِّث الإنسان بشئ ، فالإنسان يقبل عَلى المعصية بهذين العاملين فقط . فما الفرق بين الاثنين ؟ وكيف يتعرف الإنسان على ذلك ؟ قال العلماء : إذا كانت النفس تُلحُّ عليك أن تفعل معصية بعينها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تُلحُّ عليك لاقتراف نفس المعصية لتحقق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمَّارة بالسوء.

ولكن الشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمنهج الله على أى لون ، فإذا استعصى عليه أن يجذبك إلى المال الحرام ، فهو يزين لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من ناحية الخمر . إذن : فهو يريدك عاصياً بأى معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التى تشتهيها. وهذا هو الفرق.

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون منهج الله فى الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتثاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو إغراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ** ﴾ والرضا هو حب القلب ، فيقال : فلان رَاضٍ لأنه مسرور بالحال الذى هو فيه.

ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال فى سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر فى داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة . ولكن المنطق الإيمانى يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية ، فلابد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء ؛ لأنه رضى بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله.

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة فاحصة ، تجد أنها متغيرة متبدلة ، فالصحيح يصبح مريضاً ، والغنى يصبح فقيراً ، والقوى يصبح ضعيفاً.

إذن : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر ؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت ؛ تقهرك ولا تستطيع أنت أن تقهرها . فإن رضيت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى غد.

ولهذا ينبغى ألا تؤخر تنفيذ ما يكلفك به الله ؛ لأنك الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا [1] . كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلبك حريتك أو مالك ، بل هو يسلبك ويعطيك فى نفس الوقت. فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرجَ الزكاة ، قد تعتقد أن هذا يُنقصُ مالك [2] ، أو تقول : هذه غرامة. نقول : إن هذا فى ظاهر الأمر قد

(١) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبى. وقد أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً بسند صحيح، قاله ابن حجر فى الفتح (١١/ ٢٣٥).

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩).

يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك ويُنميه [١] فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذى يأخذ منك الآنَ وأنت غنى ، هو بذاته الذى سوف يعطيك إن افتقرتَ ولجأت إلى الناس. فإذا كان الحكم الذى سيأخذ هو الذى سيعطى تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها ، وساعةَ تعطى أنت الذى لا يملك، لابد أن تتذكر أنه قد يأتى عليك يَوْمٌ لا تملك فيه.

وكلمة دنيا بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعى الذى ينطبق عليها ؛ لأن "الدنيا "مقابلها "العليا " . والحياة العليا تكون فى الآخرة . فإذا كانت هذه هى الحياة الدنيا . فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خَوَراً فى العزيمة ؟

والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدى أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطراً . وذلك من غزارة وجود العطر الذى كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذى كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أخشن منه ، وامتنع عن العطر ، أى : أن معاييره قد تغيرت وليس فى هذا أدنى تناقض ، بل هو علو فى الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسى إلى الإمارة فقلت لها : اقعدى يا نفسُ ، فلما نلْتُهَا اشتاقت نفسى إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك ، فلما نلْتُها ؛ أى نال الخلَافة ، اشتاقت نفسى إلى الجنة فسلكتُ كل طريق يؤدى إليها [٢] .

---

(١) انظر إلى قول رسول الله ﷺ : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله تعالى بيمينه، فيربيها كما يربى أحدكم فلوه (مهره) أو قلوصه (الفتية من الإبل) حتى تكون كالجبل أو أعظم » وهو حديث متفق عليه من حديث أبى هريرة ، أخرجه البخارى (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤).
(٢) أورد هذا الأثر أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

وهكذا نعـرف أن سلوكـه رضى الله عنه لم يكن فى تناقض بل تعليـة للصفقة الإيمانية . كان دائماً فى علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققتْ أراد أن يعلوَ فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً فى عُلُوٍّ.

وأقـول : ليس فى سلوكـه أدنى تناقض ؛ لأن علمـاء النفس يفسـرون التناقض فى السلوك البشرى على أنه اختلاف فى المقارنة ، فالإنسان يقارن بشئ ثم يقارن بشئ آخر وهكذا ؛ لأن كل شئ فى الدنيا نسبى . ومعنى النسبيـة أن ينسب الشئ لما حوله ، فإذا قلت : إننى أسكن فـوق فـلان ، فـأنت فى نفس الوقت تسكن تحت فـلان الذى يعـيش فى الطابق الذى يعلوك.

إذن : فـأنت فـوق فلان وتحت فـلان فى نفس الوقت ، فـلا تأخذ نقطة وتغفـل عن الأخرى ، وهـذا اسـمـه "معـنى إضـافى " أى : أن المعـانى لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شئ تقاس به ، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التى تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت إلى الدنيا ؛ تجد أن الحق سبحانه أسماها : دُنْيا ولم يجد اسماً أقلَّ من هذا ليسميها به ، لماذا ؟ لأنك تتنعم فى الدنيا على قدر وجودك فيها ، أى على قدر عمرك ، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة ، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل . ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذى عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها ، والذى عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر.

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال . وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع فى الدنيا ؛ متاع صاحب الملايين ، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه تتحقق. إذن : فنعمة الدنيا إما أن تنخلع منك أو تنخلع أنت منها.

فإذا جئتَ إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لايزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع فى الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه . فكأن المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه. فمثلاً : إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به ، تكون فى ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك ؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك فى الحقيقة فضَّلْتَ نفسك على الفقير ؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف ، فمَنْ منكما الذى استفاد ؟ ومَنْ منكما الذى انتفع ؟ إنه أنت.

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء ، ويُعْلى فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى. فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفى حقيقته أنك قد أخذت . وأنت حين تعطى إنساناً مساوياً لك كأن تقدم له هدية فى مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها فى مناسبة أخرى . إذن : فالعطاء مُتَساو ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوى ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكِّنه من أن يردها لك. لكن الحق سبحانه يقول:

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...(٢٤٥)﴾ [البقرة]

إذن : فحينما تعطى ابتغاء وجه الله فأنت لاتحصل على عطاء مُسَاو لما أعطيت . لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذّى يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن ينفد عطاؤه لك ؛ لأنه دائم القدرة ، ولن يأتى عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد

لك ما أعطيت ؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض ؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فضَّلْتَ الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهى مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفتَ أن الذى يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطى وتعمل طلباً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ أى : أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة .

وكلمة ﴿ مِنَ ﴾ تدل على البدل فى قوله : ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء ، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك ، فأنت تقول : اشتريت الشىء بكذا درهم ،أى : تركت الدراهم مقابل شرائك الشىء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه : ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ والمتاع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حى مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك مَنْ حياتهم كلها تعب ، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة فى الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتياً ؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف ؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء - حين يرون فى نعمة الله عليهم ما يكدر حياتهم - يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السطحى التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة . العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش فى دنيا

أغيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففى الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائماً.

وهَبْ أن إنساناً وصل إلى القمة التى لا يوجد أعلى منها . نقول له : لا داعى أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء ، ولا تنس أنك تعيش فى دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لغيرك ما وصلتَ أنت إلى القمة ؛ لأن مَنْ كان عليها سقط فصعدتَ أنت .

إذن: فمعنى هذا أنك وإن وصلتَ للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير . وما دمتَ قد وصلت إلى أعلى ما يمكن ، فالتغيير الوحيد الذى يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل ؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعُدْ بعدها شىء تصعد إليه . فالتغيير المتوقع لابد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « ترقَّبْ زَوالاً إذا قيل تَمّ » ، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن المصائب فى الأموال والأنفس من تمائم النعمة ، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم ؛ لأنها إن تمت تزول ؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلابد أن تزول.

وسبحانه حين يقول: ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول: شىء فى شىء . فأيهما يكون أكبر ؟ إنه الذى يدخل فيه الشىء الآخر ، فإذا قلنا: فلان فى البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا : محمد فى جدة أو فى المملكة السعودية أو فى مصر ؛ يكون هناك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه: ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ معناه: أن متاع الدنيا يتوه فى متاع الآخرة ؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوى متاع الدنيا ويزيد ، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك أن سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية . فإذا زاد الحق سبحانه وقال: ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة.

لكن هذا الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ **إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين فى الدنيا .

ومثال هذا : أنك تجد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتجده يعتقد أن المتاع لايمكن أن يزيد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له: لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

وإذا كان غير المتمتع بشىء من متاع الدنيا ينظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك ؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش فى الجنة ، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له: لا، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن : فقوله سبحانه ﴿ **إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذى لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين فى العالم . فقد يعيش إنسان فى قصر ضخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريده

أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش فى درجة الحرارة التى يريدها داخل قصره ، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر ؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسى إلى المكان الذى يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تشبه الحلم الجميل .

إذا عاش إنسان فى هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له: لا تنبهر ، فهذا المتاع الذى تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل.

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذى ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ يدل على أن فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم: لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم فى الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففى هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله ﷺ يقول: « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً » [1]

أى: أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار واد واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٣٧) عن عبد الله بن الزبير .

لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده . ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخلق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى.

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يَجدُّ فى دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل . أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل فى معاناة بقية حياته.

إذن : فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد ؛ الأول : أعطى نفسه مستقبلاً مريحاً ممتداً ، وصار قمة من قمم المجتمع ، والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذن : فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط ؛ لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق ، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾

[التوبة]

نزل فى غزوة تبوك (١) ، وهى أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقتْها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين فى بدر أو فى مكة ، أو مع اليهود فى مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك فى محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية . وحينما بدأ تجهيز الجيش ليذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تثاقل المسلمون . وهنا يبرز استفهام : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حزنوا حين انتصر الفرس على الروم ؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يذهبون ليحاربوهم ؟

نقول : نعم ؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف فى قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام .

ولذلك فإن المؤمن الحق ينفعل للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى سبيل المثال ، نجد قلب سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ،

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٦٦) : « لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلُّف من تخلّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام » .

بينما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مملوءاً قوة وحزماً ، انظر إلى موقف الاثنين عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا الزكاة ؛ وقرر أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين ؛ لأنهم أنكروا ركناً من أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب ضد رأى أبى بكر وقال: يا أبا بكر أنحارب أناساً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال أبو بكر : أجبار يا عمر فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟ و الله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه [1] .

وهكذا انقلبت المواقف ؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبى بكر الذى كان مشهوراً بالرقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر باللين ، وهو المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذى قال كلمة أبى بكر لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر.

ولكن الناس قالوا عن عمر الشديد : « قد لاَنَ قلبه بينما اشتد قلب أبى بكر » هذه هى المواقف الإيمانية التى تملأ نفس كل مؤمن . فالذى يصنع موقف المؤمن هو إيمانه لا طبعه ؛ ولذلك قال الحق فى وصفه للمؤمنين :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤) ﴾ [المائدة]

(١) عن ضبة بن محصن الغنوى قال: « قلت لعمر بن الخطاب : أنت خير من أبى بكر فبكى وقال : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عُمْر عمر ، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين. قال : أما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى. وقال بعضهم : لا نصلى ولا نزكى ، فأتيته ولا آلوه نصحاً . فقلت : يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم . فقال : جبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام، فبماذا أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو سحر مفترى؟ » الحديث أورده المتقى الهندى فى منتخب كنز العمال (٤/ ٣٤٩) وعزاه للدينورى فى المجالسة ، وأبى الحسن بن بشران فى فوائده ، والبيهقى فى دلائل النبوة ، واللالكائى فى السنة .

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً فى الوقت نفسه ؟ وكيف يوصف الشخص نفسه بأنه عزيز وذليل ؟ وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان فى شخص واحد ؟ لكنك تقرأ ما يطمئنك فى قول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩) ﴾

[الفتح]

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم رحماء ، ولكى تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن المواقف الإيمانية هى التى تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحددها طباعه الخاصة والشخصية ، وهو يُكيِّف مواقفه حسب الموقف الإيمانى وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ، وذليل وعزيز .

ونعود إلى غزوة تبوك التى نزلت فيها الآية التى نتناولها بخواطرنا وإلى السؤال : كيف يحارب المسلمون الروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة الروم من الفرس ؟ ونقول : لقد حزن المسلمون لأن إلحاداً ينكر الألوهية قد انتصر على إيمان مرتبط برسالات السماء ؛ ولأن الروم - وهم نصارى - مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من الكفار ، إذن : فالمسألة قد أُخذَتْ من ناحية الوجود الإلهى . أما فى غزوة تبوك فقد أُخذَتْ من ناحيةَ قبول المنهج الناسخ ومنع الدعوة له ، ولهذا تحول الموقف فى غزوة تبوك إلى عداء إيمانى ، وهذا هو السبب الذى أدَّى إلى الحرب [1] .

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٨/ ١١١) : « كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا : بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب ، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء ، فندب النبى ﷺ الناس إلى الخروج ، وأعلمهم بجهة غزوهم » .

فإذا نظرنا إلى الغزوة نفسها نجد أن تبوك تبعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التى قاتل المؤمنون فيها قتالاً شديداً . وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال.

إذن : فقد اجتمعت المشقة فى هذه الغزوة ؛ مع حرارة الجو ؛ وبُعْد المسافة ، وكانت قوى المسلمين مُنْهكَة من غزوة حنين . وكان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال ؛ إلا هذه الغزوة فقد بيَّنها رسول الله ﷺ لصحابته قبل أن يغادروا المدينة ؛ لكى يستعدوا للمشقة التى تنتظرهم . وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس فى ظل البساتين الموجودة فى المدينة ويأكل من ثمارها . واستطاب - هذا البعض - الثمار والظلال ؛ لذلك تباطأوا فى الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التى بعدها لتوضح وتُبيِّن العقوبة ، فقال الحق:

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى: إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله ينذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذر به ، فأنتم إن لم تنفروا مخافة العذاب المظنون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تنفذوا أمر الله بالنَّفْرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحر

الشديد ، وبين عذاب الله ، فالمؤمن سوف يختار - بلا شك - مشقة الحرب مهما كانت ؛ لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السفر ، وقسوة القتال لا يمكن قياسها بعذاب الله ؛ لأن العذاب الذى ينتظر مَنْ يتباطأ أو يفرُّ من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للزحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إذن : فلا تظنوا أنكم بتباطئكم ؛ وعدم رغبتكم فى القتال ستضرون الله شيئاً ؛ لأن الله قادر على أن يأتى بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير ، لذلك يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾ [محمد]

فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة منهج الله بالبخل أو التخاذل ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والتضحية فى سبيل الله ؛ لأنه القادر فوق كل الخلق .

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو حيثية للأحكام التى سبقتها من قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظرى ، فالحق سبحانه يضرب لهم المثل العملى من الواقع الذى شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كفار قريش ليقتلوه فنصره الله عليهم ، فقال جل جلاله:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه: ﴿إِلاَّ تنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وكعادتهم - كمشككين فى الإسلام - نجدهم يبذلون جهداً كبيراً فى محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها فى القرآن الكريم فيقولون : إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكّن أذهانكم من الجراءة اللازمة للبحث فى أساليبه ؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل. ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادى لا قداسة له فسوف تجدون فيه التضارب والاختلاف .

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث فى مجال النحو بالقرآن الكريم ، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء ، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هى جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، فهم قد أخذوا ظاهر اللغة العربية ، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم ، وقالوا: إن أساليب الشرط فى اللغة العربية تقتضى وجود جواب لكل شرط ، فإن قلت: إن جاءك زيد فأكرمه ، تجد الإكرام يأتى بعد مجىء زيد ، وإن قلت: إن تذاكر تنجح ، فالنجاح يأتى بعد المذاكرة . إذن: فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط .

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشككونا فى القرآن . ونقول لهم : إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق فى الأمر نجد أن الجواب سبب فى الشرط ؛ لأنك حين تقول: إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح فلن يذاكر ، بل لابد أن يتصور الطالب فى ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن : فالجواب سبب دافع فى الشرط ، ولكن الشرط سبب فى الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصُّور النجاح أولاً هو سبيل لبذل الجهد فى تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة منفكة ؛ لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع .

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ فعل مضارع ، زمنه هو الزمن الحالى ، ولكن الحق يتبع المضارع بفعل ماض هو :﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ فهل يكون الشرط حاضراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً ؟ ونقول: إن المعنى : إلا تنصروه فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك . وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينفروا فتثاقلوا ، أوضح لهم سبحانه : أتظنون أن جهادكم هو الذى سينصر محمداً وينصر دعوته ؟ لا ؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل فى مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر فى الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفار مكة ، وكذلك نصره فى بدر بجنود لم تروها ، إذن : فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هى الجواب ، بل هى دليل الجواب .

ونرى فى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، فـ ﴿ إِذْ ﴾ تكررت ثلاث مرات ، فسبحانه يقول:

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى: أننا أمام ثلاثة أزمنة : زمن الإخراج ، وزمن الغار ، والزمن الذى قال فيه رسول الله ﷺ لأبى بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وقد جاء النصر فى هذه الأزمنة الثلاثة ؛ ساعة الإخراج من مكة ، وساعة دخل سيدنا رسول الله ﷺ مع أبى بكر إلى الغار ، وساعة حديثه مع أبى بكر .

ولسائل أن يسأل : هل أخرج الكفار رسول الله من مكة ، أم أن الله هو الذى أخرجه ؟ ونقول: إن عناد قومه وتآمرهم عليه وتعنُّتهم أمام دعوته ، كل ذلك اضطره إلى الخروج ، ولكن الحق أراد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذى أراده الكفار ، فهم أرادوا قتله ، وحين خرج ظنوا أن دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس ، فأخرجه الله لتنساح الدعوة ، وأوضح لهم سبحانه : أنتم تريدون إخراج محمد بتعنتكم معه ، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً ، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار . وقالوا: إن الهجرة توأم البعثة . أى : أن البعثة المحمدية جاءت ومعها الهجرة ، بدليل أن رسول الله ﷺ حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، بعد ما حدث له فى غار حراء ، قال له ورقة : ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن يتثبت من النبوة ، فقال رسول الله ﷺ : أَمُخْرِجِىَّ هم ؟ قال ورقة بن نوفل: نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِى [1]

إذن : فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله ﷺ بالرسالة ، لماذا ؟ لأنه ﷺ كان أول من أعلن على مسامع سادة قريش رسالة الحق والتوحيد.

(١) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، ومواضع أخرى)، ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .

ففكرة الهجرة مسبقة مع البعثة ؛ ولأن البعثة هى الصيحة التى دوَّت فى آذان سادة قريش وهم سادة الجزيرة . ولو صاحها فى آذان قوم ليسوا من سادة العرب لقالوا : استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صيحة البلاغ جاءت فى آذان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا فى تعذيب المسلمين ليقضوا على هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا ينصره بقريش فى مكة ؛ لأن قريشاً ألفَتْ السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى الإسلام ، لقال من أرسلَ فيهم : لقد تعصبتْ له قريش لتسود الدنيا كما سادت الجزيرة العربيةَ . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا : لا . لقد كانت الصيحة الأولى فى آذان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام والانسياح الدينى لا من هذه البلدة بل من بلد آخر ؛ حتى لا يقال : إن العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان برسالة محمد ﷺ . ولكن الإيمان برسالة محمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ .

ويلاحظ فى أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » . وهذا يدلنا على أن رسول الله ﷺ لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكأن قومه أعنتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر ؛ لأن رسول الله ﷺ خرج وحده من بيته ؛ الذى أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه ضربة رجل واحد ، وينثر عليهم التراب فتغشى أبصارهم ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ينتظره فى الخارج (١) ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا من محمد ؛ لا بتآمر خفى ، ولا بتساند علنى . وهذا نصر من الله.

(١) ليس المعنى هنا أن أبا بكر رضى الله عنه كان ينتظر رسول الله ﷺ خارج البيت أو فى مكان قريب منه، ولكن المقصود أنه ﷺ خرج وحده من بيته ليلاً واخترق صفوف أربعين فتى قوياً قد شهروا سيوفهم لقتله إن هو خرج من بيته وكان وحده ، فالثابت فى السيرة أن أبا بكر كان فى بيته مع أهل بيته وقت الظهيرة وجاءه رسول الله ﷺ متخفياً وقال له : « إنى قد أذن لى فى الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله . فقال ﷺ : نعم . وتواعدا ثم خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر . أخرجه البخارى (٣٩٠٥) وأحمد (٦/ ١٩٨ ، ٢١٢) وأبو نعيم فى دلائل النبوة (ص ٢٧٠) وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٧) .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، ويتأكد فى الغار نصر آخر . ذلك أن قصاص الأثر الذى استعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خزاعة قد تتبع الأثر حتى جاء عند الغار ، وقال: هذه قدم محمد وهو أشبه بالموجود فى الكعبة ، أى أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال: هذه قدم أبى بكر أو قدم ابنه وما تجاوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف: إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا فى جوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فإنهم لم يدخلوا الغار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن ، فمادامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله . لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك .

وجاء واحد منهم وأخذ يبول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب فى قول أبى بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا .

فقال رسول الله ﷺ بفطنة النبوة: لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم [(١)] وهذا دليل على أن العربى كان يأنف أن تظهر عورته ، أو هى كرامة لمحمد ﷺ ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذها القارئ كما يأخذها ، وهى على كل حال فيض إلهامى لرسول الله ﷺ ، كذلك جعل الحق سبحانه العنكبوت ينسج خيوطه على مدخل الغار ، وجعل الحمام يبنى عُشّاً فيه بيض ،

(١) قد جاء هذا فى أحاديث فيها مقال ، فعند الطبرانى من حديث أسماء بنت أبى بكر « فقال أبو بكر - لرجل مواجه الغار - : يا رسول الله إنه ليرانا . فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل هذا » فيه يعقوب بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . قاله الهيثمى فى المجمع (٦/ ٥٤) وعند أبى يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أبى بكر الصديق قال ﷺ : « لو رآنا لم يستقبلنا بعورته » وفيه موسى بن مطير وهو متروك . وانظر فتح البارى (٧/ ١١)

وجعل سراقة بن مالك يقول : لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا الغار ، وإلا لكانا قد حطَّما عُشَّ الحمام ، وهتكا نسيج العنكبوت .

ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]

ويظهر الإعجاز الإلهى هنا فى : أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله تجلَّتْ فى أن يجعل خيط العنكبوت أقوى من الفولاذ، وكذلك شاء الحق أن يبيض الحمام وهو أودع الطيور ، وإنْ أهيجَ هاج . وهذا نصر ، ثم هناك نصر ثالث نفسى وذاتى ، فحين قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، نجد رسول الله ﷺ يرد فى ثقة بربه: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »(١) .

هذا الرد لا ينسجم مع سؤال أبى بكر ؛ لأن أبا بكر كان يخشى أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا مَنْ فى الغار ، وكان الرد الطبيعى أن يقال: «لن يرونا» ، ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى اللازم الأعلى ، فقال: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، لأنه ما دام رسول الله ﷺ وأبو بكر فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ؛ فمن فى معيته لا تدركه الأبصار .

وتكون كلمة رسول الله ﷺ الذى تعوَّد أبو بكر منه الصدق فى كل ما يقول ، تكون هى الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله ﷺ: إنه أسْرى به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء ، قال أبو بكر:

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) .

إن كان قد قال فقد صدق[١] . فحين يقول رسول الله ﷺ لأبى بكر فيما يحكيه سبحانه: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ ، فلابد أن يذهب الحزن عن أبى بكر ، وقد خشى سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقوباً ، خشى أن يكون فيها حيات ، أو ثعابين، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقوب ؛ حتى لم يَبْقَ من الثوب إلا ما يستر العورة ، فسدَّ الثقوب الباقية بيده وكعبه[٢] .

إذن: فأبو بكر يريد أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه ؛ لأنه إن حدث شىء لأبى بكر فهو صحابى ، أما إن حدث مكروه لرسول الله ﷺ فالدعوة كلها تُهدم . إذن : فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان ، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله ﷺ أن يُصَابَ بمكروه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ اختلف العلماء[٣] فى قوله تعالى ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ ، هل المقصود بها رسول الله ﷺ ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر ؟ وما دامت السكينة قد نزلت ؛ فلا بد أنها نزلت على قلب أصابه الحزن . ولكن العلماء يقولون : إن الضمائر فى الآيات تعود على رسول الله ﷺ ، فالحق قال: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ** ﴾ أى محمداً عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه يقول: ﴿ **فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ﴾ أى محمداً ﷺ ، ويقول أيضاً: ﴿ **إِذْ أَخْرَجَهُ** ﴾ أى محمداً ﷺ ، فكل الضمائر فى الآية عائدة على رسول الله ﷺ .

---

(١) سبق هذا الحديث قريباً وقد خرجناه هناك . ومن حديث أبى الدرداء قال النبى ﷺ عن أبى بكر « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ (مرتين) إنى قلت : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم : كذبت، وقال أبو بكر : صدقت» . أخرجه البخارى (٣٦٦١، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

(٢) قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : « والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك ، فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاعى فخشى أبو بكر أن يخرج منه شىء يؤذى رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعل يضربنه ويلسعنه الحيات والأفاعى» سبق إيراد جزء منه من حديث ضبة بن محصن ص ٥١١٩

(٣) انظر : تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٧٤) وابن كثير (٢/ ٣٥٨) ، وقد رجح القاضى أبو بكر بن العربى أن سكينة الله إنما نزلت على أبى بكر .

ثم يأتى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ إذن: فلابد أن يعود الضمير هنا أيضاً على رسول الله ﷺ ، وأقول: ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهذا قول رسول الله ؛ ولابد أن قوله هذا يجعل السكينة تنزل على قلب أبى بكر . إذن : فالضمير هنا عائد على أبى بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقد رأى الكفار عُشَّ الحمام وبيت العنكبوت ، وهذا ما منعهم من أن يروا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليس هذا هو المقصود - فقط - بالآية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعنكبوت والحمام مرئيان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا فى الغار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات ، ولم تخطر على بالهم . ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقة بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﷺ وأبى بكر ، وهما فى طريقهما إلى المدينة ، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه فى الرمال [1] ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقال فى آية أخرى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

إذن: فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله ﷺ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله . وكل شىء فى هذا الكون من جنود الله ؛ فهو سبحانه

(١) قصة سراقة بن مالك بن جعشم أخرجها مطولة تامة البخارى فى صحيحه (٣٩٠٦) معلقاً مجزوماً به من قول ابن شهاب الزهرى من حديث سراقة ، وأخرجه أحمد موصولاً فى مسنده (٤/ ١٧٦).

وتعالى الذى سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر (١) ، فكأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الكافر ليكون دليله فى رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر فى خدمة الإيمان ، وفى الوقت نفسه فكل ما رصدتْه قريش من جُعل (٢) لمن يدلُّها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ .

الحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بقتل رسول الله ﷺ ، أو نَفْيه بإخراجه إلى مكان بعيد ، أو سجنه (٣) ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت فى وقت ما فى عُلُوٍّ . وإن كان عُلوها هو علو الزَّبَدِ على الماء الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

[الرعد : ١٧]

---

(١) عن عائشة قالت : « استأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً هادياً خريتاً ؟ (أى ماهراً بالهداية) . . . وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٦٣) . وقد كان ماهراً فعلاً بدروب الطريق إلى المدينة . انظر تفاصيل الطريق الذى سلكه بهما فى سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٠٤ - ١٠٨) .

(٢) الجعل : هو ما رصده كفار قريش مكافأة لمن يدلهم على محمد من مال وغيره .

(٣) ويقول عز وجل فى هذا : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ومعنى يثبتوك : يجرحوك جراحة . . لا تقوم معها أو ليحبسوك

ولقد ضرب الله هذا المثل فقال :

﴿أنزلَ منَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد : ١٧]

أى : أن كل واد أخذ ما قدره الله له من الماء .

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد : ١٧]

وهذا نلاحظه عندما يحدث سيل ، ونجده يأخذ معه القَشَّ والقاذورات التى لها كثافة قليلة ؛ لتطفو على سطح الماء ، ولكن أتظل عليه ؟ . لا ، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت فى عُلُوٍّ كالزَّبَد ، ولكن : لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر ؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عال فيجعله أسفل ؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ ، فالنسق الأدائى فى القرآن كان لابد أن يتم على أساس ؛ لذلك جاء القول : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ ؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هى العليا ، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلاً ، فهى لم تكن فى أى وقت من الأوقات إلا

وهى العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب ؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هى العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشىء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعِزَّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد فى غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا فى نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال فى سبيل الله قد يكون مشقة فى ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

ففى هذا القيـام مغفـرة وتـوبة ، وهو رحـمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل :

« الله أفـرح بتـوبة عبده من أحـدكم سـقط على بعـيره وقد أضلـه فى أرض فلاة »[١]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « قالت السماء : يا ربى إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ؛ لأنه طَعمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يارب إئذن لى أن أغرِقَ ابن آدَم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض مثلهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[٢] .

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انفِرُوا ﴾ أى : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان فى قلوب المسلمين ، وفى الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال فى غزوة تبوك . ولذلك قال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ والنفـرة : هى الخروج إلى شىء بمهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ،

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخارى . و« سقط على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أن ضَلّ منه ، والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/ ٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج على الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : ﴿ انفِرُوا ﴾ والذى يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم القوى الذى لا تتعبه ولا ترهقه الحركة . والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال ؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح : ١٧]

فقال : والله أكَثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم [١] .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُسْتشار فى مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة فى قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

(١) قال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٦) وتكثير السواد : تكثير أعدادهم .

واختلف العلماء [١] فى تفسير قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة فى الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ثِقَالاً﴾ جمع « ثقيل »، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة إلى آحاد .

والمعنى : أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن فالآية تعنى : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن: كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً فى وقت واحد ؟ نقول : يكون خفيفاً أى : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أى : أنه سيدخل فى مشقَّة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦]

والدخول فيما هو مكروه [٢] فى سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن: فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهى تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً فى ذاته ، أو : أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية على عشرة أقوال . ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال: والصحيح فى معنى الآية أن الناس أُمروا جملة ، أى : انفروا خفَّت عليكم الحركة أو ثقلت .

(٢)قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٩٥٢) : « إنما كان الجهاد كرهاً؛ لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى » .

فى الحركة والثقل فى المشقة ، أو : أن يكون الذى يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع فى الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً فى أول التشريع ، ثم يُصعَّد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتى الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال فى قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال : ٦٥]

وهنا يعطى الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أى : أن النسبة هى واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال : ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين فى مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال]

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فَاراً [١] ؛ لأنهم أكثر من النسبة التى قررها الله .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ **انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً** ﴾ هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أى : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين [٢] . ولكن هناك قول آخر فى سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه :

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذينَ لا يَجدُونَ مَا يُنفقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للَّه وَرَسُوله مَا عَلَى الْمُحْسنينَ من سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لتَحْملَهُمْ قُلْتَ لا أَجدُ مَا أَحْملُكُمْ عَلَيْه تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفيضُ منَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجدُوا مَا يُنفقُونَ (٩٢)** ﴾ [التوبة]

أى : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان [٣] بذكرهم أىُّ حرج فى أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التى فرضت على كل مؤمن أن يقاتل فى سبيل الله ، وهو ما جاءت به الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١١٥١) مرفوعاً من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٨) : « رجاله ثقات » . وقد أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٥٣٨) موقوفاً على ابن عباس من طريق ابن أبى نجيح عن عطاء عنه .

(٢) قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٧) : « وذلك إذا تعيَّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتل أو مكثِّر » .

(٣) قيل : إن آية ﴿ **انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً** ﴾ منسوخة بهاتين الآيتين ، وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فرْقَةٍ مّنْهُمْ طَائفَةٌ لّيَتَفَقَّهُوا فِي الدّينِ وَلِيُنذرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٢] . قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٦) : « والصحيح أنها ليست بمنسوخة » قلت : فالجهاد أحوال حسب ظروف المعركة ، فمنها ما يتوجب فيها القتال على كل أحد كما بينَّا ويكون الجهاد حينئذ فرض عين ، ومنها ما لا يتوجب فيها القتال فيكون فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك إذا كان العدو خارج الحدود ولم يغز البلاد ويحتلها .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمال هو الذى يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّداً بالسلاح ، وبالمركبات وهى مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذى يكفى لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بماله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ ، و « جاهد » و «قاتل» مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلابد أن تبذل كل جهدك فى قتاله ، و«جاهد» مثل «شارك» ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن : فهناك مفاعلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتى أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أى : اغلبه فى الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أى : اغلبوهم فى الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو: الطريق الموصل إلى الغاية التى هى رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إذن : فـ « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ لَّكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هى كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن: النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص: ٣٢]

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن: فقول الحق : ﴿ذَلِكُمْ ﴾ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أى خير يتحدث سبحانه ؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن : فالجهاد خير من القعود .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل فى اللغة استعمالين ؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

ويكون مقابلها فى هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتى «خير» بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفى هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1]

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استُعْمِل فى أفعل التفضيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثانى ، والاثنان مشتركان فى الخيرية .

وعلى سبيل المثال كان عند رسول الله ﷺ عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضى الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٠) وابن ماجه فى سننه(٧٩، ٤١٦٨) والحميدى فى مسنده (١١١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأنت قد علمت ورأيت محبتى لك فاخترنى أو اخترهما » . فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أى : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه ؛ فألحقه بنفسه وقال: « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه » [1] وكان التبنى مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغى التبنى وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبنى ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]

و ﴿أَقْسَطُ﴾ يعنى « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْفِ عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أفعل التفضيل ؛ فاعلم أنه يعطى الصفة الزائدة ويُبقى الصفة الأصلية . وفى الآية التى نحن بصددها ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتى بعده . وحين أوضح

(١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل فى صفة الصفوة لابن الجوزى (١/ ١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبى (٧/ ٥٣٧٨) (٨/ ٥٤٦٢) طبعة دار الغد فى تفسير سورة الأحزاب.

سيدنا رسول الله ﷺ أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة [١] ، جاء له صحابى [٢] فى فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلونى ؟ فلما أجاب النبى ﷺ : نعم . استبطأ الصحابى أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفى المسائل كلها، فيقول جل جلاله:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يزول . ويقال: الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر [٣] .

(١) قال ﷺ: « ياعبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً » أخرجه أبو داود فى سننه (٢٥١٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتِلَ. أخرجه البخارى (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً . عن شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبى ﷺ أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦١) ط . دار الفكر فى ترجمة أبى مهدى سعيد بن سنان. قال الجوزجانى: أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة. وقال البخارى: منكر الحديث. انظر: ميزان الاعتدال (ترجمة ٣٢٠٨). ولكن قد أورده أبو نعيم موقوفاً على شداد من طريق آخر من قوله . وهو الأوجه .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أى: لو كان أمراً من متاع سهل التناول ، ومحبباً للنفس ؛ وليس فيه مشقة السفر والتضحية بالمال والنفس ؛ لأسرعوا إليه . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ ، والقاصد هو المقتصد الذى فى الوسط ؛ وبعض الناس يسرف فى الكسل، فلا يستنبط الخير من السعى فى الأرض ومما خلق الله ، وبعض الناس يسرف فى حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش فى البرية ، ولا يكون له إلا ما قسمه الله . وأمزجة الناس تتراوح ما بين الإسراف والتقتير ، أما المؤمن فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة . والحق هو القائل:

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٦]

لأن المؤمن لا يأخذه الكسل فيفقد خير الدنيا ، ولا يأخذه الإسراف فينسى الإيمان . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ أنه لو كان هناك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم لم يتبعوك ؛ لأنه ليست هناك مغانم دنيوية ؛ لأن هناك مشقة، فالرحلة إلى تبوك ، ومقاتلة الروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التى تضع رأسها برأس دولة الفرس ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عُسْر والحر شديد، ولو أن الأمر سهل مُيسَّر لاتبعوك .

ويتابع سبحانه : ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى : أن المشقة طويلة ، ثم يقول : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ هم إذن لم يتبعوك ؛ لأن المسألة ليست عرضاً قريباً ولا سفراً سهلاً ، بل هى رحلة فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف يحلفون لك ؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم للقتال .

وقد قال الحق ذلك قبل أن يأتى أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة ؛ لكى يعرف رسول الله ﷺ المنافقين منْ صادقى الإيمان . وسبحانه وتعالى يفضح غباء المنافقين ؛ لذلك قال : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ، ولكننا لن نحلف . ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتى خصوم الإسلام ليشهدوا - رغم أنوفهم- للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر ؛ عندما حُوِّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة ؛ قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة :١٤٢]

وقوله هنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ معناها أنهم لم يقولوا بعد، وإلا ما استخدم فيها حرف السين . وهذه الآية نزلت فى قرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان فى استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا لساهموا فى التشكيك بمصداقية القرآن ، ولهدموا قضية الدين التى يتمنون هدمها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ وجاءوا مثبتين ومُصدِّقين للقرآن .

وفى هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً ؛ نجد من يقول : أنا لا أتبع إلا ما جاء فى القرآن ، أما السنة فلستُ مطالباً بالالتزام بها . ونقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع . ونقول : من أين أتيت بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى تستطيع أن تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة .

ويجبر الحق سبحانه هذا الذى يحارب سنة رسول الله ﷺ ويدعو إلى عدم الالتزام بها ؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله ﷺ :

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »[1] .

وقد قالوا ذلك القول طَعْناً فى الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ﷺ ، فهم لم يمتلكوا الذكاء ؛ لأن الذكاء الذى لا يهدى للإيمان هو لون من الغباء وعَمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال ؛ فقد سبقهم قول الله : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وجاءوا من بعد ذلك وحلفوا ؛ ليؤكدوا صدق القرآن . وهم فى حلفهم يدّعون عدم استطاعتهم للقتال ، مع أن لديهم المال والقدرة .

ويقول الحق عنهم : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وما داموا قد حلفوا بالله كذباً ، فقد أدخلوا أنفسهم فى الهلاك ، فهم لم يكتفوا بعدم الجهاد ؛ بل كذبوا وفضح الله كذبهم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدام بن معدى كرب . قال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه . واللفظ للدارقطنى .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وكلمة ﴿ عَفَا ﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مُحى ؛ تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ؛ فتُحْدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه [1] ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة [2] ، فلا يُدْخلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً مادَام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعنْهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو.

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذى (٣٥٧٧) فى سننيهما من حديث زيد مولى النبى ﷺ . قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٢٦٩): «إسناده جيد متصل» وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى.

(٢) فهذا شأن الرب العفو الغفور القائل سبحانه ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، أما شأن الناس فقد قال الله عنهم ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فهم بالإضافة لتصيدهم لأخطاء الناس، لو كانت الرحمة بأيديهم وكلفوا إعطاء الناس منها لبخلوا بها.

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذى أذن لهم بالقعود عن القتال ، ثم يأتى القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول فى موضع آخر من نفس السورة :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة : ٤٧]

إذن : فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً فى الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو ﷺ له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه .

وهناك من فهم قول الحق : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ على أنها استفهام استنكارى ، وكأن الحق يقول : كيف أذنْتَ لهم بالعفو ؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله ﷺ بقوله :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة : ٤٧]

فكأن الرسول قد هُدِىَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلى للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتى من بعده واحد من عامة الناس ليفتى فى مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتى كذا، بل لابد أن يتبين الإنسان ما جاء فى القرآن والسنة قبل أن يفتى فى أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين فى مسألة الفداء لأسرى بدر[1] ونزل القول الحق:

﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيَّد الله حكم رسوله وأبقاه. إذن فرسول الله ﷺ هُدى إلى الأمر بفطرته الإيمانية، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم.

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان فى قوله:

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً[2]، لعدم توافر النية الصادقة فى الجهاد؛ لذلك ثبطهم[3] الله، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا. والعفو هنا جاء فى شكلية الموضوع، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٠، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: « ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ ». فقال أبو بكر: يا نبى الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال: .. أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم.. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها » وقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر وأخذوا الفداء، ولكن نزل وحى الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب).

(٣) التثبيط: التخذيل وإضعاف العزيمة على الخروج.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ، ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يسترهم[1] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد .

وهذه الآية - إذن - تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِىَ للجهاد مع رسول الله ﷺ وبأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضى شيئاً إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .

تفكيره كالشخص العادى ؛ لأن الإنسان فى الأمور العادية إذا طُلبَ منه شىء أدار عقله وفكره ؛ هل يفعله أو لا يفعله ؟ ولكن المؤمن إذا دُعِى للجهاد فى سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله ؛ لا يدور فى عقله الجواب ، ولا تأتى كلمة « لا » على خاطره أبداً ، بل ينطلق فى طريقه إلى الجهاد .

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج ؟

إذن : فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان فى قلوبهم ؛ لأن الواحد منهم فى هذه الحالة قد أدار المسألة فى عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله ﷺ فى عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .

والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذى لا يكرم ضيفه ويدَّعى أنه سيكرمه ، فتجده ينادى ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريده من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن فى إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم فى أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً [1] ، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً ، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ ، بينما هو فى حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقال لضيف : أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها ؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفًا ؟ أو يقال : هل تحب أن تنام عندنا أم تنام فى الفندق ، وهو أكثر راحةً لك ؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أأخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً ؛ لأن التردد يعنى الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالى ، وهو يعنى أن صاحب السؤال متردد ؛ لأن طرفى الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله ﷺ إذا دُعوا إلى الجهاد ؛ لأن مجرد الاستئذان فى الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى : أن الله يعلم ما فى صدورهم من تقوى ، فهم إنْ خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله ؛ لأنه مُطَّلع على ما تُخفى الصدور .

(١) وقد ورد هذا فى قوله تعالى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] وقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] . ما لبث : أى : ما أبطأ عن مجيئه بعجل مشوى بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، وهو معنى الحنيذ .

ثم يُنزِل الله حكمه فى هؤلاء فيقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه، وهذا الاهتزاز يعنى وجود شك فى نفسه ، فيما أعد الله له فى الآخرة ؛ لأنه إن كان واثقاً فى داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إنْ استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر فى رأسه هل يذهب أو لا يذهب ؟ فما دامت الجنة هى الغاية ، فأىُّ طريق مُوصل إليها يكون هو الطريق الذى يتبعه مَنْ فى قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن ؛ لأنه يريد أن ينتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا فى نعيم فى الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل، بل يريد النعيم الباقى الذى لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما: أن الشك قد دخل فى قلب الإنسان، ومعنى الشك - كما نعلم - هو وجود أمرين متساويين فى نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه . والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تجزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده ؛ لأنك إن جزمتَ بشىء لا واقع له فهذا جهل، والجهل - كما نعلم - أن تعتقد أن

شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مبسوطة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مبسوطة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والأمى ، فالأمى الذى لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو متى عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين، ولكن من الجهلة لأن الأمى يحتاج إلى مجهود فكرى واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضى مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما فى عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة فى الواقع ، والجهد الثانى : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع فى الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نُلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التى تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها . وهو فى هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقنه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدلل على ما اعتقده فى صغره بالتلقين .

إذن : فالعلم يقتضى أن تؤمن بقضية واقعة عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم ؛ تكون فى ذهنك نسبتان ؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجح نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننتَ أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ولو استقر فى قلوبهم الإيمان اليقينى بالله واليوم الآخر ، وأن مَردَّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن تضحيتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذى ينتظرهم فى الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لما استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فمعنى هذا أن هناك ريبة فى أمر ملاقاة الله فى اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية ؟ ولأنهم يرتابون فى هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شىء، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

إذن : فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يُصفِّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صفَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة فى القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتُناقَش من جديد ، ولذلك سمَّوْها عقيدة ، أى عقدت الشىء حتى يستقر فى مكانه ولا يتزحزح .

إن الطفل - مثلاً - إنْ قرَّب يده إلى شىء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محرقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يناقشها فى عقله ليقول : لن تلسعنى النار فى هذه المرة ، بل تستقر فى ذهنه المسألة ، وتنتقل من قضية حسية إلى قضية عقدية لا تخضع للتجربة من جديد ولايحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]

والقلب هو محل القضايا التى انتهت من مرحلة التفكير العقلى ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التى لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلى . . أيؤمن أو لا ؟، أى: لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال فى مرحلة الشك الذى يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليُنَاقَشَ من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر فى مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعدَّ الله لهم فيها من جزاء . ويشكُّون فى لقاء الله فى اليوم الآخر . ويدور كل ذلك فى نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ففى ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد والراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال فى آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد فى آخر لحظة . بل لابد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلاحه للقتال ؛ ووجود الطعام الذى سيحمله معه ؛ وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة ، بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدُّ كشفاً للخميرة المبيَّتة فى أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع على نواياهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا فى أنفسهم . لذلك يقول :

﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين فى احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « ثبطهم » أى جعلهم فى مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية. والتثبيط : عملية نزوعية.

وأضرب هذا المثل دائماً - ولله المثل الأعلى - أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالمشرع يتدخل - فقط - فى الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلَّتْ فى تثبيطهم وخذلهم وردِّهم عن الفعل ، وزيَّن لهم فى نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ ؛ وذلك

لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله فى التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم: اقعدوا بإذن من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله ﷺ أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُنيتْ لما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا، والرسول ﷺ قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم: اقعدوا . وقولهم بعضهم لبعض زيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفى عطاءٌ عطاءً ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

﴿ وَلَـكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التى تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفى موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٧]

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربى عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْري

أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ (١)

والقوم تُطلَقُ على الرجال دون النساء (٢). ثم يبين لنا الحق حكمة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة. وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه و تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والخبال مرض عقلى ينشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول: فلان مخبول، أى: أنه يحكم فى القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى: ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أى: أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبى سلمى

(٢) ويُقَوِّى هذا قوله تعالى: ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾.

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أى: أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون فى الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكُم" اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف، قال الحق:

﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ (٧١) ﴾ [طه]

هل كان فرعون سيصلب السحرة فى داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه فى أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله فى أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى «فى» الظرفية ؛ ومعنى آخر فى استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى: «لأصلبنكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصَّلْب على الجذع ؛ أى: أنه صَلْبٌ عادى ، ولكن قوله تعالى: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب فى المصلوب فيه ، أى : أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل فى جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(١٣٣) ﴾ [آل عمران]

أى : أن سرعتنا فى العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن : فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن فى المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء]

ولم يقل : يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شيء كأنه لم يكن فى بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ فى الخير ، فكأنك فى الخير أولاً ثم تزيد فى فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ نجد أن «أوضع» تعنى : أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة فى نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة فى الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضى بُطْئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولابد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء فى الوسوسة ؛ وسرعة فى الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل فى عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أى : يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية فى أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزىء به ، وهذا أوضح ما يكون فى مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون فى هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجِدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْروه بكل طريقة ؛ لكى يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه، ويدَّعُون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ،وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغرى الناس بالسرقة ، والمرتشى يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجِدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السيئ ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال: حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركى الصلاة، تجدهم يحاولون السخرية منه، فهذا يقول له: خذنى على جناحك، وهذا يقول له مستهزئاً: يجعلنا الله من بركاتك. ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد فى الأرض، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب فى الآخرة، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله فى الدنيا؛ فيثيبهم الله فى الآخرة، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة.

إذن: فقوله تعالى: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم، يحاولون أن يفتنوكم فى دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم، تماماً كأنماط السلوك التى بيَّناها من قبل.

ثم يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيمانى لن يكون فى مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين، ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعتُ لفلان، أي: سمعتْ أذنى ما

قاله، وسمعت من فلان، أى: لصالح شخص آخر ، أى :من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتى بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين مما يُحدث بلبلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المبلبلين للأفكار جواسيس لهم ينقلون إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت "اللام" فاصلة بين "سمعت له" أو "سمعت من غيره لصالحه" ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فنجد السطحى التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم، أو أن يزدادوا فى إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيمًا ، أى: لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التى ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من: مؤامرات على الإسلام، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين؛ والتآمر على رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ له ﷺ دليل على تلك الوقائع السابقة(١). أما قوله تعالى ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾. فالتقليب: هو جعل أسفل الشىء عاليه، وعاليه أسفله؛ حتى لا يستتر منه شىء. وهذا مظهر نراه فى السوق؛ عندما تذهب عند الفاكهى وتجد ما هو موجود فى أعلى الفاكهة مُنْتقًى بعناية، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من الصنف الردىء الذى أخفاه أسفل القفص. وهكذا يأتى لك بالأسفل أو بالشىء الردىء المكشوف عورته. والذى لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك (٢).

وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشىء. والمثال الواضح: عندما تآمرت قريش على رسول الله ﷺ، وجاءوا من كل قبيلة بشاب ليضربوه ضربة رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل.

لكن الحق سبحانه يأتى إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين، ولذلك يقول جل جلاله:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١). أما القرطبى فقد قال فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٨٣): «أى: لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم، وينزل الوحى بما سيفعلونه. وقال ابن جريج: أراد اثنى عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبى ﷺ».

(٢) وقد حرم رسول الله ﷺ هذا، وذلك أنه ﷺ مرَّ على صُبْرة طعام فأدخل يده فيها. فنالت أصابعه بللاً. فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منى» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢) والترمذى فى سننه (١٣١٥) عن أبى هريرة. قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فالتآمر على رسول الله ﷺ ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدى إلى هجرته ﷺ من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً فى إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لايرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلابد أن ينصره (١) ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبغوا الفتنة؛ لأن السابق من الفتن انقلب عليكم وأدّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين التحموا بقتال قَوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّا ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً فى غزوة أُحد ، عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه (٢) ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ﷺ ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين .

---

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

(٢) عن البراء بن عازب قال : « لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلاتبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » ولكنهم خالفوه ﷺ فوقع سبعون قتيلاً فى المسلمين . والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٩٤) .

ويوم حنين، حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أنْ أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك إذا رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختل . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾ [آل عمران]

إذن: فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث ولم ينتصر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً في إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر -والعياذ بالله- ؟ إن كل ذلك- وغيره - تجوز فيه الفتنة . والقول: **﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾** ظاهره أنه أمر ،

ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر، بل هو دعاء أو رجاء، وإن جاء من المساوى يقال: «مساو له» ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل.

وكان الجد بن قيس -وهو من الأنصار- قد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: ائذن لى ولا تفتنى ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع فى فتنة مخالفة أوامر رسول الله ﷺ [1] .

وقيل: إن هذا الأنصارى لم يكن له جَلَدٌ [2] على الحرب وشدائدها . وقيل: إنه كان على ولَع بحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشى أن يُفتنَ بهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم . ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي ﴾ أوقعه فى الفتنة فعلاً؛ لذلك جاء قول الحق : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ . وكان هذا الأنصارى سميناً، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنارأحقُّ بالفرار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ .

وفى آية أخرى قال سبحانه :

---

(١) انظر : أسباب النزول للسيوطى (ص٩٤) . وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٢) . وقد كان الجد بن قيس من أشراف بنى سلمة .

(٢) الجَلَد : الشدة والقوة والصبر على القتال .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة]

إذن: فجحيم النار أشد قسوة وحرارة من نار القتال [1] ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهى تحيط بالكافرين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحاً فى إظهار الكراهية التى تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ والمقصود بالحسنة هنا هى: الانتصار فى الحرب ، والنصر فى الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر فى حصول المؤمنين على الغنائم، وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم ؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الدنيا ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب ؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون ؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق فى الغنائم . وفى هذه الحالة يقولون: يا ليتنا كنا معهم ؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

(١) وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزموا فى الحرب ؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقين يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاحةً فى الفكر واحتطْنا للأمر، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة فى الحرب تكون في: الأرواح، والرجال والمال، والعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة، وهى هنا الهزيمة فى الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى :قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال، بينما لم يحتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم لِيُخْفُوا فرحتهم .

وحين يقول الحق :﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أى نصر للإيمان يحزن المنافقين فى نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تحُزنهم الحسنة التى ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك دافعاً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن ؟

بالله حين يفاجئهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن ؛ ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد ﷺ الغيب الذى فى قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك .ومع هذا أضمروا النفاق فى قلوبهم وانتظروا مَسَاءةً تَحل بمحمد ﷺ وصحبه .

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشر فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة ليس فيها غريم ، فإن اعتدى عليّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي ، وتتولد في قلبي حفيظة[1] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب في أن أرد عليه وأثأر لنفسي منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمي في المرض ؟ لا أحد .

إذن : فالمصائب نوعان ؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم فيه ؛ النوع الأول الذي يكون لي فيه غريم يمتلىء قلبي عليه بالحقد ، ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هي العفو ، والثالثة هي أن تحسن ؛ فترتقي إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون .

---

(١) حفيظة : غضب وضغينة .

وكذلك يقول الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

أى : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التى تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم فهى لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم «لام التوكيد» التى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث فى النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرِجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتى المرحلة الثالثة :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزى عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل - ولله المثل الأعلى - هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثانى ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب ، لذلك تُربِّتُ على كتفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشترى له شيئاً لترضيه ، أى أنك تحسن إليه .

وما دمنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف فى صف المظلوم . إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك . أفلا يستحق فى هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم فى هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذى حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير .

والحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتى المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ وهكذا تُـرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ؛ فقد يحدث لى شيء أكرهه ؛ ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فإن ضربنى أبى لأننى أهمل مذاكرتى ، أيكون ذلك عقاباً لى أم لصالحى ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذى سوف تحققه فى الحياة إن ذاكرت، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لابد أن نأخذ أحداث الله فى كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا فى معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير فى دينهم ؛ وإلى أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها؛ فلهذا انهزموا.

ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ- وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم - يعاقب المخطىء منهم، وفى هذا تربية للتلاميذ .

إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شىء مكتوب لنا لا علينا ، الذى كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

إذن: فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يربى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد فى فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ؛ وبينهم ابنه، فهو ينفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ؛ فهذا من غبائهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير[1] ، ومن هنا كانت الآية

(١) عن صهيب الرومى قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٥٤) .

الكريمة ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم .

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه: ﴿هُوَ مَوْلانَا﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتى الإيضاح كاملاً فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن الله الذى آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك ، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطى الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطى المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً . وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يخطىء المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفى هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه ؛ لذلك لا يقولن أحد: إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف فى الإيمان وبالتالى فإنه ضعف فى التوكل . ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتى المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك . وما دام مولاك يحاسبك على أى خطأ ويُصوِّبه لك ، فثقْ به سبحانه وتوكل عليه .

وعلى سبيل المثال: لنفترض أن إنساناً اتكل عليك فى أمر من الأمور، ثم أخطأتَ أنت فى هذا الأمر ، لا بد أن يأتى لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفى هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة

بالثقة فى هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ،وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل فى محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتى آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتى دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك ناتج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحى الذى لا يموت، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِهُك أو يُذلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون فى مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتى قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتى قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما : تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا.

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب فى الدنيا وفى الآخرة .وأسباب العذاب مجتمعة لكم فى الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم فى الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون فى صالحنا نحن.

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الخيانة العظمى وهى الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أى عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبطُ أيَّ عمل، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً فى الدنيا ، ولكن ليس لهم فى الآخرة إلا النار[1] ، ويقول:

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣) .

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إذن : فشرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

[النور]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه فى قول الحق :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

فقد تساءل بعض من العلماء : أيجزى الحق سبحانه هؤلاء الكفار فى الآخرة أم فى الدنيا ؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطى فى الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطى فى الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفى قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون فى حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً فى زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بها يعطيهم الله جزاء عملهم فى الدنيا ، ولا يبخس منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة [1]؛ لأنه عَمِلَ وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله . وهذا أمر طبيعى ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه . إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية ، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا ، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجىء يوم القيامة لتجد يد الله ممدودة لك بالخير الذى قدمته .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .
أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٤) وأحمد فى مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤٠٥) من طريق آخر عن عائشة وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والطَّوْع : هو الفعل الذى تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا تجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين «طوع» و«طائع» ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذى تقوم به حين يحملك غيرك ويُكرهك أن تفعله . والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ،وإما أن تكون بالإكراه . ولو كان الحق قد قال : أنفقوا ، طاعة لما قال : ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؛ لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا : ﴿ طَوْعًا ﴾ يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختيارى من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد منهم يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة فى المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هى طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهى للمظهر وليست للعبادة .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل الله يريد منهم أن ينفقوا فعلاً، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان : اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فَسترَى منى هَوْلاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا .. (١٦) ﴾ [الطور]

وقوله تعالى :

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ .. (٤٠) ﴾ [فصلت]

أى: أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذى سوف تلاقونه ، فالأمر سواء . ولو كان قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمراً ؛لكان كل من عمل معصية داخلاً فى الطاعة؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء . ولكن هذا أمر تهديدى ، أى: افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه . ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنفِقُوا ﴾ هو -إذن- أمر تهديدي؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .

وكلمة ﴿ كَرْهًا ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من سورة ، فهى فى سورة آل عمران، وفى سورة النساء، وفى سورة التوبة ، وفى سورة الأحقاف، وفى سورةالرعد، وفى سورة فصلت ، قد ذكرت ﴿ كَرْهًا ﴾ بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض : إن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إن المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع، ولكن للمشقة التى تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول: إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج فى أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها : "سوف أحمل الليلة" ؛ لأن الحمل يحدث دون أن تَعيَ هى حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة . والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم . فكل هذا

يحدث إكراهاً بغير اختيار منها. ولذلك نقول لمن يقولون أن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد : لا؛ لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة ، و"الكَره" بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير. إذن فـ"كَرْهاً" بفتح الكاف تختلف فى معناها عن "كُرْهًا" بضم الكاف[1].

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ أى: لن يقبل الله منكم ما تنفقونه . ولكن ما الفرق ؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدباً منه ﷺ ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى . ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها [2]؛ فنزل القول الكريم :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة]

(١) وإلى هذا ذهب الفراء فقد قال : إن الكُره ما أكرهت نفسك عليه ، والكَره ما أكرهك غيرك عليه . نقله ابن منظور فى لسان العرب .

(٢) وذلك أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال ﷺ : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . فقال ثعلبة : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالاً لأوتين كل ذى حق حقه . فقال ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » وتدرج به الأمر حتى ترك الصلاة والجمعة ثم منع الزكاة وقال : ما هذه إلا جزية . وبعد ما نزلت آية التوبة (٧٥) أتى ثعلبة رسول الله ﷺ يرجوه أن يقبل صدقته فقال ﷺ : « إن الله قد منعنى أن أقبل صدقتك » فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه . حديث طويل أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٧٨٧٣) من حديث أبى أمامة . قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٢) : « فيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك » . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥) .

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يقبلها منه . وعندما توفى رسول الله ﷺ جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعلبة فى عهد عثمان [1]. هذا هو عدم القبول.

ولكن هناك فى عهد رسول الله ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقُبلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه. إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول :

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا: إن كلمة الفاسق مأخوذة من "فسقت الرُّطَبَة" أى انفصلت القشرة عن الثمرة . وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعانى فى التكليف الشرعى قد أُخذت من الأمور الحسّية ؛ ولهذا تجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلت عن سياجها .

فالذى يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ،هنا نقول : لا شىء يجور على شىء، إن له ثوابَ إيمانه وعليه عقاب معصيته .

(١) عندما ولى عثمان الخلافة ، أتاه ثعلبة فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : رسول الله ﷺ لم يقبلها ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها ؟! فلم يقبلها عثمان. انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥ ، ١٤٦) .

إذن: فالفسق فى هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة . ولكنه فسق من نوع خاص ؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف . ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله. ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إذن: فالفسق نوعان : فسق عام، وفسق خاص . وقد يقول البعض: إنك إن ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك.

ونقول: لا فما دامت القمة سليمة ؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج ، فلكل عمل عبادى ثوابه ، ولكل ذنب عقابه ؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة، ولا يمكن أن يضع كل الشرور فى ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها.

وقوله الحق هنا ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ** ﴾ ، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفى هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا فى خصوص الفسق ، وحدد الحق ثلاثة أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة ، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى، ثم الإنفاق بكراهية .

ونفهم المنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه ؛ كأن يريد إنسان القيام فتُقعده ، أى أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتى للفاعل ومرة للمفعول . فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعتَ المفعول، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذى يوجزه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك فى الإنسان وفى الزمان وفى المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة فى الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذى لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواءمن الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، وقلت له: سيأتى أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش فى سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل[1] ؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر . ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش فى سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لا يأتى من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة . ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفرِّغ الهواء من إناء مغلق فيتحطم .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ لا يعنى أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قولة اللسان وتصديق الجنان ؛ فالإيمان محله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" التى نطقوا بها ؛ ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما فى باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً . فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره .

ونأتى إلى السبب الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ والكسل: هو التراخى فى أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودى للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلوكهم ملىء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : ﴿ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ والنفقة هى بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً

أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع ؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوى والضعيف ، الغنى والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك فى حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تفىء على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة فى الحياة ، فالصحيح يعطى المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغنى يعطى الفقير من ماله ما يعينه على الحياة . والقادر على الحركة يعطى من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكافل .

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ؛ لأن الغنى اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش فى مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار . وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغنى ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا ينشغل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ،وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغنى فسوف يجد المساندة ،وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج .

إذن : فالنفقة أمر ضرورى لسلامة المجتمع ، ونجد أن السوق توصف بأنها نافقة ، وهى التى يتم فيها بيع كل السلع وشراؤها . فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشترى اشترى ، إذن فالحركة فيها متكافئة . وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشترى ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بعْتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السِّلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشترى السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتى له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطنى فى الدنيا، والعذاب الواقع أمام الكل فى الآخرة ، وبيَّن لهم أن إنفاقهم طَوْعاً أو كَرْهاً لن يأتى لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية :

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]

والله يخاطب رسوله ﷺ، وفى طى هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٥٥) ﴾

وإياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون: كيف يكون عذابهم فى الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعنى استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت

بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً فى عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم . وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد فى الحياة الدنيا قد يكونان سببين فى أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله فى الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذى لا يؤمن باليوم الآخر ؛فالدنيا هى كل زمنه ؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ،وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتنى الدنيا فلى عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التى تُلْهِى عن المنعم، فيقول سبحانه:

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب فى نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة : ﴿ لا ﴾ فقال: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ .

وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافرأو المنافق بالمال والولد ؛ فذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما فى الدنيا والآخرة . فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾ ، واللام هنا فى "لِيُعَذِّبَهُم " هى لام تدخل

على الفعل واسمها "لام العاقبة" . وهى تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذى قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ⑧ ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذى حدث كان عكس ما قصدوه ساعةَ قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون ،بل كان سبباً فى زوال مُلْكه ، إذن هذه هى لام العاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا فى ظاهره رفعة فى الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة فى التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق فى العذاب . ولم يُرِد الحق العذاب لهم، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أنْ يدخلوا فى العذاب . والعمل غير الشرعى فى تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذى أوصلهم إلى العذاب .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وأول ألوان العذاب : أن تلهيهم تلك النعم عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون فى عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويخافون إعلان هذا العداء ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ فى طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون

ويتساءلون [1] : هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خبايانا ؟ وكانوا فى خوف أن يفتضح أمرهم ، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً : كانوا يخافون من أن يدخل الرسول ﷺ فى حرب ؛ لأنهم ما داموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحى بالأولاد فى سبيل ما لا نؤمن به . وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلبُّون نداء رسول الله طمعاً فى الجنة أو النصر . وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب : عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبى النساء، فيكونون فى عذاب نفسى طوال الرحلة إلى الغزوة وفى أثناء الحرب .

ولون ثالث من ألوان العذاب : أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتى ، والذى يكسب حلالاً يكون واضح الحركة فى الحياة ، والذى يكسب حراماً هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش فى عذاب أليم دائم من أن يأتى يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زَوَّرَ وَزَيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقّره فى أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة ؛ كأن يكون قد تاجر فى المخدرات أو فى الأعراض . أو فى غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش فى عذاب دائم وصراع مستمر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤] . قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة ؛ لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته . انظر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٦) والقرطبى (٤/ ٣١٢١) .

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك ، وطلبته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتى فى النهار ولا أمام الناس ، بل تأتى ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد . ولا تدخل من باب الشقة ، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد . وتضع خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجرى لتختبىء وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربى أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه فى تربيته فيرسب فى الامتحانات . ويُتلف المال فى الإنفاق بلا وعى . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه ، ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفى عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة [1] مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلى بالغيظ ، وعندما نودى للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته [2] فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب

---

(١) هو : حنظلة بن الراهب عبد عمرو بن صيفى الأوسى وكنية أبيه أبو عامر ، وحنظلة من أهل الصُّفَّة .

(٢) جاء فى مستدرك الحاكم (٣/ ٢٠٤) أن هذه كانت أول ليلة له مع زوجته ، وترك جنيناً فى أحشائها ولد عام ٤ هـ هو عبد الله ، أصبح من أعلام التابعين وشجعانهم ، ولاه أهل المدينة أمرهم فقاتل جيش يزيد ابن معاوية قتالاً شديداً حتى قتل عام ٦٣ هـ . انظر الأعلام للزركلى (٤/ ٩٩) .

مع رسول الله ﷺ واستشهد فى المعركة . ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخبرحنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل[١] ، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول ﷺ ما حدث لحنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها : ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت: إنه عندما سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل[٢] . وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو لله ورسوله . وكيف يكون هذا غَيْظاً فى قلب الأب.

وقصة أخرى : سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ؛ والده عبد الله بن أبىّ كان زعيم المنافقين فى المدينة، وهو الذى انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة [٣]. ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبىّ ، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام،ويقول له : يا رسول الله إن كنتَ آمراً

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى شهداء أحد : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . وأمر بدفنهم فى دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم . . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٤٣) وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذى (١٠٣٦) وابن ماجه (١٥١٤) والنسائى (٤/ ٦٢) فى سننهم . وقد أخرج أحمد فى مسنده عن جابر أيضاً (٣/ ٢٩٩) : « لا تغسلوهم فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة ولم يصل عليهم » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٥٧) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٠٤) وصححه والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (٤/ ١٥) أن رسول الله ﷺ قال : « إن صاحبكم - يعنى حنظلة - لتغسله الملائكة ، فاسألوا أهله ما شأنه » فسئلت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة . فقال ﷺ : « لذلك غسّلته الملائكة » .

(٣) قال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط - بين المدينة وأحد - انخزل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى (يقصد محمداً ﷺ) ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب . انظر سيرة النبى لابن هشام (٣/ ٨) .

بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفى قلبى غلٌّ عليه[١] . وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله ، أليس هذا عذاباً فى قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً فى الدنيا ؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذى ينتظرهم فى الآخرة ، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التى تؤكد أن الإنسان خليفة الله فى الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون فى خدمة هذا الخليفة ، أى: أنه أقبل على عالم كامل من كل شىء ؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

أى: لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول: انشغل بالنعمة ، والثانى: لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر: إن الصحة هى من أثمن النعم. أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان ؛ لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان

(١) أورده ابن كثير فى تفسير آية ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨] بنحو ألفاظه وعزاه لابن إسحاق .

يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون فى معيّة النعمة ، يكون فى معيّة المنعم وهو الله سبحانه. ولذلك يقول فى حديث قدسى :

«عبدى فلان مرض فلم تَعُدْنى . فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له: أما علمْتَ أنك لو عُدته لوجدتنى عنده » (١)

قولوا لى بالله: أيضيق أى مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأنْسَ بالله يخفف عنه الآلام . لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقى مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان . والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التى خُلقت له . وقد كان من المنطقى أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلى وأبدى . والأزلي: هو القديم بلا بداية . والأبد: هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر: هو ما نعيش فيه .

والوجود الذى تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود»؛ لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجود ممكن ، وسيأتى له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ » الحديث .

لا ينتهى. أى: أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى . ولذلك فهو وجود أزلى قديم بلا نهاية ، وأبد باقٍ بلا نهاية . وبذلك فهو يخرج عن الزمن .

نأتى بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أى التى لها مُوجدٌ ، وهى كل ما فى الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التى يعبدها بعض الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض ، أى ليس لها وجود بلا نهاية . ولكن كان وجودها ببداية . إذن فهى ليست أزلاً ، وهى ليست أبداً لأنها تنتهى بيوم القيامة .

ولذلك لا يجتمع فى قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا ؛ لأن الله أزل وأبد، والدنيا لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هى بمقدار عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها . وحتى إذا أخذنا الدنيا فى عمومها فإن لها بداية ونهاية، فكيف يمكن أن يجتمع فى قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية ونهاية ؟ لا يجتمعان .

ولذلك قال شيخنا الزمخشري[1] رضى الله عنه : ما دام هذا الكون فيه وجود ، يكون الوجود: إما واجباً ،وإما ممكناً . والوجود الواجب لله وحده . والوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى .

---

(١) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة . ولد فى زمخشر عام ٤٦٧ هـ . أشهر كتبه : الكشاف فى تفسير القرآن - أساس البلاغة كان معتزلى المذهب . توفى ٥٣٨ هـ الأعلام للزركلى (٧/ ١٧٨) . .

فإذا قلنا: إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول: إن هذا ممتنع عقلاً؛ لأن الذى لا تكون له بداية لا تكون له نهاية . أى: يكون دائم الوجود.

إذن: فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل، أى: له بداية وليس له نهاية. ونقول: إن هذا يجتمع فى اثنتين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية هى تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يُبْعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد فى النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد - والعياذ بالله - فى النار .

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهى لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية فى الجنة أو فى النار . إذن: فالإنسان والآخرة اشتركا فى شىء واحد ، ولابد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذى يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذى يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له . والذى عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذى سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

نعرف أن الحياة الحقيقية هى فى الآخرة وليست فى الدنيا ؛ لأن الغايات فى أى شىء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً: إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسى أن نجلس عليه . إذن: فكل الكراسى مهما اختلفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهى أن نجلس عليها . والإنسان غايته

لابد أن تكون متساوية . وما دُمْنَا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هى ؟ أهى الصحة ؟ بعضنا مريض . أهى القدرة ؟ بعضنا عاجز . أهى طول العمر ؟ بعضنا عمره فى الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف . إذن فلا بد أن نلتفت فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه : **﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾**

و **﴿ تَزْهَقَ ﴾** أى تخرج بصعوبة ، لماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذى ينتظره خير يفوق كل الذى سيتركه . كمثل إنسان يعيش فى كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر . أما صاحب الدنيا فمثل الذى يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت [١] .

---

(١) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فقلت : يا نبى الله أكراهية الموت ؟ فكلنا نكره الموت . فقال : « ليس كذلك . ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٤) والترمذى فى سننه (١٠٦٧) وقال : حسن صحيح.

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن فى الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثال : أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذى يزرع، والذى يحصد، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما فى الآخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ، أليست هذه حياةَ نعيمٍ ؟

إذن : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن [1] ، والذى ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصى ؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام على رضى الله عنه : يا إمام، أريد أن أعرف نفسى أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام علىّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندى وجعل جواب السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .

أى : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك فى الفانية ما يحمله لك أجراً فى الآخرة التى تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه .

(١) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالي فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥) .

أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ؛ لأن معطى الهدية يزيدك فى دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذى يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنيا.

ويقال: إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة . نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل فى أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع. لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله وأنه ميت لا محالة، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

ويرى ما كان محجوباً عنه فى الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره (١) فيُقبَضُ على هذا الوضع . أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنْفرجَ الأسارير .

وفى ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أى شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هى المكان الذى إن استقر فيه شىء فإنه لا يُنسَى أبداً . فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة،

(١) الأسارير : هى الخطوط التى فى الجبهة من التكسر فيها ، فإذا ضحك الإنسان انفرجت هذه الخطوط دليلاً على فرحه وسروره .

أن هناك سؤالاً سيأتى فى جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر فى شىء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة ؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة . إذن : فساعة الالتقاط هذه حيث لا شىء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتى خاطر آخر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها .

ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشىء . كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته خيِّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول: أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتى ساعة الموت . والمعنى الثانى: أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق

سبحانه وتعالى أن يشحننا ضد المنافقين وأن يجعلنا نحذر منهم كل الحذر ، ويضرب لنا المثل باليمين ، واليمين لا ينطق بها الإنسان عادة إلا بعد شبهة إنكار . فإذا جئت لإنسان بخبر وصدَّقه فأنت لا تضطر لأن تحلف له . ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لتزيل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت حين تروى الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفْتَ .

ولكن لماذا يحلف المنافقون دون سابق إنكار ؟

إنهم يسمعون القرآن الذى ينزل من السماء مملوءاً بالغضب عليهم ، وهم يشعرون فى داخل صدورهم أن كل مسلم فى قلبه شك من ناحية تصرفاتهم، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى يُصدِّقهم المؤمنون (١)، والمؤمنون قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، فى صدورهم ؛ فلا يصدقون ما يقوله المنافقون، حتى يأخذوا حذْرهم ويكونوا بمنجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

ولو لم يُعْطِ الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدَّقوا قولَ المنافقين بقداسة اليمين . وبماذاَ حلف المنافقون ؟ لقد حلفوا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم فى مظاهر التشريع يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها يقين أو صدق .

وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فلماذا يحلفون ؟ نقول : إن هذا هو تناقض الذات ، وأنت تجد المؤمن غيْرَ متناقض مع نفسه ؛ لأنه مؤمن بقلبه ومؤمن بذاته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد مَلَكَاتٌ تتناقض فيه ،

(١) وفى ذلك يقول عز وجل : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[المنافقون : ٢]
جنة : أى وقاية .

والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه ؛ لأنه يعلن صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه ، صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يفعل ظاهراً وما في قلبه.

أما المنافق فتتناقض ملكاته . فهو يقول بلسانه : "أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" . لكن قلبه يناقض ما يقوله، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا يصدق رسالة رسوله ﷺ.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة « المنافقون » :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ① ﴾ [المنافقون]

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ، وهو أن محمداً ﷺ رسول الله ؟ نقول : إن الحق أراد أن يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . وفضح الله ما في قلوبهم وأوضح أن ألسنتهم تكذب ؛ لأنها لا تنقل صدق ما في قلوبهم .

إذن : فالمنافق يعيش في تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر ؛ لأن الكافر يعلن عداءه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه . أما المنافق فهو يتظاهر بالإيمان ، فتأمن له ويكون إيذاؤه أكبرَ، وقدرته على الغَدْرِ أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... ١٤٥ ﴾ [النساء]

ونحن نعلم أن تناقض الذات هو الذى يتعب الدنيا كلها ، ويبين لنا المتنبى هذه القضية، ويشرح كيف أنها أتعبُ شىءفى الوجود ، فيقول :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى
عَـدوّا له مَا منْ صَـداقته بُـدُّ

هذا هو تناقض الملكَات حينَ تجد عدواً لك، وتحكم عليك الظروف أن تصادقه . وفى ذلك يقول شاعر آخر :

عَلَى الـذَّمِّ بِتْناَ مُجْمعِـينَ وحـالُنَا
منَ الخوْفِ حَالُ المجْمِعين علَىَ الحمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض فى المجتمع الذى يجعل الناس يمجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كَفَـانَا هَـواناً مِـنْ تناقُـضِ ذَاتنا
متى تَصْدُق الأقوالُ بالألسُنِ الخُوَّفِ

إذن : فالمنافقون يحلفون بألسنتهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك فى ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم فى حقيقتهم ، فهم فى قلوبهم ليسوا منكم .

ويكمل الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ والفَرَق معناه : الخوف ، أى أنهم فى فزع دائم ، ويخافون أن يُفتضَحَ أمرهم فيعزلهم مجتمع الإسلام ويحاربهم محاربته للكفار . ويُشرِّدهم ويأخذ

أموالهم ويَسْبى نساءهم وأولادهم. إذن: فالخوف هو الذى جعلهم يحلفون كذباً وخوفاً من افتضاح أمرهم ؛ ولذلك قال الحق لرسوله ﷺ عنهم:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ... (٣٠) ﴾ [محمد]

وفى هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بَدا القول على ألسنتهم جميلاً [(١)].

ثم يقول الحق جل وعلا :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾

والملجأ: هو ما نلجأ إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون ، وكذلك المغارة وهى الكهف فى الجبل . والمدَّخَل: هو شىءيشبه النفق تحت الأرض تدخل فيه بمشقة والتواء ، إذن : فهناك ثلاثة ملاجىء يفرُّون إليها إنْ وُجدوا فى المعركة ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . وهم يتمنَّوْن الذهاب إلى مكان بعيد ؛ ليسبُّوا الإسلام على ما هم فيه من مشقة القتال ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين ؛ لذلك تجدهم فى حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد .

(١) وفى هذا يقول تعالى عن المنافقين ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] . قال الكلبى: المراد عبد الله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة . أما لحن القول المذكور فى آية سورة محمد ، أى : لتعرفنهم يا محمد فى معنى الكلام وفحواه ودلالته غير الظاهرة .

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر الحق أوصافهم ، وعهودهم التى نقضوها ، وحَلِفهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض مَلَكاته ، ذلك التناقض الذى يورثه الشقاء ؛ لأن كل واحد منهم يُظهِرُ غير ما يبطن ويخاف من انكشاف أمره . فيظل مضطرباً لأن ما بداخله يتناقض مع واقع حياته .

إن هذه الحالة هى عكس حالة المؤمن الذى يعيش حياة منسجمة ؛ لأن ما فى قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذى يعيش فيه، وكذلك فحالة المنافق تختلف عن حالة الكافر ، فالكافر قد أعلن الكفر الذى فى قلبه بلسانه . أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان. ولذلك فهو فى تعب مستمر من أن ينكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما فى قلبه ؛ لأنه يُكِنّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً.

والإنسان إذا اضطر أن يمدح من يعاديه وأن يتظاهر له بالحب، فإن هذا السلوك يمثل ثقلاً نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا نرى أن المنافقين يُتعبون أنفسهم قبل أن يُتعبوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذى يتظاهر بأنَه كريم، وكلما أنفق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يذبحه فى نفسه ويسبب له آلاماً رهيبة . وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن هنا نجد المنافقين حين يريدون أن يُنفِّثوا عما فى صدورهم ، فهم يختَلُون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين ؛ليُظهروا ما فى نفوسهم من حقد وغِلّ وكراهية لهذا الدين، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه ، أو مغارة فى الجبل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعهم أحد ،

أو مُدَّخلاً وهو المكان الضيق الذى لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة . هم إذن يبحثون عن مكان يغيبون فيه عن سَمْع المؤمنين وأنظارهم ليُخرِجوا الكراهية المحبوسة فى صدورهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

و﴿وَلَّوْا ﴾ أى : انطلقوا إليه وقد شغلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أى شيء آخر ، ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ والجماح هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذى تركبه ، فلا تقدر على كَبْح جماحه أو التحكم فيه ، فينطلق بسرعة ، وحين يقال هذا عن الإنسان فهو يعنى الانطلاق بسرعة إلى المكان الذى يقصد إليه ولا يستطيع أحدٌ منعه ، وإنْ تعرض له أحد دفعه بعيداً لينطلق فى طريقه بسرعة .

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين فى أى معركة . فبمجرد بَدْء القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى منازلة [1] العدو ، ولا يطلبون الاستشهاد ، ولكنهم فى هذه اللحظة التى يبدأ فيها القتال يبحثون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو مغارة يختبئون فيها ، أو مُدَّخل فى الأرض ينحشرون فيه بصعوبة ليحميهم من القتال . فإذا انتهت المعركة خرجوا لينضموا إلى صفوف المسلمين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف يقاتلون فى سبيل دين لا يؤمنون به ؟ ولذلك كنت تجدهم فى المدينة إذا نودى للجهاد فهم أول من يحاول الهروب ويذهبون للقاء النبى ﷺ طالبين التخلف عن المعركة ، ويقول الواحد[2] منهم :

﴿ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي... (٤٩) ﴾ [التوبة]

---

(١) المنازلة : هى تقاتل الفرسان وهم فوق جيادهم دون النزول إلى الأرض.
(٢) هو الجد بن قيس، وقد سبق الكلام عليه فى تفسير الآية المذكورة.

وفى الصدقة يحاولون التشكيك فى توزيع الصدقة وكيف يتم ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وإذا جلسوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النَّيْل من رسول الله ﷺ بغرض إيذائه ولمزه، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

هذه بعض صفات المنافقين التى يفضحهم الله بها بكشفها للمؤمنين . وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لقبائحهم وفضائحهم . فقال فيهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة]

كلنا أيضاً نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة]

فما هى الهُمَزة وما هى اللُّمَزة ؟

«الهمزة» : هو من يعيب فى الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأى حركة من جوارحه، ومثال هذا: حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ، ويحاول أحدهم النَّيْل من أحد الحضور خفية ، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر ، أو يكون باللسان هَمْساً فى أذن إنسان أو بأى طريقة أخرى ، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللُّمَزة فهم العيَّابون فى غيرهم فى حضورهم . فهناك القوى الذى يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللمَّاز، أما الضعيف فهو يعيب خفية وهو الهمَّاز. واللمزة تطلق على من يعيب كثيراً فى الناس .

وهمزة لمزة ، من صيغة المبالغة "فُعَلَة" وتدل على كثرة فعل الشىء. فتقول "فلان أكَلة" - بضمة على الألف -أي: يأكل كثيراً . وفلان ضُحكة -بضمة على الضاد - أى: كثير الضحك .

إذن: فاللّمزة هى كثرة العيب فى الغير ، وهى تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب، وهو هنا مظروف فى شىءهو الصدقات. وكان بعض من المنافقين يغتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب الغنى ويشقى فى الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التى يتم

بها صرف الصدقة للفقراء، وأن بعضهم يُعطَى كثيراً وبعضهم يُعطَى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون فى كل هذه الأمور أو بعضها.

إذن: فاللمز إما أن يكون فى التشريع ، وإما أن يكون فى كمية الصدقات أو فى طريقة الصرف ، والحادثة التى وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت فى مصارف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير، وهو رأس الخوارج، وهو ابن ذى الخويصرة ، وقال : اعدل يا محمد . فقال رسول الله ﷺ: ويلك ! ومَنْ يعدل إنْ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله إئذن لى فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ:

« دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم . يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شىء، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شىء، ثم ينُظر إلى نَضيِّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شىء، ثم يُنظر فى قُذَذه فلا يوجد فيه شيء. سبق الفرْثَ والدم . آيتُهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة . أو مثل البضعة تَدرْدَرُ ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس » (١)

(١) - لا يجاوز تراقيهم : أى لا يجاوز حلوقهم وحناجرهم فلا يصل إلى قلوبهم . والتراقى جمع ترقوة ، وهى العظم بين ثغرة النحر والرقبة .
- الرمية : أى الشىء الذى يصاب بالسهم إذا رماه صاحبه .
- النصل : الجزء الحاد فى السهم نفسه .
- الرصاف : مدخل النصل من السهم .
- النّضىّ : السهم بلا نصل ولا ريش .
- الفرث : ما فى داخل الكرش من فضلات .
- البضعة : قطعة اللحم .
- تدردر : تتحرك وتضطرب .

قال أبو سعيد الخدرى : فأشهد أنِّى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك الرجل -أى الرجل الأسود- فالتُمس فوُجد فأتى به ، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ رسول الله ﷺ الذى نعت (١) .

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أى : أن هؤلاء الناس إنْ أعْطوا من الصدقة كانوا راضين مُهلِّلين ، وإنْ لم يُعْطَوْا منها ملأ قلوبهم السخط ، وبدأوا باللَّمْز . إذن : فالكمية المعطاة لهم من الصدقة كانت هى أساس اللمز .

ومثل هذا قد حدث فى غزوة حنين. فقد وزع رسول الله ﷺ الغنائم على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

فلما لم يُدخل ﷺ الأنصار فى هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك ، فجمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم :

« ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله ؟ المحيا محياكم والممات مماتكم، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار » (٢)

وهنا بكى الأنصار، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم؛ سيعودون بصحبة رسول الله ﷺ. وقد يعطى رسول الله ﷺ حَديثَ عَهْد بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطى لتأليف القلوب ، وقد يعطى لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٦١٦٣ ، ٦٩٣٣) ، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة حديث (١٤٨) من حديث أبى سعيد الخدرى واللفظ لمسلم .
(٢) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً كثيرة .

ولذلك كانت لرسول الله ﷺ ملاحظ فى توزيع الصدقات والغنائم ، قد لا يلحظها أحد . وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله ﷺ؛ لأن سلوكه هو الحكم ، ولابد أن نقبله .

ففى الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش بألا يتعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام (١) ، هذا الصلح أثارغضب عدد من المؤمنين وقالوا لرسول الله ﷺ: أنرضى بالدنية فى ديننا؟ أى: كيف نعطيهم هذه العهود وهى مجحفة بالنسبة لنا ؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انفعل وأراد أن يقسو فى الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ألستَ على حق يا رسول الله ؟ فقال له أبو بكر : الزم غرزك يا عمر -أى اعرف مكانك- إنه رسول الله (٢). وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقوة أدت إلى فتح مكة ، قال أبوبكر رضى الله عنه : ما كان نصر فى الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

---

(١) لهذا الصلح شروط أخرى ذكرتها كتب السيرة والتفاسير :
١- أن يرجع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا يدخلون مكة معتمرين هذا العام .
٢- يعودون العام التالى للاعتمار ولكن بدون سلاح إلا السيوف فى أغمادها فيقيم بمكة ثلاثاً ويخرج .
٣- هدنة مدة عشر سنوات .
٤- من ذهب إلى المسلمين من الكافرين مسلماً رجلاً أو امرأة رد إلى الكفار .
٥- من جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه إلى المسلمين .
وحديث صلح الحديبية حديث صحيح طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) من حديث سهل ابن حنيف .

(٢) قال عمر بن الخطاب : أتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتى البيت فنطوف به ؟ . . . وذهب عمر إلى أبى بكر فقال له نحو هذا فقال له أبو بكر : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرْزِه فوالله إنه على الحق . (فتح البارى ٥/ ٣٣٢) . أى : استمسك بأمره واترك المخالفة له ﷺ .

ولكن المسلمين فى هذا الوقت لم يُحطْ فكرهم بما بين محمد وربه؛ لأن العباد دائماً يعجَلُون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُهدِّىء نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عائدين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على علَّة قبول صلح الحديبية وعدم القتال مع المشركين فى هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون فى مكة يكتمون إيمانهم ويعيشون فى مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو علموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله ﷺ لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة فى قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم فى الإيمان الموجودين فى مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون فى ناحية والكفار فى ناحية لَعذَّب الحقُّ الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن: فقد علم رسول الله من ربه سراً ولم يُعْلِنْه إلا لوقته ، رغم تعجُّل من كانوا معه ﷺ .

ومثل هذا يحدث فى حياتنا ، فقد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته. وعلى هذا المؤمن ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون فى عدم الإجابة خير لا يعلمه. وأن من رحمة الله أنه لم يُجبْ هذه الدعوة ، مثلما تحمى ابنك الشاب من أن يحمل سلاحاً ؛ خوفاً من أن يتهور فى أى مشاجرة ويقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حماية له ،ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدى إلى عواقب وخيمة .

وحين تدعو الله ولا يجيب دعاءك، فَثِقْ أنه سبحانه يحميك من نفسك ؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلَم . فقد تدعو بشىء تحسبُه خيراً والله سبحانه يعلم أنه شر . إذن : فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها (١).

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

والسخط هو: عدم الرضا فى القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله ﷺ : اعدل يا محمد. أى: أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً .

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء فى المجتمع الإيمانى فهو جل وعلا يعطى الدواء الذى يحمى المجتمع من هذا الداء ، وهؤلاء الناس كانوا

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذاً نكثر . قال : الله أكثر ». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٨) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٩٣) وصححه والطبرانى فى الصغير (٢/ ٩٢) .

يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إنْ أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا سخطوا ، إذن : فموازينهم مُختلة ،وليست موازين حق ثابت ، بل هى موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هى موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألدِّ أعدائه (١) .

ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم ، إذا أَخَذُوا رضُوا ، وإذا مُنِعُوا سخِطوا ؛ لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل .

وهنا يأتى الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا آتَاهُمُ ﴾ مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا ؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن له عطاء فى المنح وعطاء فى المنع . فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك . ورسول الله ﷺ حين منع الغنائم عن الأنصار فى حنين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أكبر وأسْمَى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله ﷺ :

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

« المحيا محياكم، والممات مماتكم . لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لَسلكْتُ شعْب الأنصار »(١) .

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون فى المنع إيتاء .

• الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهو عز وجل المشرِّع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلِّغ والمنفِّذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرِّضاء عمل قلبى كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعى هو: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ فكأن الرضا عمل القلب ، والتعبير عن الرضا عمل اللسان، وما داموا قد احتسبوا الأمر عند الله ، فالله هو الذى يرعى، وفى عطائه خير وفى منعه خير . ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غُلبُوا على أمرهم يقولون : إن لنا رباً ، أى : إياك أن تفهم أنك حين منعتنى أو أخذت حقى بأن اعتديت عليّ ستمضى بهذا الفعل دون عقاب ؛ لأن لى رباً يغار علىّ ، وسبحانه سيُعوِّضنى أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته منى قَسْراً ؛ نقمة عليك.

ولذلك فأهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم . وفى أن الله هو القادر على أن يُعوِّض أى شىءيفوت .

ويوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول : ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أى سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل ؛ لأنه يعطى الإنسان قبل أن يكون قادراً على عبادته ، حتى وهو فى بطن أمه لا يقدر على شىء ، فإذا كنت فى الدنيا قد فكرت بالعقل الذى خلقه لك الله ، وعملت بالطاقة

(١) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً .

التى خلقها لك الله ، وفى الأرض التى خلقها الله ، فإنك فى بطن أمك لم تكن قادراً على أى شىء . وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا فى كون ملىء بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تُوجد فيه خيراً . وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهى المطر؛ إن توقفت هلك كل من فى الأرض . ونلمس أثر ذلك حين تأتى مواسم الجفاف فى أى منطقة من العالم ، ونرى كيف يهلك كل شىء؛ الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا فى عالم أغيار ، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً ، والقوى يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله ؛ يأخذها وقتما يشاء ، ونرى القوى الذى كان يفتك بيده ويؤذى بها غيره ويُذلُّ الناس بها . نراه وقد أصيبت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتُشَل . إذن : فقدرة أى إنسان ليست ذاتية فيه، بل هى من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شىء فى الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ويقال: رغب فى كذا أى أراده، ويقال: رغب عن كذا ، أى ترك هذا الأمر . ويقال: رغب إلى كذا أى سار فى الطريق نحوه . وهنا قال الحق :﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ وما دُمْنا إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة، فالدنيا ليست كل شىء عندك؛ ما دُمْتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة . ولذلك فرغبتنا فى الله كان يجب ألا تجعلنا نسخط على نعيم فاتنا فى الدنيا ؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا فى الآخرة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يبين مصارف الصدقة حتى يعرف هؤلاء الراغبون فى متاع الدنيا هذه المصارف ويتعرفوا إلى حقيقة الأمر ، وليتبينوا هل هم يستحقون الصدقة أم لا ، فقال جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

وعندما تسمع كلمة ﴿ إِنَّمَا﴾ فافهم أنه يُرادُ بها القصر ، فإن قلتَ : إنما الرجل زيد ، أى : أنك قصرت الرجولة على زيد . وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ معناها : أن الصدقات محصورة فى هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة ؟ وما المراد هنا بالصدقة ؟ هل هى صدقة التطوع أو الزكاة ؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهى الزكاة ، ولسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة ؟

ونقول : ألا ترى - فى المجتمعات غير الإيمانية الملحدة - أن من الناس مَنْ يفكرون فى إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء ؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزى خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك

كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة ؛ لأنها تأتى تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطى لغير القادر ، وهى غريزة وضعها الله فى خلقه ليخفف من الشقاء فى الكون .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وقد احتار العلماء فى ذلك ، فقال بعضهم : إن الفقير هو الذى لا يجد شيئاً فهو مُعدم. والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا فى ذلك إلى نص قرآنى فى قوله تعالى :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ ... (٧٩)﴾ [الكهف]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شىء يملكونه . ولكن العائد الذى تأتى به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لايملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذى يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول فى هذا الجدل له فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . . الفقير والمسكين . وكلمة "فقير" معناها الذى أتعبت الحياةُ فَقَار ظهره أى فقرات ظهره ، وحاله يغنى للتعبير عنه ، والمسكين هو الذى أذهلته المسكنة.

ثم يأتى بعد ذلك : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى : الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها فى بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان

يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج . ونقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولوقلنا : إن غير المحتاج ويعمل فى جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التى يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر . وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقة ذكى نشيط ؛ لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتى إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالى الذى يوزعها . وفى هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذل أحد أمام أحد ، وفى هذا حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعانى من انكسار يده السُّفْلى .

ومن يعطى لغير بيت المال قد يكون فى عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غنى ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغنى هذا الفقير وهو يأتى إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فَيتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلاف بين غنى وفقير فلن يقول الغنى للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا، أو يقول أولاد الغنى لأولاد الفقير : لولا أبونا لَمُتُّمْ جوعاً .

إذن : فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطى ، ويمنع - أيضاً - ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطى . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالى فلا غضاضة ؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسئولون منه .

ثم يأتى الحق إلى فئة أخرى فيقول : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم ،أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون فى الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم . وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحى الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب فى فئات الزكاة (١) .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ يثير سؤالاً : هل يُؤلَّف القلب ؟ . نقول : نعم ، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوى ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوى ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ ومعناها العبيد الذين أُسروا فى حرب مشروعة . وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام ؛لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . وبعض من الناس يدَّعُون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب (٢) . وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .

---

(١) أسقط عمر سهمهم فى الصدقات لما رأى من إعزاز الدين . وهو أيضاً قول الحسن البصرى والشعبى وغيرهما . وقال الزهرى : لا أعلم نسخاً فى ذلك . وقال ابن العربى : إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٠٦) .

(٢) وهذا مثل قتل المؤمن خطأ ، قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا .. ﴾ [النساء:٩٢] وكذلك كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ... ﴾ [المائدة: ٨٩]

وكان من المعتاد فى تلك الأيام أن المدين الذى يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فُعلَتْ جناية ، فالجانى يأخذ العفو من المجنى عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرق شيءفإن السارق لا يعاقب ، بل يعطى أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم فى سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق فى العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً فى أوروبا وفى آسيا وفى أفريقيا ووُجِد أيضاً فى أمريكا . إذن : كانت هناك منابع متعددة للرق ؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق فى الرق ، لماذا ؟

لأن الرق فى ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

ثم حرمها تحريماً قاطعاً (١) .

(١) مرَّ تحريم الخمر بثلاث مراحل :
١ - ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... (٢١٩) ﴾ [البقرة]
٢ - ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... (٤٣) ﴾ [النساء]
٣ - ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة]

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق . وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولى الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة ؛ فالذى يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبة [1] .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهى فى سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنهِى الرق فعلاً ، وإنْ لم يُنْهِه شكلاً .

فإذا كان عند أى سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطْعم ، فإن كلَّفه يعينه[2] . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .

وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن

---

(١) وفى فضل العتق يقول ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . أخرجه البخارى (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩) .

(٢) عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) .

حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوى شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ..(٣٦) ﴾ [النساء]

نقول : افهم عن الله ، فهذا الأمر لا يسرى إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة فى الحرب ، أى : كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت فى الأَسْر ، والذى يسرى على الرجل فى الأسر يسرى عليها ، ثم من أى مصدر ستعيش وهى فى بلد عدوة لها ؛ إنَّ تركها فى المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها. كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمَة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً [1] ، وفى هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقى الزكاة : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ والغارم : هو من استدان فى غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّيْن كما أمر الله فى قوله تعالى :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ..(٢٨٠) ﴾ [البقرة]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفى هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّيْن . لكن لماذا هذا التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذى لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن إقراض الذى يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر

(١) وهى ما يسمى فى الشرع « أم ولد » ، وهى الأمة تصير حرة إذا ولدت من سيدها ، وله أن يستمتع بها ما دام حياً ، فإذا مات فهى حرة . انظر نيل الأوطار (٦/ ٩٦ - ٩٩) .

فى المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس فى ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان فى عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة . أو : أن الغارم هو الذى أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفضِّ الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له : خذ من بيت المال حتى يشيع فى النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن : فالغارم هو المستدين فى غير معصية ولا يقدر على سداد الدين، أو المتحمِّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . يقول جمهور الفقهاء: إنها تنطبق على الجهاد [1]؛ لأن الذى يضحى بماله مجاهداً فى سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما تضحى بالمال أو النفس فى سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة بأنك إذا أنفقتَ المال جهاداً فى سبيل الله دخلتَ الجنة ما أنفقت .

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلَّغ ومنهج يُحقَّق ، والمجاهد فى سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة فى الإسلام هى التى تُقَوِّيه وتُثَبِّته فى النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقى بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

(١) قال القرطبى من المفسرين (٤/ ٣١١٠) : « ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة وموضع الرباط ، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء . وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعمار » .

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات[١] .

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمنهوري وهذا طنطاوي ، إلى آخره حسب البلد الذي هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى في الطريق في غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح : ابْن السَّبِيلِ ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لابد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه في هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفرالشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافرليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله في الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أي مفاجأة قد تجعلهم في عسر ، فالذين سافروا سياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا في الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن: فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة، ولا يجد ما يعود به إلى بلده.

ثم يقول الحق سبحانه :﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرِّقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

(١) قال الزبيدي في شرحه لإحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٠) : « فيخرجها فيما تطلبه مكارم الأخلاق من غير اعتبار صنف من أصناف المخلوقين ، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان حتى الشجرة يراها تموت عطشاً ، فيكون عنده بما يشتري لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله » .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة فى الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذى يعيش فيه ؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم . ثم جاء الإنسان إلى الكون؛ ليجد كل شيء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا زُرِعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه ؛ فالحمار تُحمِّله السباخ والقاذورات فلا يرفض ، وتنظفه وتجعله مَطِيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذى خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده - ولله المثل الأعلى- نحن نعرف أن المهندس الذى يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها . فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار ؟ إن خلق الإنسان لا يقتضى علماً فقط ، ولكنه يقتضى أيضاً حكمة ؛ لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتى بقانون من عندك ؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لتضع الشيء فى موضعه السليم . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضى مُتصدِّقاً وهو المعطى ، ومُتصدَّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو الذى يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشيء الذى تتصدق به ، إذن فهناك ثلاثة عناصر : المتصدِّق، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به .

قد يتساءل بعض الناس : لماذا خلق الله الإنسان الخليفة فى الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطى وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين ؟

نقول : إن مفارقات التقابل فى الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكمِّل للنهار، والنهار مُكمِّل لليل . ولو لم يُخْلقَا معاً متكاملين ؛ لاختلَّ التوازن فى الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

إذن: فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَم الإنسان ويسترِحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون: لا بد أن تساوى المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) ﴾ [الليل]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

أى: كُلٌّ له مهمة فى الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه فى خلق الكون أن يجعل كل شىء يخدم الإنسان ؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستجيباً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان ؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذلَّلاً بقدراتهم هم ، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته ينقاد لطفل صغير ، بينما الثعبان الصغير على دقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه .

وفى الوقت نفسه، فإن هذه الحكمة تقتضى أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان . ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هى هبة من الله ، وليست فى ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية فى الإنسان ما وُجد عاجز . ولا بد أن يفهم كل قوى أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر.

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون فى الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصى ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون . وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين، فمن الذى يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذى يقوم بتسليك البالوعات؟ ومن الذى يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد فى إصلاح المجارى ؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجارى ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتى من هذا العمل .

ولكن أيبقى هذا الحال على ما هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُتداوَلُ بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مأتم . وتأتى أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هى مصدر الرزق الوفير ، وهى التى يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا فى الجامعات وأهِّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التى تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبنى بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنَّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها فى وقت واحد . فلا بد أن تتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش . بل وتجد أن الإنسان قد يتخصص فى عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال : " باب النجار مخلّع " ؛ لأن الأبواب الأخرى التى يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صناعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً فى الكون ، بل مستخلف فيه ؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون . وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المعُطى ، بل هما متعادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر . إما أنك فى نعمة فتشكر . وإما أنك فى محنة فتصبر . وعندما نتأمل الغنى المستخلَف فى النعمة نجد أنه قد أخذ النصف الذى يخصه كشاكر ، وحُرِمَ من النصف الآخر الإيمانى وهو الصبر ؛ ولذلك يأتى الإسلام له بتشريع يأَخذ منه بعضاً من ماله الذى حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطى بعضاً من فائدة عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبَّقا منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغنى وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسأل عن الفقراء ليعطيهم .

وكثيراً ما نرى إنساناً عزيزاً فى أزمة ، ونجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذى يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطى بعضاً منه أخاه المحتاج ؛ ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر

سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يقرض الله ، ولله المثل الأعلى؛ كالأب الذى يعطى مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم فى حصالته ، ثم تأتى للأب أزمة مالية، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما فى حصالاتهم، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله، وطلب منه أن يقرضه .

وفى هذا مَيْزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ ميزة وشرفَ أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير. فالغنى ليس له ركن فى إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغنى . والغنى حين يعطى جزءاً من ماله فهو يستغنى عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغنى عن الشىء وتستغنى بالشىء. والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغنى صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان .

والمثال الذى أقوله دائماً ، يوضح ذلك : لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه فى صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هى فائدة جبل الذهب هذا ؟ إنه لا يساوى شيئاً . إذن: فالمال ليس غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغنى ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعاد إلى المال وظيفته فى أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه فى أكمل ما ينفعك ؛ وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة فى العمل ؛حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجِد فائض من مال للزكاة.

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذى يكسبه الإنسان فى الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله. وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لاتحب أن يفارقك المال الزائد، وفى الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال فى خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك.

إذن: فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لتحسُنَ آخرتك. والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش. فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل.

وعلى سبيل المثال: إن عثر الإنسان على كنز فزكاته عشرون فى المائة [1] ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هى عشرة فى المائة [2] ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومى كالتجارة ، فالزكاة هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان فى عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسان فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك.

(١) زكاة الكنز: هو ما يسمى زكاة الركاز، وقد قال ﷺ: « وفى الركاز الخمس» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبى هريرة. والركاز هو ما ركز فى باطن الأرض من معادن وأحجار وغير ذلك.

(٢) فى هذا تفصيل ، فالقدر الذى يجب إخراجه يختلف باختلاف السقى، فما سقى بدون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج (أى ١٠٪) أما إن سقى بآلة أو بماء مشترى، ففيه نصف العشر (أى ٥٪)، ودليل هذا قول رسول الله ﷺ: « فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريا العشر، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه البخارى (١٤٨٣) عن ابن عمر.

فالذى يبنى عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن: فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن فى بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذى يأتى بالمال ، وينسون أن الله هو الذى ييسره لهم، ويُمكّنُهم منه. ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تتلف الزرع وتُضَيّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْى ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شىء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها.

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة أخرى فيبارك فى زرع فى بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح فى دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشترى هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التى جاءها محصول وفير إلى الدول التى هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعادل سبل الحياة.

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطى القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى. فالقدرة المطلقة هى لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّر بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر فى حَمْل شىء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله.

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ؛ وبين أن تهبَ الغير هذه القوة. فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء.

المال - إذن -لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال. إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم. ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب فى أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقى الأيام. أما إذا كان المصروف فى كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم فى كل يوم.

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما فى صدور الناس ؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب.

ونحن نعيش فى عالم أغيار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً. ولذلك نجد القادر يمتلىء بالقلق إن رأى عاجزاً. وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة]

إذن: فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التى قد تصيبه، وتُزكِّى الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نمواً وزيادة وإن بدت فى ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه [1] تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهى عكس الربا الذى قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ،

(١) هذا مثال فقط، وليس معناه أن من معه مائة جنيه تجب فيها الزكاة، فزكاة المال لها نصاب محدد قدره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عليها الحول.

ولكنه يمحق كل خير ، وظاهر الزكاة أنها نقص ، ولكنها فى حقيقتها نماء . والنماء أن يترقى الشيء فى مراتب الكمال ؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . فى هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت فى سبيل الله ، أى : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك فى عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه . وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ :« يقول ابن آدم : مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ »[(١)]

إذن : فالذى يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود فى الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال - إذا أراد أن يبقيه - فلينفقه فى الصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضى الله عنها : « تصدقى بلحمها ». وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣٨) عن عبد الله بن الشخير .

والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها »(1) .

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقى . وما أبقته لهما هو الذى سيفنى . وهكذا سمى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذى يحب صحبة ماله فى الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خير الثواب فى الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ . قال الإمام على كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندى ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً .

ونقول للذى يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هى المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء فى موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ » قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : « بقى كلها غير كتفها » .

وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غنى وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط فى الدنيا ؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا فى شىء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقى ، وغيرى يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقى . فأكون فى حاجة إلى عمل غيرى ، وغيرى يحتاج عملى ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة فى الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة فى الرزق وغير ذلك.

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان فى النهاية يتساوى مع مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء. ولكن إن عادت نعمة القادر الغنى على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحِباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ الغنى

القوة ، حُرِم العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله فى تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها .

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغنى ، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى أن يقتله أو يتآمر على قتله .

إذن : فالزكاة فى المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها . وهى ضرورة من ضروريات الحياة . ولذلك رأينا القادرين فى المجتمعات التى لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد فى معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذى فرضها هو الحق سبحانه بقوله : ﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ .

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لايحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكى تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتى إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء. ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه - ولله المثل الأعلى - فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨) ﴾ [التوبة]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ
قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ
وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يارب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار.

وهنا يقول الحق سبحانه (١):

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبى بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء. والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم. وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل: أبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... (٢٧) ﴾ [هود]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١١٧) : « هذه الآية نزلت فى عتاب بن قشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث . قاله ابن إسحاق » .

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان فى نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحى ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ . فإذا كان هناك شىء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم فى أخلاقه ﷺ . ورغم ذلك كانوا فى غيظ وكَمَد ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم [١] . ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿٣٢﴾﴾

[الزخرف]

وفى هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم فى اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار . وهو الذى قسم بين العباد معيشتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

(١) القريتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ».

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر فى المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعى أن يكون للنبى أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه فى ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له ﷺ فى عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هى التى يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هىَ العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يمحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودِنى» أى : يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن: فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا

أخذنا كلامهم فى أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحى . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاو له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله فى حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التى استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض.

فإذا كان المنافقون قد قالوا : (هُوَ أُذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم.

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفى اللغة ما يسمونه " القول بالموجب " ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلْتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كَاهلى [1] بأياديك ، أى أن أفضالك علىَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : " أنا طولت عليك " ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت علىَّ ، أى : أعطيتنى نعمة بأنك أسعدتنى بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال.

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم فى كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به. وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١)الكاهل : هو ما بين كتفى الإنسان .

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أُذُن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التى أقرها الله سبحانه وتعالى.

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار. لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتى من رسالته إلا الخير لمن اتبعه.

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار. فكان رسول الله ﷺ لايفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء.

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد فى سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب " ، أي : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا :

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرِج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر

بظمأ شديد ويُلِحُّ فى طلب كوب ماء . فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ "**أُذُن**" ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ **أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ** ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن: فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا. ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ وبين قوله عز وجل :﴿ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾. فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء فى قوله : ﴿ **بِاللَّهِ** ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام فى قوله : ﴿ **لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ أى : يصدق بوجوده. والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم فى ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة فى ذلك ؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون.

ومادة "آمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعدية. مثلما تقول : "آمنت الطريق" أى : اطمأننت إلى أنه لن يصيبنى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... (٤) ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة.

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثانى. وقوله سبحانه ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : "أمتى أمتى" .(1) وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى باتقاء الضرر.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد . ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين فى قلوبهم وفيما بينهم فى مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون فى الصدقات ، ويقولون : إنه **أُذُنٌ** ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتى الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [(١)] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ **يَحْلِفُونَ** ﴾ فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ** ﴾ وفى هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

---

(١) هذه السورة لها أسماء كثيرة فهى : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة : هى سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها المشقشقة . وقال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها : المسورة ، ويقال لها : البحوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٩) .

وأيضاً يقول الحق :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ... ﴿٩٥﴾ ﴾ [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ،أى فى المستقبل ، أى : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة "حلف" هى القسم أو اليمين . وحين نتمعن فى القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة :

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن الذى يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل **"حلف"** فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أى : أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو

لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله فى كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغى رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق.

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ وكان القياس اللغوى على حسب كلام البشر أن يقول: والله ورسوله أحق أن ترضوهما. وشاء الحق أن يأتى بها ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتى بالقرآن من عنده ، ولكنه وحى من عند الله . وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذى فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ... (١٠) ﴾ [الفتح]

ويقول سبحانه:

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ... (٣١) ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ... (٨٠) ﴾ [النساء]

إذن: فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضى الله يُرضى الرسول ﷺ ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول[1].

(١) وقد جاء هذا فى حديث متفق عليه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله » أخرجه البخارى (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) .

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إنى أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله : « وقعت على الخير »[1] . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذى يثنى على رجل يقول أمامه : إنى لا أتوب إلى محمد، وإنما أتوب إلى الله.

وقول الحق سبحانه : ﴿ **إن كَانُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ أى : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً.

إذن : فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله. ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ ولم يقل يرضوهما[2] .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

---

(١) عن الأسود بن سريع أن النبى ﷺ أُتى بأسير فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال النبى ﷺ : « عرف الحق لأهلهَ » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٣٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٩٩) « وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح» وقد ضعف الحافظ العراقى إسناد هذا الحديث فى تخريجه للإحياء (١/ ٢٢٠) .

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه إفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبى ثلاثة تقديرات ثم قال : « وقيل : إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿ **مَن يطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** .. ﴾ [النساء : ٨٠] . وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : حرف وأيما حرف . فوِّض إليه فلا يأمرنا إلا بخير » . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١١٩) .

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم.

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً. وسبق أن قلنا : إن الاستفهام فيه نفى ، والهمزة همزة استفهام. ولم تأت للنفى ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفى يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك.

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد فى الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذى يفصل بين حق وحق ويسمونها حداً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله فى جانب وهم فى جانب ، وبذلك لا يعيشون فى معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه. بل يجعلون حداً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا :﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعنى : يعادى ، وقالوا : بمعنى يشاقق ؛ أى : يجعل نفسه فى شق والله ورسوله ودينه فى شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو فى وجهة ودين الله

فى وجهة أخرى [١] . وهناك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد" ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذى يفصل أى شىء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذى يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً فى جانب الإيمان ، وألا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أى : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهى ؛ لأن منهج الدين كله فى "افعل" و "لاتفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ...(١٨٧) ﴾ [البقرة]

ويقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

ويسأل بعض الناس: ما الفرق بين اللفظين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ . ونقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهى عنه .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال :

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ... (١٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) وقد جمع ابن كثير هذه المعانى كلها فى تفسيره للآية فقال : « أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد » . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٦) .

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أى : لا نقرب أى مكان فيه خمر (١) ؛ لأن وجود الإنسان فى مكان فيه خمر قد يوحى إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يقى النفس المؤمنة من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه فى أدب الاعتكاف :

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

المنهى عنه هنا هو المباشرة ، أى : إن تواجدت الزوجة مع زوجها فى المسجد ، فليس فى هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج (٢) ، ثم

---

(١) وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٩٧) وأبو داود فى سننه (٣٦٧٤) والحاكم فى مستدركه شاهداً وقال : ولم يخرجاه . والطبرانى فى الصغير (١/ ٢٦٦) .

(٢) « الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً فى مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه » انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٤) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

إذن : ففيما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أى : لا تكن أنت والشىء الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما فى الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

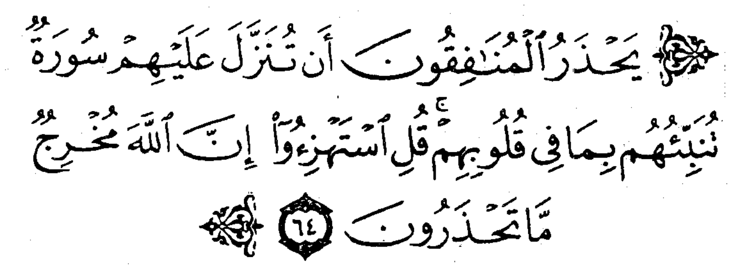
إذن : ففى الأوامر يقول الحق : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ والإنذار هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدى فقط ، ولكنه عذاب فيه خزى وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذى يعدهم الله به فى الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزى وهوان . ويتمثل الخزى فى أن المتكبر فى الدنيا يأتى إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفى خزياً أن يكون فى النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم فى الدنيا يعيشون فى نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة .

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :


﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال ؛ يقال لمن يسافر فى طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير فى هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه فى نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما فى نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما فى بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضى أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتى فى المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن فى القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث فى الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب فى القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾

[القصص]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضى ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود]

وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ؛ فقال :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة [(١)] ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قال الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا ؟ [(٢)]

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت يا ربى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

أى : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الزركشى : « السين هنا للاستمرار ؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : (ما ولاهم) ، فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال » . انظر : البرهان فى علوم القرآن (٤/ ٢٨٠) .

(٢)ذكر ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/ ٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ قال: قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يطلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث فى أعماق النفس . وما يدور فى صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سرَّك الذاتى مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

هم قالوا فى أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه فى أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يُكذِّبوا رسول الله فيما أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا فى حذر ، وكان يغلب على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلِّغ رسوله أن يرد عليهم : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله: هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب فى مجالسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له [١] .

والخوض أن تُدخلَ نفسك فى سائل ، مثل الذى يخوض فى الماء أو يخوض فى الطينَ ، وقد أطلق على كلٍّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض فى الباطل ، أى: أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب .

ويقول الله لرسوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى: إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، قل : أليس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل فى هذه المسائل خوض ولعب ؟

ثم يعطيهم الله الحكم:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعنى: أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان.

---

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين فى غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عناء الطريق . انظر: أسباب النزول -للواحدى ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جَلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما فى نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التى ستتوب توبة صادقة ، والتى لم تشترك فى هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم - والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أى قطعتها ، وسمى إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أى الذين قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ... ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]

أما باقى الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث فى الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السِّتْر فى الذكورة . ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين.. ولذلك كان لابد من النص على المنافقات.

وقول الحق سبحانه: ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى: لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر فى الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الله خصالهم فى قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون فى سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أى أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً.

ثم يعطى الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما نعرف - مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن فى الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً فى الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثانى، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛وهو مأخوذ من «فسقت الرطب»

أى : انفصلت القشرة عن الثمرة. والقشرة - كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثمرة ؛ فإذا فسقت عنها تلفت الثمرة . والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس. وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك ؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة ؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فأمناه ، ويستطيع أن يلحق بنا شرّاً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفى - كما نعلم - شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف ما فى نفسى ، ويعرف كل تحركاتى ، ويستطيع أن يغدر بى فى أى وقت دون أن أكون منتبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا فى هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هى القاتلة وهى المؤثرة.

هنا نلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً فى النار إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم.

في قــوله تعــالى : ﴿ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء]

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود فى الجنة أبداً مرات كثيرة [(١)] .

ونقـول : إن الجنة هى بُشْـرى النعـيم للمـؤمنين . ويريد الحق سبـحـانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذى ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهى دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود فى النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا فى ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت فى النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدى . وفى نفس الوقت تأبى رحـمتـه سبـحـانه وتعالى أن يكون ذلك فى كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، علَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود]

(١) ذكـر الـخلود فى الجنة أبداً فى ٨ مـواضع من القـرآن الكريم [النسـاء : ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة : ١١٩] ، [التوبة : ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن : ٩] ، [الطلاق : ١١] ، [البينة : ٨] .

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتى فى هذه الآيات ويستثنى ويقول: ﴿ **إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فُيعذَّب فى النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والثانى يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن: فالمؤمن العاصى لا يخلد فى النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ لأنه لن يبقى فى النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده فى النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان فى النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصى. وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أى منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذى غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصى ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه.

إذن : فالمؤمن العاصى خلوده فى النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً. وكذلك يفتقد الخلود فى الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة[1] .

وقول الحق عن خلود المنافقين فى النار : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أى تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتى إنسان قوى ويقول لك : اتركه لى ، أنا وحدى كفيل أن أؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أى يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أى : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ فى الدنيا هو عذاب مقيم فى الآخرة .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٦٠) : « هذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة » . وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصارى معنى جميلاً فى كتابه : « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ١٩٥ فقال : « هو استثناء من الخلود فى عذاب أهل النار ، ومن الخلود فى نعيم أهل الجنة ؛ لأن أهل النار لا يخلدون فى عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، وبأنواع أخر من العذاب ، وبما هو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم . وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك » .

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوانَ هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى : عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار.

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه :

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾
[الفجر]

ونحن لم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ ، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد . وقد يتساءل بعض الناس : أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم ؟ . ونقول : إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطِها لأحد حتى الآن.

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم في القرآن بقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾. والأهرامات أوتاد ، والمسلات أوتاد ، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن ، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن ، مثل سر التحنيط وبناء الأهرام ؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض ، دون أية مواد مثبتة ، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيّاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد

مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها. وإذا بالعالم كله يأتى ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقى فى العلم . فإذا كانت هذه هى حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة فى باطن الأرض. ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها فى زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم فى الحضارة ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن فى الكون ؛ مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوى شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم.

وإن سأل سائل : أين هى حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ؟ نقول له : إنها فى وادى الأحقاف [1] والهبّة الواحدة من الرياح فى هذا الوادى تستر قافلة بأكملها ؛ أى إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تدارى الطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذى كانت تقطنه ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لابد إذن من حفريات على مستوى عميق جدّاً لنعثر على تلك الحضارة ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق

(١) الأحقاف : هى صحراء مترامية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . والأحقاف فى اللغة هى: ما اعوج من الرمال واستطال .

الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة فى القـرى ، لابد أن تـنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطـريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية فى وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير فى أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أى : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضاريّـاً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم فى حجرة ، يقال عنهم : « كثير » . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعته فى مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم فى الماضى مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فى حيزهم الذى يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التى كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أى أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ والخلاق هو النصيب أو الحظ الذى يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) ﴾
[البقرة]

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره فى الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم فى بعض البلاد يُلْقون بالفائض فى البحر ، بينما نجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب" و "عطاء للإله" . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقى لها التقاوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزى به الإنسان فى الآخرة ، والذى

يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم فى الآخرة.

والأسباب فى الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصى ؛ لأن هذا عطاء ربوبية. من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها . . وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف . . أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة . . أو النفوذ والجاه فى الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفى بالك الله .

وبعض الناس يأتى ليقول لك: هل الذى اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب فى النار ؟

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس فى باله الله . . وإنما فعله وفى باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ فى الأرض ؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس فى المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين.

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره فى الدنيا ، ولكن الذى عمل وفى باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ فى الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضاريّاً ، حتى إنك الآن فى بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطى لك القهوة أو الشاى ،

وآخر يعطيك الطعام . . نقول : إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك .

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن يأتى اليوم الذى يجعل الشىء يخطر ببالك فتجده أمامك . . ولكنك فى الجنة بمجرد أن يخطر الشىء على بالك تجده أمامك [1] ؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب .

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب فى الدنيا ، ولكن فى الآخرة يأتى لك الشىء بلا عمل ، مختلفاً فى مذاقه ورائحته عن الدنيا .

إذن : فالذى يعمل وفى باله الأسباب فقط يعطى فى الدنيا ، والذى يعمل وفى باله خالق الأسباب يعطى فى الحياتين ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ والَّذينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب الذى تمشى له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذى لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال له: أجرك ممن عملت له . وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر فى الآخرة ؛ لأن الله هو الذى يجزى فى الآخرة.

(١) ورد فى هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) . فيه حميد بن عطاء الأعرج . قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) : ضعيف . ولكن قال الذهبى فى الميزان (٢/ ١٣٧) : متروك . فالحديث ضعيف .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ **فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ** ﴾ أى : أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا ، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب ؛ لأن النصيب فى الآخرة يأتى بـ « افعل » و « لا تفعل » فى التكليف ، فإذا فعلت الاثنين ترتقى ، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب ، ولم ينسوا المسبب . . بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب فى « افعل » و « لا تفعل » ؛ فملكوا الدنيا ألف سنة. ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة ، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً ، فقد بقى دينهم فى نفوسهم ، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام. فقد بقى منارة هادية ، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً.

وقول الحق سبحانه : ﴿ **فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ** ﴾ أى : خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب ، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان ؛ لأن عمر الفرد فى الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها ؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتى من بعدك . وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله . هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام ؟ إذن : عمرك فى الدنيا مظنون موقوت ، فعملك لأسباب الدنيا محدود المدة ، بمقدار عمرك فى الدنيا.

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهى حتماً.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ **كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ** ﴾ أى : أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم ، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً ، وهم خاضوا فى الأنبياء ، وأنتم خضتم أيضاً فى الأنبياء ، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من

قبلكم فى أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم فى الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج.

﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أى: فشلت وضاعت أعمالكم فى الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم فى الدنيا وكانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدنياه ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً فى الآخرة .

فالذين حبطت أعمالهم فى الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدى المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ،وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أى الخسران المحيط بطرفى الزمن ؛ الدنيا والآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق فى الآية السابقة القضية العامة فى قوله : ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ﴾ جاء فى هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وساعة يقول : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فهنا همزة الاستفهام ، ولام النفى. والهمزة تنفى هذا النفي، أى أتاهم نبأ هؤلاء. وحين ينفى النفى فى أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : « نعم » ، فحين تقول لإنسان: أنت تخليت عنى فى محنتى . فيقول : ألم أزرك فى يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شىء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقيّاً.

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ولم يقل : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ فى غيبتهم ، فهو ﷺ حريص على هدايتهم.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة ؛ ولذلك فكل شىء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة.

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التى كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التى تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان . وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى رداً على من سخروا من نوح :

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سوف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هى من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم .

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط . ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم]

أى : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

أى : لتصرفنا عنهم .

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته . وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض فى زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود فى بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى .

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جـدّاً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .

وحين يقول سبحانه : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبينات هى الشىء الذى يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التى صاحبت الرسالات السماوية بيَّنتْ وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتى بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتى بشىء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة ، فعندما اختُرع الفانوس السحرى ، قال بعض الناس : إنه شىء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لابد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذى لم يقرأ حرفاً فى حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوى الذى يقضى حياته كلها فى الصحراء ؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِشْ حضارة ولم يدرس علماً .

إذن : فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة. والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتى به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان.

ويقول الحق عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأىُّ حق ذلك الذى نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب الإيمان به وعبادته.

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم . وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور [1] ؛ هذا الذى ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصفَ فيها المنافقون فى قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... (٦٧) ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبى بكرة قال قال النبى ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثاً) قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين – وجلس وكان متكئاً فقال – : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

يمدح محبوبته فيقول :

فالوَجْهُ مثْلُ الصبح مُبيضٌ والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ
ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا والضِّدُّ يُظهِر حُسْنه الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيما يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف فى شىء ؛ لأنه سبحانه قال فى المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبنى على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً . وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون فى تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد فى مؤمن شر ؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء . بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية . فإن وُجدَ فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ،والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويُبصِّره ، وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر فى شىء يجد القريب منه ؛وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه .

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لم يبين لنا من المولى ومن الموَالَى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أى صار قريباً ، وضدها عاداهُ أى بَعُدَ عنه وتركه . إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما ، فأخى المؤمن ينصرنى فيه . وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولو قيل : « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن . فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت توصينى وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن .

إذن : فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت وليى ، أى قريب منى تنصرنى فى ضعفى ، وأنا وليُّك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ؛ ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة فى قول الحق فى ذاته :

﴿ **هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ** .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقى والقرب الحقيقى لله ؛ لأننا نعيش فى عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوى دائماً ، والغنى دائماً ، الذى يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقى الدائم لا نصر الأغيار .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) ﴾ [يونس]

أى : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى :

﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** (٧) ﴾ [محمد]

أى : إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك فى أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية فى الأصل هى القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف فى مؤمن ، ونقطة قوة فى مؤمن آخر ،

ولكن مَن الذى سيكون فى ضعف دائماً ، أو فى قوة دائماً ؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وإعجازه ولكنهم لا يؤمنون ؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك فى أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قسمها بينكم ، وحياتكم فى الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التى هى حق لله سبحانه وتعالى وحده .

ونلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مبهمة ، فإن كلاًّ منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاًّ منا متميز فى ناحية وغير متميز فى ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم فى الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه فى شىء فلابد أن يسأل نفسه : فى أى الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفى أى الأشياء الناس أحسن منى ؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن فى باقى الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا فى الشىء الذى لا أجيده مرفوع علىّ ، وفى الشىء الذى أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد فى كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

ولكن الآفة أننا لا ننظر فى الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غنى وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة فى الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية فى زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً فى زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان فى نهاية الأمر يساوى مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك فى شىء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك فى أى مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولابد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه

لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب الذى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً.

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس نجد أن اليد اليمنى تؤدى الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر فى قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوى مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهى يتدخل هنا ، فنجد - على سبيل المثال - الرجل الغنى الذى يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتى عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف فى الطعام ؛ لابد أن يأتى عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته فى أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكى يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لى فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم.

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذى يعالج المريض ؟ ومن الذى يحفر الأرض ؟ ومن الذى يحمل الطوب ؟ ومن الذى ينظف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا فى الموهبة

أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لابد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لى . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس.

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم: ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف . وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهى عن منكر.

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون فى يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التى فى يده ، لايمكن إذن أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذى يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذى ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه [1] . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف. وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وإقامة الصلاة هى إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ،ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولى الأعلى الذى لا نستغنى عنه جميعاً.

(١) عن أسامة بن زيد قال ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) . أقتاب البطن : أمعاؤها .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... (٧) ﴾ [محمد]

إذن: فلابد أن نتجه جميعاً إلى الوالى (١) الكبير. فهو سبحانه فوق أسبابنا، وفوق قوتنا وهو الذى ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض، فنلجأ للولى الكبير. وما دامت الولاية لله الحق، فلابد أن نستديم فى ولائنا له سبحانه وتعالى. واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة. وساعة تسمع المؤذن يقول: « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة، فلابد أن تجيب الدعوة (٢).

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون فى معية الله دائماً فافعل، بعد أن تكون قد أدَّيْتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات فى اليوم الواحد، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففى هذا صلاح الإنسان. وأنت إنْ جئتَ بأى آلة وجعلتَ المهندس الذى صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً.

كذلك الإنسان وهو صنعة الله، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه. والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات، سواء كان باكتشاف نقص فى الوصلات الكهربية أو كسر فى أى شىء، فالمادة تصلح بالمادة، ولكن الله سبحانه

(١) الوالى: من أسماء الله عز وجل: وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها. قال ابن الأثير: وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل.

(٢) عن أبى هريرة قال: أتى النبى ﷺ رجل أعمى. فقال: يا رسول الله إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد. فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلى فى بيته. فرخص له. فلما ولى دعاه فقال: « هل تسمع النداء بالصلاة؟ » فقال: نعم. قال: « فأجب ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٥٣).

غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أى كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة [1] ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل . ولذلك كان ﷺ يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال [2] كأن الراحة بها ، أى : اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة.

لذلك كان لابد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت .

ولكى تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شىء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لاينهى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى المقابلة مع ربك.

---

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

ويقول رسول الله ﷺ : « لايمل الله حتى تملوا »[١].

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده في وقت واحد ، ويستمع إليهم في وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد.

ويقول سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار ؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطي ، وفي الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقي له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتي بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفي الصلاة ضحيت بوقتك في أوقات محددة.

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ ؟

نقول: الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

(١)متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣) ومسلم في صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هي كل الإسلام . بل هي القواعد التي بُنِي عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس » [1] . إذن : فهذه هي الأعمدة أو الأسس التي بُنِي عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة في الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقى ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التي وضعت ، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به في كل حركة الحياة.

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشيء الذي تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهي وضع خميرة في عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل ، والذي بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة في العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء. فالبنسلين - على سبيل المثال - اكتُشف نتيجة خطأ. وقاعدة أرشميدس التي بنيت عليها نظرية الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس. وحين يأتي ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدي خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم.

ومثال آخر : ما الذي جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذي جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدانا إليه الله .

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما ننتفع به في حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتي ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذاريات]

نقول : سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط . ولكنك لكي تصلي ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلي وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتي بهذا الرغيف ؟ من البقال . ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكي يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكي يسقي .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة في الحياة تعينك على أداء العبادة هي عبادة .

ومثال آخر : لكي تصلي لابد أن تستر عورتك في الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتي به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقي القطن من الآفات . كل هذه هي من حركات الحياة التي مكَّنَتْكَ أن تستر عورتك في الصلاة، وكل منها عبادة.

إذن : كان من الضرورى أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله فى الإسلام الذى بنى على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : ﴿ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً فى رحمة الله التى لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم]

أى أن الود سيكون مستمراً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أى : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق [(١)] ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التى لا تتناهى ولا تنتهى. ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ... (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تُشْقى الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر. وهناك سلامة ليست من أول الأمر. ومن عنده خصلة سيئة - وهى داء - يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهى ألا يأتى داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى . لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية.

ويأتى بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم فى الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تصيبه». متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٢).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

والوعد: بشارة بخير يأتى زمانه بعد الكلام. والوعيد: إنذار بسوء يأتى بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل؛ حتى يتحقق له الخير الذى وُعد به. والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ ثم ذكر العذاب الذى ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم وصف النعيم الذى ينتظرهم ، مع أن الشائع فى اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب فى عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين » ؛ لأن الذى سيأتى بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول فى المؤمنين : وَعَدَ اللَّهُ لأن الذى سيأتى بعد ذلك جنة ونعيم وخير.

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشرى ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهى تقال دائماً للخير فى حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشرى ؛ لأنه وعد بخير.

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد ».

فالذى يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقِسْ كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم فى كلامهم ملاحظ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون فى الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد.

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول: إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن أصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذى ينتظرهم ؛ علَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل فى دروسه : سترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة . وأوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذى أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)** ﴾ [الرحمن]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ أى : فبأى نعم ربك تكذب ؟ نقول : نعم إنه نعمة ؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك : إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة .

إذن : فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذى ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفى هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذى أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ والوعد كما قلنا بشارة بخير مستقبلى ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتى فى المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة .

ولذلك نقول للذى يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذى يؤهلك لدخول الكلية التى تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصِلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد . إن وفَّيْتَ ما وعدت ووقيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم .

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستُبعِدَ الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد فى حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لايكون لكلامه وزن فى حركة الحياة.

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن : فلكى تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتى الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوى دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شيء يمكن أن يجعله لا يفى بوعده أو لا يُتِمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

[المسد]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص[1] وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا فى سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد فى العام السابع من الهجرة بعد غزوة خيبر . أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ . أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح فى صفر سنة ٨ هـ. انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (٩٨/٢) ، (٢٥٨/٤)، (٢/٥).

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول : إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكَّ فى هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شئ قدير.

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها فى المصحف الشريف فى سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى فى الأمور الاختيارية فى الحياة ، فإذا قال الله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه ﴾ . وإذا وعد بخير فإنه سيأتى لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً .

إذن : فلكى تستقيم موازين الحياة ، كان لابد أن يأتى الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله فى مُلْكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد.

وقد يأتى الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريَّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهى لا تعطيك شيئاً.

إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذى يجدُّ فى زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذى لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير فى الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه .

إذن : فلكى تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا فى كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذى يجتهد ينجح ، والذى لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر ينجح ومن يذاكر يرسب ؛ اختلت حركة الحياة المثمرة الناجحة .

إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أى كوفىء الذى لا يعمل وعوقب الذى يعمل فسد الكون . لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف فى ذلك مؤمن أو عاصٍ أو كافر ، ولكن العاصى والكافر يحبان نفسيهما حبّاً أحمق ؛ فيحققانٍ لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة فى زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر فى زمن لا ينتهى .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - ولله المثل الأعلى - فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلى ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع فى الشوارع ، وحين تُحدِّثه نفسه بأى متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة.

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة فى سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثانى فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوى شيئاً فى المجتمع.

إذن : فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هى التى تختلف. فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيتحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطى نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً.

والعجيب أنك تجد أن هذه هى سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح فى حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه فى سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة فى أولها ليشقى بقية عمره.

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب فى أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره. والمثل الشائع يقول : من جار على شبابه ، أى : ضيَّعه فيما لا يفيد ؛ جارت عليه شيخوخته. والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة. ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع. وعلى كل ولى أمر ؛ فى أى مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكى يتم الاجتهاد . ولابد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَان حركة الحياة.

ولكن إذا رأينا فى مجتمع ما أن الذى يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذى لا يعمل يأخذ كل شىء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت. وأن المتاعب قد بدأت فى المجتمع ؛ لأن الذى يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شىء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله فى النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذى يملك الأمر . وتكون النتيجة هى فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً فى النفاق والرياء وضياع الحق.

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة فى الوعد والوعيد ؛ فلا تُعْط حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد ؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافزَ على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك فى بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذى يعمل فى جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة فى المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هى حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه، فإنْ أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذى خسر.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف - ومعنى الكهف مغارة فى جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف - حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذى القرنين قال :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذى يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخلَ نفسه فى متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله فى الأرض (١) . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله فى الأرض ؛ فى أى زمان ، وفى أى مكان . ومهمة من يمكنه الله فى الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

[الكهف]

مهمته - إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفى هذا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠١) : « قوله ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ ﴾ أى : أعطيناه مُلْكاً عظيماً مُمكَّناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد ؛ وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ».

إصلاح لحركة الحياة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيشون فساداً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد فى المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فلا بد أن نُعجِّل لهم بالعقوبة فى الدنيا ، لنحمى المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله فى الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح فى المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلابد أن نجازيه خيراً ونشجعه . هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هى معاييره .

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أمّا التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : " إن شاء الله " حين تعد بشئ لتكون صادقاً. ويقول سبحانه :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً (٢٤) ﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و: إن شاء الله سأفعل كذا فى العام القادم ؛ لأن الذى تَعِدُ به ، قد يأتى وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله .

فإذا قلت - مثلاً - لإنسان : سنتقابل غداً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها ونتكلم فى موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً ؟ يجوز أنى كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ،وجاءنى مال فى أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيى .

إذن : فساعة تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله" ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل.

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كى تفعله ، وقد يتغير السبب.

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذى يملك أن يبقيك لغد ، أو يُبقى السبب أو يُبقى القدرة هو الله ، إذن : فكل شئ نقوله لا بد أن نقول : "إن شاء الله" ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذى يملك عناصر الفعل.

ولكن إذا كان الذى وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد.

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم. فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتى قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب .

إذن : فعندنا جنات ، وهى لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أى مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب فى هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص فى هذا المكان مأوى طيباً خاصّاً به .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى : ليس فيها ما يسىء أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة "جنة" هى المكان الذى فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ " الجنة" على بساتين الأرض ، فقال :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ... (٢٦٦)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... (١٧)﴾ [القلم]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة فى الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول : الوجود المعروف فى الكون هو الوجود الذى تراه أو تسمعه ، وفى هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك ستسمع الذى رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن: فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التى لا تخطر على بال بشر ، فهى أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعان معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعان مرت على العين ، أو مرت على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أن يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك فى اللغة ما يعبر عن شيء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشيء . وهذه مهمة المجامع اللغوية فى العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة فى الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما فى جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك "ولا خطر على قلب بشر" تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما فى جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التى وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما فى جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... (١٥) ﴾ [محمد]

أى : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التى أنعم الله بها عليه .

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضى القسمة لآحاد ، فيكون المعنى : أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر .

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمناها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه : أخرجوا كتبكم . و"أخرجوا" أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أى : أن يخرج كل تلميذ كتابه. وقول المعلم " أمسكوا أقلامكم" يعنى : أن يمسك كل تلميذ قلمه .

إذن: فقول الحق سبحانه ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى : أن لكل واحد جنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وهنا لا بد أن نتنبه لمعطيات الألفاظ فى سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن . فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وكذلك قوله جل جلاله :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن]

إذن : فيكون للإنس جنة وللجن جنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]

(١) **الصلصال** : الطين اليابس الذى يصلُّ من جفافه أى يُصدر صوتاً . **المارج** : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً [(١)] ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الجنات التى خلقت ولم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعها على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار [(٢)] .

ونزيد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتى مطابقاً للمعنى تماماً . وفى اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإنسان مثلاً : أحضر لى كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ : « لايدخل أحد الجنة إلا أُرى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً، ولايدخل النار أحد إلا أُرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) والجنة والنار منوطان باختيار الأعمال.

(٢) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة، ومنزل فى النار . فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله. فذلك قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الوارثُون ﴾» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١). قال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

إذن : فبالتخاطب توجد المعانى أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً فى اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوى ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود فى كل لغة ؛ وبما أن المعنى فى اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة فى لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فالذى كفر ، ستر موجوداً ؛ فأعطى دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر - والعياذ بالله - تعرف لفظ الله فى لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ «الله »سبحانه وتعالى فى اللغة .

إذن : فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هى دليل على وجود الله ؛ لأنك لا تستر إلا ما هو موجود .

ولفظ الجنة فى القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾

[القلم]

وقوله جل جلاله :

﴿ جعَلْنَا لأَحَدهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ...(٣٢) ﴾ [الكهف]

إذن : فالجنة أطلقت فى القرآن على المكان الذى فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذى فى داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشىء فى الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشىء نفهم معناه فى الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها مَعَان حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هى جنة الآخرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذى تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولكن من أين نأتى بالألفاظ التى يمكن أن تعبر لنا عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتى بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيّاً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ...(١٥) ﴾ [محمد]

أى : أنها ليست هى ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك

يزداد الرقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (ڤيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقى . إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوى إليه فقط ،بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة. فتتحقق لك المتعة فى الإيواء ، وهذا موضوع آخر.

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أى : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه ، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل ؛ مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ؛ أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهى للخصوصية . فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن : فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستانى متمكن من عمله ؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحدائق التى صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى . وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال ؛ تسرُّ العين بجمالها ، وتمتع

اللمس بنعومتها ؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية . ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها ، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أى ينبع من نفس المكان[1] . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطئ ؛ وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض[2] ، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء، ونهر الخمر[3] ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

---

(١) ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ٣٥ مرة ، وورد قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ مرة واحدة فى [التوبة : ١٠٠] .

(٢) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

(٣) فهى أنهار أربعة : نهر لبن فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ونهر عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ونهر ماء غير آسن أى غير متغير الرائحة ، ونهر خمر لا تغتال العقول . قال صاحب كتاب « حادى الأرواح » (ص١٧١) : « تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التى هى أفضل أشربة الناس ، فهذا لشربهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ، وهذا للذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم » .

ولكنك فى جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت .

وكل إنسان فى الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته فى الدنيا ، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير فى الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك .

ثم ما الذى يهددك فى نعيم الدنيا ؟

الذى يهدد الناس فى الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . ولذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس[1] .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى فى وصف الخلود فقال : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لاتنتهى . وسبحانه حين تكلم

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ : « ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » فذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨ ، ٩٥) والترمذى فى سننه (٣٢٤٦) .

عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه و تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التى تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هى السماء التى نراها ؟ إننا نعلم أن الأرض التى نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور (١) . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض فى الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض فى الدنيا . ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين فى الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾ [التكوير]

فكأن هذه الأرض التى نعيش فيها ، والسماء التى تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

---

(١) وذلك من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطور : ٩] ومعنى تمور أى تدور وتتحرك وتموج فى بعضها البعض .

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : اقرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه الأرض هى أرض معاش وما فوقها من سماء هى سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض مَعَاد ؛ لأن الأرض التى نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع ، أما فى الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك ؛ ولذلك ساعة يخطر الشىء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أى مشقة . أما هنا فى هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشىء فتجده أمامك. وسبحانه يقول .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٧) ﴾ [هود]

أى : أن الجنة والنار لهما خطان، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذى يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً. وأما إن كان الذى يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .

إذن : فالذى دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود فى النار بالنسبة

لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنة إلا بعد أن ينالوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين فى الجنة ناقصاً من البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم فى النار ناقص من الآخر ؛ لأنهم لم يخلدوا فيها :

ويقول سبحانه : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى : أن مساكن المؤمنين فى الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها ، وكلمة ﴿عَدْنٍ﴾ ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة . و« عَدَنَ فى المكان » ، أى أقام فيه. إذن : فهى جنات إقامة ؛ لأن هناك فارقاً بين أن تسكن فى فندق مثلاً، أو فى مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطى الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله. فالرجل الفقير حين يبنى مسكناً يكون المسكن متواضعاً؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبنى قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذى صنع ، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذى يمسك الأمور كلها ، ويأتى تنفيذه لأى شيء وفق ما يريد .

إذن : فالخلود فى جنات عدن خلود دائم ، وهى جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها . والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لاينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان ما فى جنات عدن مما يُزهَدُ فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف .

ولكى يصل الإنسان الى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة ،

وهم المؤمنون والمؤمنات . ومن أطاع الله طمعاً فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذى أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون فى الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم .

إذن : فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً فى لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد ، وتقرأ القرآن وتصلى والناس نيام ، وتتقن العمل الذى ترتقى به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة فى الله الذى يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهى أن تكون فى معيّة الله . ويقول سبحانه[(١)] :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً[(٢)] ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : « يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

(١) انظر إلى جمال هذا الموقف ، المؤمنون قد تنعموا بنعيم الجنة فى قصورها وبنسائها وأنهارها وفاكهتها ولحوم طيرها ، وبلبنها وعسلها ومائها وخمرها ، حتى أنك ترى فى وجوههم آثار هذا النعيم ، فها هى ذى وجوههم نضرة تمتلىء بهاء وجمالاً وصفاء ، وهم على هذه الحالة ينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه خالق الخلق ، مالك الملك ، يفيض عليهم من نوره ، وبهائه ورحماته ورضوانه ، كل الوجوه ناظرة إلى الله ، عبدوه سنين الدنيا ولم يروه ، وها هم يرونه ، فسبحان المنعم الوهاب .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن أفضلهم منزلة لينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٥/ ٨٧) وأخرجه أحمد أيضاً (٢/ ٦٤) والترمذى فى سننه (٣٣٣٠) بلفظ « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » قال الترمذى : حديث غريب .

يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[(١)].

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات عدن . أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله فى قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فالذى عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله:

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة ؛ تقدمت جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم ؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذى فاز بالنعيم الأول فى الجنة أخذ فوزاً عظيماً ، والذى فاز بالمساكن الطيبة فى جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذى أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم.

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء فى باب منفصل ، والمنهج فى باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء وبين الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لى الجنة وما فيها من نعيم ، لابد أن ينبهنى إلى المنهج الذى يوصلنى إليها . وحين يعطينى صورة من المنزلة العالية التى تنتظر المؤمن فى الآخرة ، لابد أن ينبهنى - أيضاً - إلى العذاب الذى ينتظر المنافق والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذى يؤدى بى إلى النار والعياذ بالله.

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جنته ورضوانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن: فبعد أن ذكر الحق لنا الجنة وما فيها، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله - ولله المثل الأعلى - مثلما تقول لابنك: عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى، وترتقي معه فيما ينتظره من مستقبل كبير، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد في المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه. وبذلك تكون قد حبَّبته في الغاية التي سيصل إليها، ثم انتقلت لتحببه في الوسيلة التي ستوصله إلى هذه الغاية.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ والحق جلَّ وعلا يخص رسوله ﷺ بالتكريم والتعظيم، فلم يُناده باسمه. بل قال[1]: ﴿ يـٰأَيُّها النَّبِيُّ ﴾ وفي مواقع أخرى يناديه: ﴿ يـٰأَيُّها الرَّسُولُ ﴾.

ولكن النداء من الحق لباقي الأنبياء، يكون مثل قوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى:

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) ورد نداء رسول الله ﷺ بـ ﴿ يـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ١٣ مرة في القرآن، أما نداء ﴿ يـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ فقد ورد مرتين فقط.

ونادى الحق إبراهيم :

﴿ يَـٰإِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات]

ونادى الحق موسى :

﴿ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [طه]

وخاطب الحق سيدنا عيسى :

﴿ يَـا عِيـسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَـيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ...﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله ﷺ فقد ناداه بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفعاً لمقامه عند ربه.

وهنا يطلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين [1] .

ونحن نعلم أن السماء لا تتدخل لإرسال رسول إلا إذا فسد المجتمع فساداً عامّاً . ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهى تفعل الخير وتحبه ، فإنَ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر . وقد يطيع الإنسان هواه فى أمر من الأمور ، ثم يفيق ؛ فتلومه نفسه على ما فعل، هذه هى النفس اللوامة ، التى تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتفعل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقى النفس فى الشر فتصبح أمَّارة بالسوء ، وتأبى ألا تكتفى بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحبِّبه لهم . إذن : فمراحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك النفس التى تطمئن لمنهج الله وتطيعه . وهذه هى النفس المطمئنة ؛ التى يقول فيها الحق :

(١) قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : « أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ » انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٩) .

﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر]

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير ؛ لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه المؤمن ليلومه على ضعفه ، ويصحح له مساره ؛ ولأن نقط الضعف مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وُجد من يلفت النظر إلى المنكر وينهى عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل تجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ، حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليعيد للحق مكانه فى الدنيا .

إذن : فرب العزة لا يتدخل فى حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس لوامة ، سواء فى ذات النفس البشرية أو فى المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا عَمَّ الفساد فى المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح أهل الخير فيه عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتى الرسول فهو يعلم أنه ما أُرسل إلا بعد أن عَمَّ الشر فى الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أَصحاب النفوذ والسلطان ، وينتفعون بالفساد والانحراف المستشرى فى المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا

بصيحة الحق ؛ فلن يقفوا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم . ولابد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم .

و« جاهد » من « فاعل » ، مثل : « شارك » ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل : « قاتل » فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ومن اتبعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد فى المجتمع .

ولابد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجه لتحمُّل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج ؛ لأن الكفار منتفعون بالفساد ، ولكى يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق ، وأن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التى يعطيها الباطل لهم . وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم سيحاربونه . ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : اتحد معهم ، ولكنه قال : ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ، أى : اصمد أمامهم فى المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التى يأمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضى المواجهة ، لذلك قال سبحانه : ﴿اصْبِرُوا﴾ .

ولكن لنفرض أن عدوِّى صبر أيضاً فى الحرب ، إن أنا صبرت وعدوى صبر تساوت الكفتان ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: إن واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمل ، فقف صابراً فى مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لابد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، والكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر فى باطنه ويعلن الإيمان فى ظاهره . وهذا هو الذى يجب أن نحذر منه أشد الحذر ؛

لأننا لا نعرفه فنتقى شره مثل الكافر ، فقد يطعنَّا المنافق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة .

ويوضح الحق لرسوله ﷺ : إن العداوة التى سيواجهها وهو يُبشِّر بمنهج الله ستأتيه من اثنين ؛ من كافر أو منافق ، أى من مجاهر بعدم الإيمان ، أو ممن كفر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه . أما المنافق فإنه عدو صعب ؛ لأنه يغشنا فلا نأمنه ، رغم أن النفاق فى حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج ؛ لأنه لا ينافَق إلا القوى ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد .

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده ﷺ فى مكة قبل الهجرة ؛ لأن المسلمين كانوا قلة ضعافاً ، وكانوا مُعذَّبين مضطهدين . ولم يكن هناك ما يغرى أحداً بنفاقهم ؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد . والمنافق فى إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية .

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة . والمنافق فى هذه الحالة إنما يعلن إيمانه زَيْفاً ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية فى المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذى ينافقه .

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قد قدَّم فى هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقدَّم فى آيات أخرى المنافقين على الكفار [1] . والصدام - كما نعلم - قد حدث أولاً مع الكفار ، ففى أول الدعوة لم يوجد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ،

(١) وذلك من نحو قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]، وكذلك قوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[التوبة: ٦٨].

وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هي الجهاد بالحجة ؛ لأن المؤمنين في أول الأمر كانوا قلة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله ﷺ يعرض قضايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل ؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً عمَّنْ خلق السموات والأرض ؟

وحين يديرها الكافر في عقله لا يجد أن أحداً ادعى - أو يستطيع أن يدعى - أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى (١) ، لماذا ؟ لأن الإنسان في تكوينه قد يدعى أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفى أمراً هو صاحبه . فمخترع أي شيء أو صانعه لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يحب أن تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ؛ ولهذا فأنت لاتجد شيئاً ينتفع به في الكون مهما كان تافهاً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذي اخترعه أو اكتشفه أو صنعه ، والمثال هو ما درسناه في المدارس عن الذي اكتشف الكهرباء ، والذي صنع المصباح الكهربائي ، ومن الذي طوره . وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس ؛ الذي حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية.

إذن : فكل شيء نافع في الكون معروف من الذي اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟ وحين نسأل : من الذي أوجد الشمس ؟ ألا يستحق خالقها أن نعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذي اخترع مصباح الكهرباء وأوجده في حياتنا ؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذي ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن

---

(١) ومصداقاً لقوله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

نعرف من الذى أوجد الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة ؟ هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تنطفىء مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل ، ولابد أن يكون لها صانع ؛ تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذى نراه سواء فى الضوء ، أو فى خصائص هذا الضوء ، أو فى دقة الصنع ؛ فهى لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولابد أن يكون صانعها له من القوة ما يتناسب مع عظمة هذا الخلق.

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أن يكون صادقاً ؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد . وإما أنه غير صادق ، فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدعى أنه هو الذى خلقها.

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى(١) . وإلى أن يأتى من يدعى أنه خلق الشمس ، ولن يأتى ؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منازع.

ويأتى رسول ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يَأت أحد ويدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مَما يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التى يدعونها.

وتمضى الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذى خلقهم ؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) حتى أن مجادلة ومحاجة إبراهيم عليه السلام للنمروذ لم تكن فى خلق الشمس ، إنما كانت فى الإتيان بها من مكان غير الذى تأتى منه ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور]

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذه ، إذن : فلابد أن هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا : إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله ، فلا بد أن نصدقه ؛ لأنه لم يدَّعِ أحد ولا يستطيع أن يدعى أنه خلق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما نكون قد جلسنا فى مكان . وبعد أن انصرفنا ، وُجِدَت حافظة نقود ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الذين كانوا حاضرين ، فنفوا جميعاً ملكيتهم لحافظة النقود ، عدا واحداً ، حينئذ تكون حافظة النقود ملكه ؛ لأنه هو وحده الذى ادعاها ولا يوجد معارض.

وفى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجرؤ بشر أن يعارض الحق سبحانه وتعالى ؛ ويدعى أنه خلق . إذن : فالقضية محسومة تماماً لله . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع إليه فيفهمه ، فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ، يمكننا أن نتساءل : من الذى يضع المنهج للإنسان على الأرض ؟ لابد أن نُقدِّر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً كما نثق أن صانع أى آلة هو الأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها.

والمثال: أن الإنسان منا يعطى ساعة يده لمن تخصص فى إصلاح الساعات ، ويستدعى المتخصص فى إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ، ويستدعى الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التى درس تفاصيلها ، وكل متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذى وضعه مَنْ اخترع الآلة ، وبيّن فيه ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعى نجاراً ليصلح التليفزيون.

إذن : فما دام سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً فلا بد أن نتبعه ؛ لأنه هو موجد هذا الكون وموجدنا ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا .

فإن فشل جهاد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وبماذا يغلظ رسول الله ﷺ عليهم ؟ إنه يغلظ لإيضاح المصير الذى ينتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويخاف أن تضيع منه الدنيا لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فأنذره بالآخرة ، وأنذره بالعذاب الذى ينتظره ، وقُلْ له : أنت لست خالداً فى الدنيا ، وما ينتظرك فى الآخرة هول كبير .

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة ؛ ولذلك وجدنا المؤمن الذى يقول لرسول الله ﷺ فى الحرب : ادع لى يا رسول الله لأستشهد . ويقول آخر : أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى ؟ فيقول له رسول الله ﷺ : نعم ، فيلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد .

هذا هو معنى الإيمان ، ولو لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة .

إذن : وهم يُقْدمون على الشهادة بهذه الشجاعة تمتلىء أعماقهم بالإيمان وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة - بأن هناك جنة فى الآخرة - إلى الاستشهاد ، وفى المقابل نعرف أن الذى ينتظر الكفار هو النار . وهكذا نفهم قوله الحق : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى ينتظرهم علَّهُمْ يفيقون . والشاعر يقول :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقِّبْ وَعيداً ... فإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمه
وَمَا هُو إلاَّ السيفَ أو حَدُّ طَرْفه ... يقيمُ زباه أَخْدعَ كُلِّ مَائلِ
فَهذا دَوَاءُ الدَّاء منْ كُلِّ جَاهلِ ... وَذاك دَواءُ الداء منْ كُلِّ عَاقلِ [1]

(١) عزائم الوعيد : إنفاذه فيمن يستحقونه . زباه : طرف السيف . أخدع : الأخدع عرق فى العنق فكأن عنقه مائل عن اتباع الحق .

فمن آمن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلَنُ على الناس جميعاً ، وأنت حر فى أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإنْ أردتَ الحياة فى كنف الأمة الإسلامية فأهلاً بك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لأن الحق قال :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (٢٩)﴾ [الكهف]

واعلم أنه يشترط فى كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه الدين الحق.

والذى لا يؤمن ، يعيش فى كنف الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة فى اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لابد أن تسير وفقاً لمنهج الله، وما دام الإيمان هو الذى يسيطر على حركة الحياة ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ؛ فذلك لا يؤثر فى حركة المجتمع المؤمن ؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمنهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى.

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذى جعله خليفة فى الأرض ، وهو يغار على خلقه ، تماماً كما تأتى لشىء جميل صنعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا الشىء أمام صانعه . إن قلب الصانع - فى هذه الحالة - يمتلىء بالغضب، ويسرع بعقابك.

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى إنساناً يفسد صنعته فى الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنعته ؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكى يكون الحساب عَدْلاً ، لابد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا إتمام لرسالة أمة محمد ﷺ ، ثم يختار الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان والإقناع . فإن لم يَأتِ البرهان بنتيجة ، وحاول أحدهم أن يقاوم

الدعوة بالسلاح فَلْيُردع بالسلاح .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ولا تأخذك بهم رأفة ؛ لأن الرأفة قد تغرى بالذنب ؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يغريه ذلك ويغرى غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ، وأنت حين تأتى بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أى إنسان أن يفكر فى القتل ، أو أن يقتل .

إذن : فنحن بالعقوبة نحمى المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك : هل مَنْ يسرق تُقطع يده ؟ نقول لهم : نعم ؛ لأننى لو قطعت يد فرد لمنعت جريمة السرقة فى المجتمع ، فليس الهدف أن أقطع يداً . ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتى بالعقوبة وتتأكد من الجريمة ؛ إياك أن تأخذك الرحمة فى تنفيذ العقاب . فلو أخذتك الرحمة فى هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى[١] :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② ﴾ [النور]

---

(١) الجلد هو حكم من زنى وهو بكر لم يتزوج ، أما من تزوج ووطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ثم زنى فحكمه الرجم بالحجارة ، وفى هذا قال عمر بن الخطاب : إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف . أخرجه مالك فى الموطأ (٢/٨٢٣) ومسلم (١٦٩١). والزنا الموجب للحد هو : تغييب حشفة الرجل أى رأس ذكره فى فرج محرم مشتهى بالطبع ، من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال . ويشترط فيه رؤية أربعة شهود عدول لهذه الهيئة من الجماع المحرم . انظر « فقه السنة » للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٠٠) .

ولكن الحوار حول العقوبات[1] فى الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمى نفسه بتوصيف الأفعال التى تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

إذن : فكل دولة وكل مجتمع لابد أن تكون فيه عقوبات، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش فى أمان . فإذا كان حاكم أى دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يُشرِّع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدى من أن تمتد إلى مال الغير .

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ؛ لأن الذى يتعب الناس فى الدنيا ، هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعتْ العقوبة فور حدوث الجريمة ؛ لما طلب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين يتظاهرون بالإيمان ؟

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى : الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والردة ، و البغى . وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى : الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود) .

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم [١] ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله ﷺ ، فينكرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ : اغلظ عليهم إذا ارتكبوا إثماً ، وقد وجدنا فى سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً فى كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ... (٥٦) ﴾ [التوبة]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ... (٧٤) ﴾ [التوبة]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ... (٦٢) ﴾ [التوبة]

وفى سورة المجادلة يقول سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) ﴾

فكأنما كلما حلفوا صدَّقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، ففضحهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله ﷺ أن يُغلظ عليهم فى العقوبة . ولكن هل غلظة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة ؟ نقول : لا ؛ لأن الغلظة عليهم فى الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله . ولكن هذا لا يعفى من عقاب الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ والمصير هو المرجع الأخير لأى شىء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذى عاقب قد يعفو ، وقد يخرج الإنسان قبل انتهاء مدة العقوبة ؛ كأن يكون هناك إفراج صحى ، أو بقضاء ثلاثة أرباع

(١) قال الحسن البصرى فى معنى هذه الآية بالنسبة للمنافقين : « جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان ، وكانوا أكثر من يصيب الحدود » . وقد رد أبو بكر بن العربى على هذا « بأن العاصى ليس منافقاً ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين » انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٩) .

المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفى هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الحلف والكذب الذى كان يفعله المنافقون ؛ فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وفى هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حلقات الحلف بالكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعىً .

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها فى غزوة تبوك التى حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد فى هذه الفترة يفضل الجلوس فى الأخياف [1] ، أى الحدائق

(١) الأخياف فى اللغة : أماكن وسط بين مجرى السيل فى الجبل ، وبين صخوره ، تنبت فيها الحشائش . انظر لسان العرب (مادة : خ ى ف) .

الصغيرة ، ويجلسون تحت النخيل والشجر فى جو رطب ولا يرغبون فى القيام من الظل.

وعندما دعا رسول الله للجهاد فى سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ؛ فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدْقاً فنحن شرٌّ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صَدق رسول الله ﷺ وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصارى ؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله ﷺ ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله ﷺ بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال : اللهم إنى أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد ﷺ تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . فقال رسول الله ﷺ « آمين »[1] . ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحى بقول الحق جل جلاله : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾.

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب ؛ فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس.

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله ﷺ ؛ فقال سبحانه : ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١ - ٣٧٣) .

أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط فى حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد- عليه الصلاة والسلام - إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر ؛ وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبى ﷺ واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هى مجموعة من الصخور العالية التى تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون (١) أن يدفعوا رسول الله ﷺ من أعلى الصخور ، فيسقط فى الوادى ، ولكن حذيفة بن اليمان الذى كان يسير خلف ناقة رسول الله ﷺ تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبىّ ملكاً عليهم ، ولكن مجىء رسول الله ﷺ لم يُمكنهم من ذلك.

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أبلغ رسول الله ﷺ ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا.

---

(١) كانوا اثنى عشر رجلاً ماتوا محاربين لله ورسوله . عن حذيفة بن اليمان قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوقه . حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكباً ، قد اعترضوه فيها ، فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ فى العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم ، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة . قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ، ٢٦١) وفيه عنعنة ابن إسحاق .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ و ﴿ نَقَمُوا ﴾ تعنى : كرهوا ، والغنى - كما نعلم - أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف فى حكمهم ؛ لأن الغنى والأمن الذى أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية . بل كان من الطبيعى أن يولد حباً وتفانياً فى الإيمان.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتى رسول الله ﷺ ، كان الذين كرهوا مجىء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا فى الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله (١) ؛ بل إن الجلاس بن سويد لما قُتل له غلام دفع له رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف درهم ديّة . إذن: فقد جاء على يد الرسول ﷺ الغنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا. ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم فى الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجىء رسوله ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله ﷺ ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا فى الإيمان به ونصرته.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال « الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ لأن الله لا يُثَنَّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله .

ولذلك عندما سمع رسول الله ﷺ خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله ﷺ : بئس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ تثنية بين الله ورسوله.

---

(١) قال الكلبى : « كانوا قبل قدوم النبى ﷺ فى ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليهم النبى ﷺ استغنوا بالغنائم » ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٢) .

وهنا توقف الخطيب وقال: فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : قل ومَنْ يعْص الله ورسوله فقد هلك [1] ، ولا تقل: عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ « أغناهم الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله ﷺ فضل ؛ فهو من فضل الله .

وعلى أية حال فالله لا يُثَنَّى معه أحد ؛ ولذلك نجد فى القرآن الكريم:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد فى الرضا ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثَنَّى معه أحد.

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما فى قلوبهم ؛ لم تتخلّ رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشرى فى الذنب ، ويزداد فى الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أى إنسان يخطىء أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشرى فى الإثم ، ثم إن الذى يعانى من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً ؛ فالذى يعانى من سرقاته هو المجتمع . وإذا وُجد قاتل محترف فالذى يعانى من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع.

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٥٦ ، ٣٧٩) وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

إذن: ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع ؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء فى إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن للرسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله . لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عنى. وتاب الجلاس وحسُن إسلامه[1] .

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه:

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ . إذن : فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا فى الآخرة فقط ، ولكن فى الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة فى الدرك الأسفل من النار.

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب فى الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض فى الدنيا ؛ وأرض فى الآخرة هى أرض المعاد[2] ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن: فكلمة ﴿ الأَرْضِ ﴾ تعطينا صورتين فى الدنيا وفى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ يوضح لنا أن الولىّ هو القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد

(١) انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (ترجمة ١١٧٢) .

(٢) قال أبو يحيي الأنصارى فى فتح الرحمن (ص١٧٠) : « لما كانوا لا يعتقدون الوحدانية ، ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصوراً على الدنيا ، فعبر عنها فى الأرض أو : أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة » .

إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك ، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن : فلا الوليّ القريب منك ، ولا الغريب الذى قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق .

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين ؛ فيقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ وَمِنْهُم ﴾ أى : من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم فى هذه السورة الكريمة ، فقال : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، واختلفت روايات المفسرين والرواة فى مدلول قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ . فقال بعضهم : إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه مُعتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث : إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبى بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة [1] ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

ولم يقل الحق : « فلما آتيناه من فضلنا بخل به » بحيث ينطبق على حالة واحدة ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [التوبة]

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٤) هذه الروايات ، ورجح أنها نزلت فى ثلاثة من المنافقين : نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير . أما كونه ثعلبة بن حاطب فقد رفضه القرطبى ؛ لأنه شهد بدراً ، أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقد فرّق بين الذى شهد بدراً وغيره . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (ترجمة ٩٢٤) .

إذن : فهناك جمع . والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة فى أن الآية الكريمة نزلت فى أفراد متعددين ، وسبحانه يقول :﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتى الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد فى الصف الأول للمصلين ، فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه .

وقصة الآية [1] : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : إنى فقير مملق - أى شديد الفقر - فادع لى الله يا رسول الله أن يوسع علىّ دنياى . وبفطنة النبوة قال ﷺ : إن قليلاً تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال : ادع الله لى أن يوسّع علىّ . فدعا له فوسّع الله عليه .

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله فى طلب منافق منه ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعْلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأى أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبى ﷺ .

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبى بلتعة ؛ استجاب الله لدعاء رسوله ؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت

(١) سبق تخريج هذه القصة عند تفسير الآية ٥٣ من سورة التوبة .

حتى ضاقت بها شعَاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا فى يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة . وفى ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسفِّههم فى أنهم نافقوا فى الإسلام.

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنه فى الشعاب شغله ماله. فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة [1] ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه، فلما قال له: هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهى أخت الجزية [2]؟ وذكَّره عامل الصدقة : أنت الذى عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفى بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة: اذهب حتى أرى رأيى.

إذن: هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه فى قوله: « قليل تؤدى شكره ، خير من

---

(١)وذلك حينما نزلت آية: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] . فثعلبة هنا كان قد عاهد الله لئن رزقه وأعطاه ليتصدقن ، ولم تكن محددة فلما نزلت آية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ..﴾ [التوبة:١٠٣] وفرضت الزكاة رفض إنفاذ ما عاهد عليه الله . وهذا نظير ما حكاه رب العزة عن بنى إسرائيل: ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، وقد فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها ، وهى تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً. ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب. انظر: فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧).

كثير لا تطيقه » ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة. قال ﷺ: ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الزكاة . فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله فى غنى عن مالك يا ثعلبة.

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبى بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفى أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبى بكر . وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك فى عهد عثمان.

﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وكلمة ﴿لَئِنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال : أقسم بالله إن آتانى الله مالاً لأفعلنَّ كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام فى جواب القَسَم ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ و«الصدقة» هى الصدقة الواجبة أى الزكاة ، و﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: نزيد فى التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و«عطاء الأسباب» يتمثل فى أن يَجدَّ الإنسان فى أى عمل من الأعمال ؛ فيعطيه الله ثمرة عمله ؛ مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ

الأسباب وأتقنها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون فى سعة ؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذى استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضنّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصى ، والمطر ينزل على الأرض . وكذلك كل شىء فى الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب .

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل فى عطاء الأسباب ، كمن يسير فى طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتى عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول . ويبارك له الحق سبحانه فى بيع محصوله ، ويبارك له فى رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عَامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ دليل على أن الرزق الذى جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها . بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذى حدث فى أغنام ثعلبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتى بأكثر من وليد ، والعشب الذى ترعاه يُدرّ كمية كبيرة من اللبن .

﴿ **فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ** ﴾ ما هو البخل ؟ هناك فى اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بُخْل ، وشُح ، وكزازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شىء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطى إلا من سأله ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطى كل

من سأله ، بل يعطى من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول : ولدى مريض ، أو احترق بيتى ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجىء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطى بغير سؤال.

هى إذن : ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطى من يراه هكذا ؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هى يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذى ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذى أعطى مالاً رجع يبكى . فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه ؟ فقال : يبكينى أننى تركته ليسألنى ، أى : أنه يبكى لأنه لم يملك فِطْنَةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطى المحتاجين بغير سؤال .

إذن: فواحد يعطى عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطى من غير مسألة ، بل يعطى عن فضل عنده ، أى : يملك الكثير ويعطى منه . وثالث : يعطى نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطى أكثر ما عنده حسب ما ينقدح فى ذهنه من حاجة الإنسان المعطى .

هى إذن ثلاث مراحل : رجل يعطى من غير سؤال ، ورجل يعطى بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطى بمجرد السؤال.

فمن هو البخيل ؟

أفظع درجة للبخل ؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبَّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ واحد من هؤلاء لم

يبخل فقط ، بل انصرف عن الذى يسأله ، مثل الذى انصرف عن العامل الذى جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه - مثلاً - أن يُجْلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة ؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه .

ويأتى الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أى : جعل العاقبة لهذا التصرف ؛ أن جعل فى قلوبهم النفاق ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أى : إلى يوم القيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذى عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا الله ما وعدوه فقال سبحانه : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً فى أنه قال : أهى أخت الجزية ؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هى ركن من أركان الإسلام .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذى لم يكن معروفاً قبل ذلك ،

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور: الصورة الأولى ؛ أن يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا «خبر». والصورة الثانية : أن لا يخبر المتكلم مخاطبه بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقول الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان فى استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطى للخبر قوة ، فجعل الكلام من المسْتَفهَم منه ، وكأنه عرض الأمر مَعْرض السؤال فى معرض النفى ؛ ثقة فى أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو: نعم أحسنت إلىّ .

إذن: فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفى ، أو خبراً معه النفى ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقوى أنواع الإخبار : الخبر الموجود معه النفى ، والموجود مع النفى الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضى جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان فى نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان : أنا راضى ذمتك ، وهذا القول يعنى أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدير الكلام فى عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما هو السر ؟ وما هى النجوى ؟ السر : هو ما تكتمه فى نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسرُّ به للغير ؛ لأن هذه هى النجوى ، وأصل النجوى البُعْد.

ويقال : فلان بنجوة عن كذا ، أى: بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع فى الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعيد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه فى الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر [1] ، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهى كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً.

إذن ، فالسر : هو ما احتفظت به فى نفسك ، والنجوى : هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك.

والذين منعوا الصدقة ، لابد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا فى هذا الأمر - منع الصدقة - بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا فى إسلامهم مظهراً يفوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً فى الصفوف الأولى للصلاة كى يستروا نفاقهم.

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا فى نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الإسرار فى النفس حين يُخبر به الله ؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله ﷺ بما دار فى هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضى . وذلك فى الأمور التى لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها فى كتاب لأنه أمّى ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه.

---

(١) وقد ورد النهى عن مناجاة اثنين دون الثالث ، فعن عبد الله بن مسعود قال قال ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) وأحمد فى مسنده (١/ ٤٣١) والترمذى فى سننه (٢٨٢٥) . وقال : حديث صحيح .

إذن : من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذى يعلم خُبْأة[1] السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ فعلم ﷺ الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتْكُ حجاب الزمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان ﷺ يخبرهم عن شىء فى نفوسهم ، فقد أوحى له الحق:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... (٨) ﴾ [المجادلة]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله فى نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن الذى هتك الحجاب لرسول الله ﷺ ؟

إن الذى هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى ؛ فلا توجد حجب غائبة عن الله ؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر ؛ حجاب ماض ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أى: أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد.

إذن: ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ تعنى أنه يعلم حتى ما حاولْتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه:

﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... (١٦) ﴾ [لقمان]

---

(١) الخبأة والخبء : كل شىء غائب مستور . ويقول تعالى فى سورة النمل: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] . وقال ابن أسلم : هو ما جعل فيهما من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض . (انظر : ابن كثير ٣/ ٣٦١) .

إذن: فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شىء.

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال جل جلاله:

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

واللمز: معناه العيب، ولكن بطريق خفى، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك. إذن: فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون فى المطوِّعين لجمع الزكاة من المؤمنين، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول، ومن يعيب بالفعل، ومن يعيب بالإشارة، والمطوِّعون هم الذين يتطوعون بشىء زائد من جنس ما فرض الله.

فالله فرض مثلاً خمس صلوات، وهناك من يصلى خمس صلوات أخرى تطوعاً، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً، وفرض الحق صيام شهر رمضان، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس. وهذا ما نسميه دخول المؤمن فى مقام الإحسان؛ بأن تتقرب [1] إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك، من جنس ما فرضه الله.

(١) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: « إن الله قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٦).

وأنت إن أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن فرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : « أفلح إن صدق »[1] .

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرضَ يكون لها ملحظان :
الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق .
والملحظ الثانى : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها .
ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

إذن : فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالمنهج لا يلزمنى بأن أنام قليلاً من الليل وأقضى بقيته فى الصلاة ، ولم يلزمنى أحد بالاستغفار فى الأسحار[3] . ولم يقل الله سبحانه فى هذه الآية إن فى المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطى بأكثر مما فُرض . وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنه اختلال موازين المنافقين فى

---

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . . . حتى ذكر صيام رمضان والزكاة . قال طلحة : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم (١١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الأسحار : جمع سحر . وهو آخر الليل قبيل الصبح .

الحكم على الأشياء . لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذى يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إنه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله فى المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأَفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك فى مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله.

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار [1] : أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له فى تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال: يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقى لأهلى أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت ». وحينما مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف فى تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر» بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أى : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً. وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا فى ماله.

---

(١) آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٢٥) .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا: ما تصدق عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدى ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتى أعمل ، وأخذت أجرى صاعين من التمر ، احتفظت لأهلى بصَاع وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غنى عن صاعك يا أبا عقيل.

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدىّ قالوا : يرائى بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غنى عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ؛ قلَّ أو كثُر [(١)] .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيىء الذى تمثل فى مقابلة السلوك الإيمانى بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً. والسخرية هى الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوى للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبى ذر قال قال لى النبى ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٧٣) .

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذى يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذى سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذى يخطىء فى حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذى يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذى ينتقم ويرد على من أخطأ فى حقه ، إنما يأخذ على قدر قُوَّته ، وأما الذى يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذى وقع الاعتداء عليه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته.

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذى أساء إليك فى حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذى اعتدى عليه وأسىء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتى إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل : من آداب دينك - الإسلام - أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك. ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ... (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وحين يقول: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... (١٤٢) ﴾ [النساء]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر.

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتى لك بزهرة ، فيسقط فى الحفرة وتتكسر عظامه.

إذن: فأنت قد كدْتَ له كَيْداً خَفيّاً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضَعف ؛ لأن الشَجاع القوى هو الذى يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذى يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى النساء:

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوى لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتى بك عندما أريد ، لايوجد مكان تهرب فيه منى ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضى عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر.

ولذلك قال الشاعر:

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة قتلتْ كذلكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاء

أما القوى فإنه يقدر ويعفو؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء.

والأصل فى المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التى تراها من أى فرع نبتت، فيلتبس عليك الأمر، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة. وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً؛ لأن مكرك مفضوح عند الله، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك.

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ فى الأمور العلنية فى المعارك، ونصره أيضاً فى كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له. وعلى سبيل المثال، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليقتلوه فى ليلة الهجرة. أوحى له ربه أن: اخرج ولا تَخْشَ مكرهم، فخرج ﷺ ليجدهم نياماً وهم واقفون، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر. ويخرج ﷺ من وسطهم. ويأخذ التراب، ويلقيه عليهم وهو يقول: «شاهت الوجوه»[1].

وعندما يبتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى، ويتعجبون كيف أفلت منهم. وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله ﷺ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفى.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم، والساخر من البشر لا يتجاوز

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/ ٣٦٨)، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه، وأحمد فى مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى.

فى فعله أكثر من العيب فى غيره. ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز فى فعل الله عن فعل البشر، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم.

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً، وهناك عذاب عظيم، وعذاب مهين، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ. وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم؛ فيُهَانُ فى كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً.

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً، وهناك عذاب عظيم فى الإيلام وعظيم فى الإهانة. والعذاب العظيم فى الإيلام؛ أى مبالغ فيه من ناحية الألم. والعذاب العظيم فى الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة. والعذاب العظيم فى الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أى: يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين. ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد]

أى: بمجرد نظر رسول الله إليهم، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة «منافق» وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ...﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد]

وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر [١] ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى نوره على الجميع، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم .

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة [٢] . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه المُلْك . وكان لعبد الله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال في غزوة من الغزوات [٣] . ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ...﴿٨﴾﴾ [المنافقون]

وكان ابن أبيّ يعنى بـ « الأعز » المنافقين في المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدَّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾﴾ [المنافقون]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث . أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩٦) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

(٣) هي غزوة بني المصطلق ، وقد كانت في شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/ ٣٣٤) .

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذى سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة .

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أن رسول الله ﷺ سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبىّ ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ لأنى أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً .[1]

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك[2] قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبى ، أى : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبىّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢) .

(٢) وذلك عندما توفى عبد الله بن أبىّ ،وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه ، فاعترض عمر ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكفنه فيه وصلى عليه . انظر الحديث الآتى بعد فى البخارى (٤٦٧٠) ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

ووقف العلماء فى هذه الآية عند شىء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله ﷺ الذى أرسلَ رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مرة فَلأزيد على السبعين قليلاً [١] وبذلك غلّب الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبى الذى أسلم وحَسُنَ إسلامه.

وكانت السبعة دائماً هى نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتى عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل فى العدد هو مكررات الواحد ، أى : أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هى : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هى : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع.

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف. ونجد قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... (٢٢) ﴾ [الكهف]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر [٢].

---

(١) قال ﷺ : «إنما خيَّرنى الله تعالى فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وسأزيد على سبعين» أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر.

(٢) انظر تفسير القرطبى (٥/ ٤١١٣) فى تفصيل هذه المسألة ، بين من قال : إن نهاية العدد عند العرب هو العدد ٧ . ومنهم من قال : إن هذا تحكم لا دليل عليه . ومنهم من سمى الواو بين السبعة والثمانية : واو الثمانية .

وحين سمع رسول الله ﷺ « السبعين » ؛ قال : نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ ؛ الذى طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا : كيف يغيب عن رسول الله ﷺ وهو الذى يقول عن نفسه : « أنا أفصح العرب بيد أنِّى من قريش»[1] ، أن عدد السبعين يُقصد به الكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول :

* أسيئى بِنَا أَوْ أَحْسِنى لاَ مَلُومةَ *

أى : افعلى ما تشائين.

فكأن الحق سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ شاء أن يأتى بمضاعفات العدد النهائية وهى السبعون ليحسم الأمر.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... ⑥ ﴾ [المنافقون]

أى : مهما استغفرت بأى عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم.

ونقول: إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول: أن يغفر الله. والشق الثانى: هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين. وفى استغفار رسول الله ﷺ إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد مجاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه ﷺ يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. ولكن ألا توجد ذاتية للأب؟

---

(١) قال السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » : « معناه صحيح . ولكن لا أصل له ، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأورده أصحاب الغريب ، ولا يعرف له إسناد » . انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) والأسرار المرفوعة (ص ٧٠ ، ٧١) .

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبيّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

وجزاء العمل يُعطى للبعض في الدنيا ، ويُعْطى للبعض فى الآخرة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

[الشورى]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبا لهب يُخفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد]

ولماذا يُخفَّف العذاب عن أبى لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وقد سُرّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التى بشّرته بميلاد الرسول ؛ ومن هنا يُخفَّف العذابُ عن أبى لهب يوم الاثنين جزاء عمله .

كما أن عبد الله بن أبيّ كان له موقف يحسب له فى واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام ؛ وانتهت بصلح الحديبية وهى أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله ﷺ وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما فى يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهدة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وتفرغ نبينا الكريم للدعوة فى الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة .

نعود إلى قصة عبد الله بن أبيّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن في نفسه شيئاً من رسول الله ﷺ ؛ لأن مجيء الرسول ﷺ منع تتويج عبد الله بن أبيّ ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ؛ فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة فى نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبد الله بن أبيّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبيّ وقال : إن لى فى رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله ﷺ . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر فى غزوة بدر، حينما أُسر العباس عم رسول الله ﷺ . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت فى المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبد الله بن أبيّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم يَنْسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك ممحصات للذنب، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء]

فالذى يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبد الله بن أبيّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن

يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار.

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وحين ينفى الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق: الله لم يَهْدنى فماذا أفعل ؟ ويُحمِّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك ؟ لأنك فسقت.

إذن: فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ؛ ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمنهج الله الذى يُبلَّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه . ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمن دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل فى قوله الحق:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن: فكل مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفى المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف]

و كذلك قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة]

وأيضاً قوله الكريم : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون ؛ لأن الله لم يَهْدهم ؛ لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم همَ الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق.

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

فماذا صنعوا فى هدايته لهم : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ، أى : أن الحق سبحانه بيَّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والفرح هو السرور من فعل تبتهج النفس به . والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله ﷺ فى المدينة وذهب إلى الجهاد . بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التى قالوها ، وقد تركهم رسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

ومن لا يريد أن يجاهد فى سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك . وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة . ويبحث عن مغارة أو حجر يختفى خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك ؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفى نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة.

ويُبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء فى أى مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله ﷺ قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة فى البقاء فى أماكنهم .

ويقول تعالى : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿ خِلافَ ﴾ نعرف أن مصدرها خالف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قاتل قتالاً ومقاتلة . وهى إما أن تكون مخالفة فى الرأى ، كأن تقول : فلان فى خلاف مع فلان ، أى : أن لكل منهما رأياً . وإما أن تكون فى السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشى .

والخلاف من ناحية الرأى هو عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القالب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله ﷺ والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى فى نفوسهم وارتاحوا لها . وبذلك خالفوا شرط الإيمان ؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ (٩١)﴾ [التوبة]

وقوله: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ (٩٢)﴾ [التوبة]

أى : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال [(١)] . وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

إذن : فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم حُرِموا ثواب الجهاد فى سبيل الله [(٢)] . أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون .

وقوله سبحانه : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿خِلافَ﴾ تستعمل أيضاً بمعنى «بعد» ،أى بعد رسول الله ،فما أن ذهب رسول الله ﷺ للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا . وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله ﷺ لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . ويبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول : ﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يُثبِّطوا المؤمنين ويُكرِّهوهم فى القتال فى سبيل الله ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزى ، بل أخذوا فى تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة «غزوة تبوك» فى أيام الحر . وكانت المدينة تمتلىء بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى

(١) سيأتى سبب نزول هذه الآيات عند تفسير الآيتين ٩١ ، ٩٢ من سورة التوبة .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٠٠) وابن ماجه فى سننه (٢٧٦٥) .

الحدود مع الروم طويلة . إذن : فهى غزوة كلها مشقة (١) .

وقال المنافقون للمؤمنين ﴿ لا تَنفِرُوا ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشيء ما . ويقال : فلان نافر من فلان ، أى : يكره وجوده معه فى مكان واحد . ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أى : يكرهان وجودهما فى مكان واحد . والذى يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذى يجلس فيه ذاهباً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا فى الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتى بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعانى من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليُؤمِّن مستقبله . ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء ؟ يقول : لأؤمن مستقبلى . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة

(١) وقد سميت أيضاً بغزوة العسرة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩٦) « قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم» . ولكن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ابتداء .

فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم فى النار ؟

ولكن هل قالوا : ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فى خواطرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذى أعلم رسول الله ﷺ ما قالوه ؟ نقول : قد يكون ذلك هو ما دار فى خواطرهم . وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى نفوسهم . وشاء أن يفضح ما فى سرائرهم ، لعل هذا يُدْخل الخوف فى قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شيء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... (٢٨)﴾ [التوبة]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتى من كل مكان إلى مكة فى موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت فى ثياب عصيتم الله فيها ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم ! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ، ومن لا يملك المال يطوف عارياً .

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفى معيشتهم طوال العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ . فالخاطر الذى يأتى فى النفس البشرية ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتى على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذى خلقهم عليم بما يدور فى خواطرهم . وإن لم يجر على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٢٨)﴾ [التوبة]

إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور فى خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه .

كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخلفية تكون قد فقهته . وأنت إذا ذهبت للجهاد فى الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .

إذن : فعلمك بشيء وهو الحر الذى ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا ينسيك ما غاب عنك ، وهو أن نكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه علم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المنطق القرآنى ، رد الإمام على كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الخسف » .

ثم يقول بعد ذلك : « إن قلت لكم : اغزوهم فى الشتاء ، قلتم : هذا أوان قر وصر . . أى برد شديد . وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : أنظرنا - أى أمهلنا - حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم فى البرد والحر تفرون ، فأنتم والله فى النار . يا أشباه الرجال ولا رجال »[1]

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف » ثم قال : « فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير فى البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القر ، كل ذا فراراً من الحر والقر . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال » انظر خطبته كاملة فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيق : عادل أبو المعاطى . نشر دار الروضة - القاهرة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا فى الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

والضحك هو انفعال[1] غريزى فطرى ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزى أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان ، وكلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أى أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسى وبكاء أمريكى ، أو ضحك روسى وضحك إنجليزى ، أو ضحك شرقى وضحك غربى . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعى موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يحيى ، وهو سبحانه وحده الذى يميت . فهو سبحانه وحده الذى يضحك ، وهو سبحانه وحده الذى يبكى . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم]

---

(١) هناك فرق بين الانفعال والافتعال ؛ لأن الانفعال فطرة والافتعال صنعة ، فالانفعال الذى يظهر على وجه الإنسان سواء كان سروراً أو حزناً أو اهتماماً بشىء هو أمر غريزى فطره الله عليه استجابة لمؤثرات خارجية ، أما الافتعال فهو اصطناع الانفعال كأن يتكلف السرور فى مقام لا يقتضى هذا .

ولذلك فالضحك والبكاء يأتيان بلا مقدمات ، لا أقول لنفسى : سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول : سأبكى الآن فأبكى ؛ لأن هذا انفعال غريزى لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكننا أحياناً نلجأ إلى التضاحك أو إلى التباكى وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه الافتعال . فحين يروى لك إنسان نكتة سخيفة ، والمفروض أنه قالها لتضحك ، ولكنها لا تضحكك ، وفى نفس الوقت أنت تريد أن تجامله فتفتعل الضحك ، أى تضحك بافتعال . وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً مثل بكاء النادبة التى تجلس وسط أهل الميت وتبكى . وقد تضع بعض نقط الجلسرين فى عينيها لتفتعل الدموع ، وهذا كله افتعال . أما الضحك والبكاء الحقيقى ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ جاء بعد قوله : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى : أنهم فرحوا عندما بَقَوْا هم فى المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد . جلسوا فى حدائق المدينة وهم فرحون فى راحة وسرور يضحكون ؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد فازوا بعدم اشتراكهم فى الجهاد . ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتى بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعياذ بالله .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ ولم يقل : سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً ، لماذا ؟

نقول: عندما يُسند الفعل إلى المخلوق الذى يعيش فى عالم الأغيار ، والمختار فى عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يجوز ألا يحدث . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ أى: أمر بالضحك، ثم يجىء فى البكاء ويقول: ﴿ وَلْيَبْكُوا ﴾ أى: ابكوا. والأمر بالضحك والبكاء هو أمر اختيارى من الله سبحانه وتعالى ، تجوز فيه الطاعة وتجوز فيه المعصية ؟

إذا كان كذلك ، فهل سيطيع المنافقون أمراً اختيارياً لله ؟ ونقول: إن ذلك أمر غير اختيارى ؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذى يضع فى النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء للأحداث . وكما بيَّنا فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء.

والحق حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ﴾ معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لابد أن يحدث . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فلا بد أن يبكوا ؛ لأن انفعال البكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون : إن الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، وكذلك الذى يبكى أخيراً يبكى كثيراً .

إذن : فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتى للإنسان حادث يسرّه ، ثم تأتيه ساعة بؤس تمحو هذا السرور كله ، والعكس صحيح . وإذا كان هؤلاء المنافقون قد ضحكوا قليلاً فى الدنيا . فعمر كل منهم فى الدنيا قليل ؛ لأنه حتى وإن عاش فى الدنيا ضاحكاً طوال عمره فكم سيضحك ؟ أربعين سنة ؟ خمسين سنة ؟

إن كلاً منا له فى الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسبت الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك فى الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتى الآخرة بالخلود الطويل الذى لا ينتهى ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً.

ولذلك فلا بد لكل إنسان أن يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها ؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكاب المعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية . فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد

يضبط ، وقد يحاكم وتقطع يده ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم بالسرقة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص خطط لسرقة وفى باله أنه سيضبط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويفلت.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1]

لأنه ساعة يزنى لو تخيل أو تأكد أنه سيُلْقى فى النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الزنا أبداً . وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس فى فمه . إذا تخيل النار وهو يُعذَّب فيها . ولكن الغفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية ؛ لأن الإيمان يقتضى أن تستحضر العقوبة ساعة تُقدِم على المعصية ، وأن تعلم يقيناً أن كل ما تفعله ستُحاسب عليه فى الآخرة ، وسيكون هناك جزاء.

فإذا ضحكت من مطلوبات الإيمان فلابد أن تبكى فى الآخرة . فإن فرحت - مثلاً - بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت فى الدنيا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الغمُّ فى الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعذَّب به فى الآخرة . والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التى يتعرض لها المؤمنون فى الدنيا ، وأولى هذه الصور هى ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : خذنا على جناحك فى الآخرة . ثم بعد ذلك يأتى الغمز واللمز ، ثم إذا ذهب المنافق إلى أهله

(١)متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ومسلم فى صحيحه (٥٧) .

أخذ يسخر من الطائعين ويقول : لقد فعلت كذا وكذا لإنسان متدين . وسخرت منه ولم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكى القصة فرحاً بما عمل . وينسى أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم : جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيِّنة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروى لهم ما حدث ، وهو فخور مسرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك بل اتهموا المؤمنين بالضلال ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) ﴾ [المطففين]

أى : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه فى الدنيا . وهى فانية وعمرها قليل . ثم يأتى سبحانه وتعالى بالمقابل فى الآخرة ؛ فيقول : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فكما ضحك الكفار من المؤمنين فى الدنيا ؛ سيضحك المؤمنون من الكفار فى الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك فى الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهم يُعذَّبون فى النار ، أى : أن الله جزاهم بمثل عملهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته - سبحانه - التى لا حدود لها.

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : « سيضحكون » ككلام خبرى ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مُؤكداً . وقوله هنا فى المنافقين ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ . يعنى : أن الضحك لابد أن يحدث ؛ لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى.

فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يعطينا العلة أو السبب فى أن ضحكهم سيكون قليلاً ، وبكاءهم سيكون كثيراً ؛ لأن هذا جزاء ما فعلوه فى الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد . وسُرّوا بالراحة فى المدينة، فلابد أن يُلاَقوا فى الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سَيُثاب المؤمنون على ذهابهم للجهاد فى الحرِّ.

إذن : فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وكلمة ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ هنا لها ملحظ لا بد أن نُبيِّنه ، فقد كان من الممكن أن يُقال "جزاء ما كانوا يعملون" ، أو "جزاء ما كانوا يفعلون" ، فلماذا جاء الحق بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ، وما الفرق بينها وبين "ما يفعلون" و "ما يعملون" ؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجالَ عمل ؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، والقدم تمشى ، والأنف يشُمُّ ، والأنامل تلمس . إذن : فكل عضو له مهمة. فإن كانت المهمة هى النطق باللسان نسميها القول . وإن كانت مهمة من مهام باقى الجوارح عدا اللسان نسميها الفعل . فاللسان وحده أخذ القول ، وكل الجوارح أخذت الفعل . والقول والفعل معاً نسميهما عملاً.

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : "يفعلون" يكون ذلك مقابل يقولون ؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضح ذلك الآية الكريمة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ولكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شئ لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب افتعال الكسب ؛ لأن الكسب عمل طبيعى ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول :

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...(٢٨٦)﴾ [البقرة]

لأن الاكتساب بالحرام فيه افتعال يتعب النفس ، ولا يجعلها منسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته فى البيت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً. لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه ؛ فيقفل النوافذ ويُطفىء الأنوار . وإنْ دقَّ جرس الباب يصاب بالذعر والهلع ؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل.

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإجرام ، فلا يهيجها الحرام . وفى هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جزاؤها عند الله أليماً وعذابها عظيماً.

ويقول الحق سبحانه فى هذه الآية : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال : " جزاء بما كانوا يكتسبون " لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها افتعال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا فى الكفر، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أى افتعال .

واقرأ قول الحق : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ...(٣٨)﴾ [المائدة]

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم بها السارق خفية ويُبيِّت لها ويفتعل ؛ ولذلك كان من المنطقى أن يقال "اكتسبوا" لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت فى دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهى بالنسبة لهم عملية آلية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً [(١)] . والذى يسرق دون هذا النطاق لا يُطبق عليه حَدُّ قطع اليد . لماذا ؟ لأن ربع الدينار فى ذلك الوقت كان يكفى لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة

(١)عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقطع السارق فى ربع دينار فصاعداً » أخرجه مسلم (١٦٨٤) وأحمد (٦/ ٣٦) والترمذى (١٤٤٥) وقال : حسن صحيح .

يوم واحد . فإذا سرق أى إنسان ما يكفى قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال : ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون السرقة قد حدثت ويُقام عليه الحد (١) .

ونحن نعلم أن العقل البشرى وظيفته الاختيار بين البدائل ، ومفروض أن يُقَدِّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان فى الطاعة . ونحن نأتى للطالب المجتهد ونطلب منه أن يُخَفِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح ؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التى يريدها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك ؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة فى المذاكرة دون أن يشعر بالتعب .

إذن : فالذى يُحبِّبك فى الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذى يُكرِّهك فى المعصية هو استحضارألم العقاب الذى لابد أن يحدث .

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر ؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان إنما يحدث منهم دون أن يستحضروا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصى وهم فرحون . ولو قال الحق كلمة : "يقولون" لكان كلامهم بغير فعل . ولو قال : "يفعلون" لكان فعلاً

---

(١) السرقة نوعان : نوع يوجب التعزير ، ونوع يوجب الحد . فالذى يوجب التعزير هى التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، مثل سارق الثمار على الشجر ، أما التى يجب فيها الحد فهى التى توفر فيها ثلاثة شروط :

١- أخذ مال الغير بما لا يقل عن ربع دينار .

٢- أن يكون هذا المال فى حرز كخزينة أو بيت أو مسجد .

٣- أن تتم السرقة على هيئة الاختفاء والاستتار . وبهذا لا يعتبر المنتهب أو المختلس أو الخائن (أى : النصاب) سارقاً يجب فيه قطع اليد . وإذا ثبتت جريمة السرقة بكل هذه الشروط فتقطع يد السارق اليمنى من مفصل الكف ، فإذا سرق ثانياً تقطع رجله . انظر تفاصيل إقامة هذا الحد فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٦١ - ٤٧٦) .

لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال "يعملون" لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال " يكتسبون" لفهمنا أن المعصية تثير انفعالاً وتهيجاً فى داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ليعطينا المعنى الصحيح فى أنهم قد اعتادوا المعصية ؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا افتعال .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى لِيُرينا حكمه فى الدنيا على هؤلاء المنافقين الذين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد فى سبيل الله ، فيقول :

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ : عندما تنتهى الغزوة وتعود إلى المدينة ، فهناك حكم لابد أن تطبقه مع هؤلاء المنافقين ، الذين تخلفوا وفرحوا بعدم الجهاد .

وقوله : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ كلمة "رجع" من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : "ضرب محمد" ثم تسكت؛ لأنه عليك أن تبين من المضروب . ولا يمكن أن تقول " قطف محمد " ، بل لابد أن تقول ماذا قطف ؟ وهكذا نحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل . ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى مفعول . كأن تقول : "جلس فلان" والفعل الذى يحتاج إلى مفعول اسمه « فعل مُتَعَدٍّ » أما الفعل الذى لا يحتاج إلى مفعول فاسمه « فعل لازم » . إذن : فهناك فعل متعد وفعل لازم .

وهنا فى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ والحق سبحانه هو الفاعل ، والكاف فى ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ هى المفعول به. ولكن لأنها ضمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على الفاعل . إذن : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ رجع فعل متعد ، والفاعل لفظ الجلالة . والمفعول هو الضمير العائد على رسول الله ﷺ ؛ أى : أن الله رجعك يا محمد.

ولكن هناك آية فى القرآن الكريم تقول :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

فى الآية التى نحن بصددها ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ الفاعل هو الله ، أما فى قوله الحق : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن فـ" رجع " يمكن أن يكون فعلاً لازماً [1] ، كأن تقول: "رجع محمد من الغزوة" . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ أى: يا محمد من الغزوة . إذن : فرجع تستعمل لازمة وتستعمل متعدية . ولكن فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ؛ عندما ألقته أمه فى البحر والتقطه آل فرعون ؛ ومشت أخته تتبعه ؛ ثم حرَّم الله عليه المراضع ليعيده إلى أمه كى يزيل حزنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث ؟ ولماذا استعمل فعل « رجع» لازماً ومتعدياً ؟

(١) الفعل المتعدى هو الذى ينصب بنفسه مفعولاً به أو اثنين أو ثلاثة دون أن يحتاج إلى مساعدة حرف جر أو غيره . أما اللازم فهو الذى لا ينصب بنفسه مفعولاً به أو أكثر ، وإنما ينصبه بمعونة حرف جر . وهناك نوع يصح أن يكون النوعين معاً مثل : شكر ، ونصح . وفعل رجع المذكور فى الآية من هذا النوع الأخير .

نقول : إنه فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ هنا هيىء لموسى من ذاته أن يرجع ، أى : أنه قرار اختيارى من موسى ، أما قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ ، فموسى فى هذه المرحلة ؛ كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا بد أن يهيىء له الحق طريقة لإرجاعه ، أى : من يحمله ويرجعه . أما قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال : " وإذا رجع إلى طائفة منهم" مثلما قال فى موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ ولكن الحق استخدم ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ ليدل على أن زمام محمد عليه الصلاة والسلام فى الفعل والترك ليس بيده .

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تنسبوا الأحداث إلى بشرية محمد ﷺ ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذى أذهبه إليه . وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله منه . كما كانت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بإذن من الله ، فقبل أن يأذن الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله ﷺ ببشريته يستطيع أن يهاجر . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن نعرف دائماً : أن ذهاب محمد ﷺ ورجوعه من أى مكان ، ليس ببشرية رسول الله ﷺ ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ وكان من الممكن أن يقول " فإن رجعك الله إليهم " أو : " فإن رجعك الله إلى المدينة " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التى حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا فى المدينة رغماً عنهم ولم يكن لديهم ما ينفقونه أو لم يكن لدى رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه . وكذلك المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون قتالاً . وهؤلاء حَسُنَ إسلامهم وقَبِل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التى تخلفت عن الجهاد وهى قادرة ، والتى امتنعت عن الخروج ، وهى تملك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هى التى فرحت بالتخلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى ؛ فكانت عيونها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشتراكهم فى الجهاد .

إذن : فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت توبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله . وبقيت طائفة المنافقين الذين فرحوا وضحكوا عندما بقوا فى المدينة ، وكان عقاب الله لهم بأن مسح أسماءهم من ديوان المجاهدين فى سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد .

ويقول سبحانه : ﴿**فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ**﴾ فكيف استأذنوا أول الأمر للقعود وتحايلوا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج ؟ نقول : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة فى قلوبهم ؛ لأنهم أهل دنيا . وحينئذ طلبوا الخروج حتى يحصلوا على الغنائم والمغانم الدنيوية . ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن لهم بالجهاد مع المسلمين ، فقال: ﴿ **فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا**﴾ أى : أن أسماءكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والغزاة ، ولماذا قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله ﷺ ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ **إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ .

ولكن الحق يقول أيضاً هنا : ﴿**فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ**﴾ وهذا أمر لا يحدث إلا فى الغزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة ؟ ويبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يقبل منهم قتالاً حتى فى هذه الحالة ، فطلب

من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : ﴿ وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ إذن : فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج فى الغزوات ، ولا بقتال الأعداء إذا هاجموا المدينة ؛ لأنهم أُسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خارجها ؛ ما داموا قد فرحوا بالقعود ، ورفضوا أن يشتركوا فى الجهاد وهم قادرون ؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين .

وما معنى خالفين ؟ المادة هى " خاء " و" لام " و" فاء " ، فيها " خلف " و" خلاف " و" خلوف " وغير ذلك . و" خالفين " إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، وإما أن يكونوا خالفوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً . ويقول ﷺ فى حديث عن الصيام : « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك »[1]

والخلوف هو تغير الرائحة ، وتغير الرائحة يدل على فساد الشيء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين . ومخالفين تعنى فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وتعنى أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يقتصر جزاء هؤلاء المتخلفين فقط أن تشطب أسماؤهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

وصلاة رسول الله ﷺ على ميت هى رحمة له ، وغفران لذنوبه ؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ومسلم فى صحيحه (١٦٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

يُلحقَه بالصالحين . وإذا قال رسول الله ﷺ هذا الكلام ، ودعا بهذا الدعَاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان فى أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ (١) .

وقول الحق لرسوله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ معناها نهى عن فعل لم يأت زمنه . وقوله تعالى : ﴿وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ أى : لا تذهب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ مع أن النهى عن المستقبل ، أى : من مات بعد نزول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق "يمت" أو "يموتوا" واستخدم الفعل الماضى ﴿مَّاتَ ﴾ ؟ . ونقول : لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدَّرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شيء لا يقرره الله مستقبلاً ، بمعنى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوثه بليلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

أما قوله الحق : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصّاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم مثل الآية التى نزلت فى زعيم المنافقين عبد الله ابن أبىّ ، فعندما مرض عبد الله بن أُبىّ مرض الموت ؛ جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ويستغفر له (٢) . وذهب رسول الله ﷺ مجاملة لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ الذى أسلم وحَسُن إسلامه .

---

(١) حياة البرزخ هى حياة بين الموت والبعث ، ومنه قوله عز وجل ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] والبرزخ فى كلام العرب : الحاجز بين الشيئين . ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣] .

(٢) سبق تخريجه عند تفسير الآية: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ...﴾ [التوبة: ٨٠] .

وعندما وقف رسول الله ﷺ بجوار عبد الله بن أبىّ ، قال له : « أهلكك حب يهود »[١] ؛ لأن ابن أُبىّ كان يجامل اليهود ويعاونهم ، ونفاقه فى الإسلام كان مجاملة لليهود وكان يُظهر أمام اليهود الكفر ، ويُظهر أمام المسلمين الإيمان . وهنا قال ابن أبىّ : يا رسول الله ، إنما أرسلت إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى .

فاستغفر له الرسول ﷺ ، وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... (٨٠) ﴾ [التوبة]

وطلب عبد الله بن أبىّ من رسول الله ﷺ أن يهبه ثوبه لكى يُكفَّن به ، فلما ذهب رسول الله ﷺ إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى . وقد كان ﷺ يلبس ثوبين ؛ ثوباً يلى جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبىّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذى لامس جسد رسول الله ﷺ .

انظر إلى زعيم المنافقين والذى كان يملؤه الكبرياء فى حياته ، كبرياء على المؤمنين ؛ ها هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ أرسل له القميص الذى لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ .

ولم يتقبل هذا الفعل عدد من المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبىّ جاء ابنه عبد الله ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٧٩) من مرسل قتادة . وقد أورده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٣٣٤) وعزاه لعبد الرزاق والطبرى عن قتادة . قال ابن حجر : هذا مرسل مع ثقة رجاله ، ويعضده ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس بنحوه .

وعندما هَمَّ النبى أن يصلى عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين الرسول وبين القبلة (١) . وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الآية الكريمة : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ فقد أراد رسول الله ﷺ أن يصلى على ابن أُبىّ ؛ لأنه رسول رحمة للعالمين . ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلى ، فأنزل الحق قوله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ وقالوا : تلك من الأمور التى وافق الوحى فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن المسائل التى وافق الوحى فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى (٢)

ومن هذه الأمور أيضاً رأيه فى أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأى أبى بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ؛ أو يؤخذ فيهم الفداء ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ (٦٧)﴾ [الأنفال]

بعض الناس يتساءل : كيف يستدرك عمر على رسول الله ﷺ ؟ نقول : لأن الرسول ﷺ لن يُخلَّد فى أمته ؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأُسْوة بأنه ﷺ متى رأى رأياً حسناً نزل عليه . وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذا ؟ ونقول : إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريده الله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧١) وأحمد فى مسنده (١/ ١٦) والترمذى فى سننه (٣٠٩٧) والنسائى (٤/ ٦٧) قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٨٣) عن أنس ، وقد ذكر فيه موافقة الوحى لعمر فى ثلاث : تحويل القبلة ، حجاب نساء النبى ﷺ ، معاتبة نساء النبى .

وبعد أن نزل قول الحق : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ صار الحكم عاماً فى ألا يصلى رسول الله على المنافقين . لكن من أراد من الناس أن يصلى فليُصلِّ . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع عن الصلاة على المنافقين.

كذلك امتنع ﷺ عن الصلاة على الميت وعليه دين ، فكان يسأل أهل الميت : هل عليه دَيْن ؟ فإن قالوا : نعم . سأل : هل ترك ما يسده ؟ . فإن قالوا : لا ، قال : « صَلُّوا على صاحبكم »[(١)] ، وامتنع هو عن الصلاة.

ولكن ما ذنب من عليه دين حتى يُحرَم صلاة رسول الله عليه ؟ نجد الإجابة فى قوله ﷺ :

« مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[(٢)].

فلو كان هذا الميت المدين ينوى سداد دينه لأعانه الله على أنْ يُسدِّده ، أما إذا ترك ما يفى بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال فى البنوك فلا يكون مديناً .

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضى الله عنه ، ويقف على قبور المؤمنين . ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »[(٣)] . ومنعه الحق

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى ، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١ ، ٤١٧) وابن ماجه فى سننه (٢٤١١) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٥) وابن ماجه (٤٣٠٦) والنسائى (١/ ٩٤) من حديث أبى هريرة .

من ذلك العمل على قبور المنافقين[١] . ويعطينا الحق سبحانه العلة فى ذلك فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وعرفنا كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق : ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج ؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة ؛ لأن البلح فى نضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البلحة ، بحيث تستطيع أن تنزعها بسهولة ، فكأن منهج الله بالنسبة للمؤمن لا بد أن يلتصق به كقشرة البلحة الحمراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا نتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق ؟ لأننا نعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب ؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مع أنهم كفروا ، والكفر أكبر الذنوب ؟

ونقول : إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول فى الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد فى النفوس عامة قيماً معروفة يتبعها حتى الذين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا : نريد أن نبنيها بمال حلال ، لا يدخل فيه مال بَغِيٍّ[٢] . وكانوا فى الماضى يُحضرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرايات ، ويأخذون من أموالهن . لم يكن الإسلام قد جاء بَعْد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء التى جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

---

(١) ومما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] أنه لما مات عبد الله بن أبى أتى ابنه النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، وإنك لم تأته لم نَزَلْ نُعيَّر بهذا ، فأتاه النبى ﷺ فوجده قد أُدْخل فى حفرته فقال : « أفلا قبل أن تدخلوه ؟ » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدَمه وألبسه قميصه . أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧١) .

(٢) وذلك أنه عندما أرادت قريش أن تبنى الكعبة قام أبو وهب بن عمرو بن مخزوم وتناول من الكعبة حجراً ، فوثب من يده ، حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تُدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٤) .

إذن : فقوله الحق : ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، أى : لم يكونوا مسلمين . ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى : لم يلتزموا بأية قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)﴾

ونعلم أن الحق قال فى آية سابقة :

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ[1] أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾ [التوبة]

والنص القرآنى إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول: إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ، فقد تحمل آيتان معنى عامّاً واحداً، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ... (٣١)﴾ [الإسراء]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن فى القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء فى الآية توافق مقتضى كل حال . ففى قوله

---

(١) زهقت نفسه : خرجت ومات ، وزهق الباطل: زال وبطل فهو زاهق وزهوق: قال تعالى: «وتزهق أنفسهم »أى : تخرج ؛ فيموتون .

سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدرى الآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء فى البيان العربى .

ولنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الذين يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربى . ونقول لهم : أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضى أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلْ فى الآيتين : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ وإنما قال: ﴿مِنْ إِمْلاقٍ ﴾ وقال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ ، ولم يقل فى الآيتين : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بل قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ و قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

إذن: فبداية الآيتين مختلفة ؛ الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتى الفقر بمجىء الأولاد .

إذن: فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشَوْنَ مجىء الفقر إن رُزقوا بأولاد ؛ والفقير - كما نعلم - يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغلَ برزق أولاده . ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أى : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .

أما غير الفقير الذى يخشى أن يجىء الولد ومعه الفقر فقد ينشغل بأن المولود الجديد سيأتى ليُحوِّل غناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى: أن رزقهم يأتى من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد . وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار.

كذلك فى الآية التى نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد وردت فى نفس السورة، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف فى الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى تقول:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

والآية الثانية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [التوبة]

أول اختلاف نجده فى بداية الآيتين ؛ ففى الآية الأولى: ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾، والثانية : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾.

ففى الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، والفاء تقتضى الترتيب . إذن : فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾ [التوبة]

فكأن هذه حيثيات كفرهم ؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً في سبيل الله إلا وهم يكرهون ذلك.

والمتعة فى المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً اشتريته ، وإذا أحببت ثوباً ابتعته [١] . وتكون فى هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هولاء ينفقون المال وهم كارهون.

والمؤمن عندما ينفق ماله فى صدقة أو زكاة فهو يفعل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر فى الدنيا والآخرة. إذن: فحين ينفق المؤمن ماله فى الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته.

أما المنافق الذى يضمر الكفر فى قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة فى الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شىء ، أى: أن المسألة فى نظره خسارة فى المال ولا شىء غير ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب ؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء.

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب فى شقائهم وإذلالهم فى الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أى: يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته [٢] ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّى أولاده ثم تأتى الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال ؛ فيموتون دون استشهاد إن كانوا منافقين مثل آبائهم. وهكذا نجد أن كل أموال المنافق الذى يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه.

---

(١) ابتاع : اشترى .

(٢) الراحلة : كل بعير قادر على مشقات السفر أو الجهاد .

ومن هنا فإياك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم ؛ لأنها ذلة لهم فى الدنيا ؛ فهم يبذلونها نفاقاً ، فإذا امتنعوا عن الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهم ، وإن لم ينفقوا فهذا أمر يفضحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضى الإعجاب ، وإنما يقتضى الإشفاق عليهم.

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدواً ، أن فى أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم.

ولكن فى الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته، ومنهم من له المال والولد.

إذن: فهم مختلفون فى أحوالهم؛ لذلك جاء القول: ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لتؤدى المعانى كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد.

أما فى الآية الثانية التى نحن بصددها:

﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال والولد للعذاب . ولكن هناك من يقول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب ؟ وهل لأفعال الله علّة ؟ ألا يقول المسلمون : إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول فى قوله الحق:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة فى الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن فى العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق. فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شىء يزيد فى ملكه ولا شىء ينقصه . أو هى لام العاقبة. ومعنى « لام العاقبة » أن تفعل شيئاً فتأتى العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين[1] ؟ . لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا ؛ فأصبح الذى التقطوه ليكون وليّاً ونصيراً لهم هو الذى جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لَقتله ، وشاء الحق أن يخفى عنه الغيب ليقوم هو بتربية من سيقضى على مُلكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب فى ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً فى عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عِزْوة لهم. ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء فى الدنيا. فالمال يجمعه المنافق من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو

(١) قرة عين : مصدر سرور وفرح وسعادة قلب .

المال بالموت ، وإما أن يكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب فى تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم .

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم، بل هى عذاب لهم ؛ لأنهم بإبطانهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شىء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً .

أما الآية الثانية :

﴿ **وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ فهى حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم فى خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعانون من العذاب . وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون فى الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسد طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له فى الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ..(٢١) ﴾ [الطور]

وفى هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا فى خوف وحسرة . وفى هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

أى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة فى نفسه حين يرى المال الذى أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هى انتصار الدين وانتشاره.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هى الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولايجد له رصيداً فى الآخرة إلا النار ؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى فى النار محسوراً على ما تركه فى الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ... (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وهكذا يذوقون العذاب.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فى قوله:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٨٦) ﴾

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أَنْ آمِنُوا ﴾ أى : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقوله الحق : ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ أى: انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملى عن الإيمان ، ولاتفرحوا بتخلفكم عن القتال فى سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال فى سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم. وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطى جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقياً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ اسْتَئْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ و«استأذن» من مادة استفعل ، وتأتى للطلب ، كأن تقول : « استفهم » أى: طلب أن يفهم ، و« استعلم » أى : طلب أن يعلم . إذن : فقوله : ﴿ اسْتَئْذَنَكَ ﴾ أى: طلبوا الإذن ،ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ،تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا فى ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود.

ومن الذى طلب الإذن ؟

إنهم أولو الطَّوْل . و« أولو» معناها أصحاب القوة والقدرة . و«الطَّوْل» هو أن تطول الشىء ، أى : تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال: إن هذا الشىء يدك لم تَطُلْه ، أى : لم يكن فى متناول يدك.

و﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ أى : الذين يملكون مقومات الجهاد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبيّاً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبى الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذى قد يعوقه مرضه عن الحركة.

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى.

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار- لأنهم معفون- لكن الاستئذان يأتى من المنافقين الذين تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون فى القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يخبرنا الحق به : ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والقاعد مقابله القائم . والقيام - كما نعلم - هو مقدمة للحركة . فإذا أراد الإنسان أن يمشى ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشى والحركة ، ومن القيام أخذتْ مادة (القوم)[١] أى : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن فى القوم ، مصداقاً لقول الحق:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... (١١) ﴾ [الحجرات]

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ؛ مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : « ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث ؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث . قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ (٦٦) ﴾ [الأنعام] ، فذكر . وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ (١٠٥) ﴾ [الشعراء] ، فأنث ».

إذن: فالقيام يقابله القعود ، والقوم يقابلهم النساء . والقعود هو مقدمة للسكون ، فمتى جلس الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون ، وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَظٌّ من شأنهم.

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى:

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

و﴿الْخَوَالِفِ﴾ ليست جمع «خَالف» ولكنها جمع «خالفة» ؛ لأن «خَالف» لا تجمع على «فواعل» ، وإنما «خالفة» هى التى تُجمَعُ على «فواعل» [1] ، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذى يُطبق على النساء.

ولذلك كانوا ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن يتنبهوا لما فيه من إهانة لهم ؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء . والمنافق - كما قلنا - له ملكتان : ملكة قولية ، وملكة قلبية . فقول المنافق إعلان بالإيمان ، أما قلبه فهو ممتلىء بالكفر ؛ وفى هذه الحالة تتضارب ملكاته.

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم : سوف نعاملكم فى الدنيا بظاهر كلامكم ، ونعاملكم فى الآخرة بباطن قلوبكم ، وسوف نطبع على هذه

---

(١) لا يجمع " فاعل" صفة للمذكر العاقل على «فواعل» ، إلا فى أمثلة قليلة اعتبرها الأقدمون شاذة عن القاعدة مثل : (فارس ، فوارس) - (هالك ، هوالك) - (ناكس ، نواكس) وقد وصل بها المعاصرون إلى أكثر من ثلاثين مثالاً ، وإن كانوا قد قالوا : الأفضل الالتزام بالقاعدة ، وهى: « لا تجمع صيغة فاعل على فواعل إذا كانت وصفاً لمذكر عاقل » . انظر فى هذه المسألة النحو الوافى لعباس حسن (٤/ ٦٥٣ - ٦٥٥) ولابن منظور فى هذا كلام فى مادة (فرس) .

القلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا ﴿ وَطُبِعَ [١] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ خَتَمَ [٢] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ⑦ ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ...٩٣ ﴾ [التوبة]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما فى داخله كما هو ، وما فى خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما فى خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أى : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خير لهم ولكنه شر لهم.

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا ؛ لتخلف هؤلاء القادرين عن القتال رغم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد . ويزيل الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه :

---

(١) الطبع لا يفك أبداً ، فالذى طبع على قلبه ليس له قبول لأنه غير قابل ولا مقبول .

(٢) الختم قد يفك ، وقد يكون له مدة معلومة وقد يقبل مع التوبة الخالصة .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أى : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا : نحن خسرناهم فى قتالنا ؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم . وسبحانه القائل : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه :

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ . [المائدة]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال والجاه عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن فى نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم

الخيرات ، أى : لهم كل ما يطلق عليه خير [1] : ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والمفلح : هو الفائز الناجى المستفيد بثمرة عمله، وأصلها فلح الأرض أى: شقها؛ لأن الزراعة تقتضى أن تحرث الأرض أولاً، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ونحن حين نحرث الأرض نهيجها ،وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أى ماء راكد فى داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات ؛ لأنك إذا وضعت الحَبّ فى أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذى تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتبخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نُسمِّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّى ، الذى نراه كل يوم وهو الفِلاحة.

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنويّاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذى نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرِّب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً فى الغيبيات التى لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يُقرِّبها إلى أذهاننا؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسيّة. والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، تعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً.

---

(١) الخيرات : جمع خير ، فالمعنى: لهم منافع الدارين . وإن كان قد قال الحسن : الخيرات : النساء الحسان . ودليله قوله عز وجل : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] . انظر تفسير القرطبى (٣١٤٩/٤) .

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل مما نراه كل يوم ؛ ليقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة [١] ، ومضاعفته لنا الأجرَ ، فيقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ... (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها فى الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشىء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطى خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

إنها صورة مُحَسّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : أنا أنقصت المخزون عندى كيلة [٢] من القمح أو إردباً [٣] من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه فى الأرض . ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذى أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة : إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدى الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشىء مُحَسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لنفهم ما ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض - وهى المصدر الأول للاقتيات [٤] - تُلقى فيها الحبة الواحدة ، فتعطى لك سبع سنابل فى كل

---

(١) الصدقة : ما يخرج من المال على وجه القُربة إلى الله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

وتصدَّق : أخرج الصدقة : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] بحذف إحدى التاءين

واصّدّق : أخرج الصدقة . وصدّقه : آمن بكلامه - والصَّدُقَة : صداق المرأة ومهرها لا تدل على صدق الرغبة . وفى مادة الصدقة : صدق مع الله وصداقة مع الناس وصداقة مع النفس . وأما الزكاة فهى ما فرض بمقدار ونصاب محدد .

(٢) الكَيْلَة : وعاءٌ تكال به الحبوب ، ومقداره الآن ثمانية أقداح . والجمع : كَيْلات .

(٣) الإرْدَبُّ : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ست وَيبات . والجمع : أرادِبُ .

(٤) الاقتيات : القوت والرزق .

سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض المخلوقة لله تعوضك عما وضعته فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب . ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذا جزاء المؤمنين فى الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر فى الآخرة . وفى هذا يُبشِّرنا الحق سبحانه فى قوله :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات والأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذى يخلد فيه المؤمنون .

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه : ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة - فى الوقت نفسه - ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج منك أى تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشىء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا فى الآخرة وفى الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛ لأنه دائم وبلا نهاية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

والحديث هنا عن المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون «الأعراب» ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقى المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ [1] ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا يأتى الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون فى البوادى التى حول المدينة وهم الأعراب.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾، وهناك « مُعْذرون » و «معتذرون» ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتَذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُضعَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذى بعدها يُسكّن ، وعندما يُسكّن ما بعد العين ، فهذا يعنى أن هناك افتعالاً.

إذن : فالمعذّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة [2] ، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقى . ويقال : « المعذرون» ، و« الْمعَذّر» ، و«أعذره» أى : أذهب عذره ، مثل : « أعجم الكتاب » أى : أذهب عُجْمته.

---

(١) النفاق : أن يظهر الإنسان بخلاف ما يبطن ، وأطلق " المنافق " فى صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمر الكفر ، والنفاق : مصدر نافق . ومردوا على النفاق : اعتادوا عليه وتمرسوا به ، وكأنه أصبح حرفة لهم .

(٢) المُعْذر : الذى يعتذر وله عذر حقيقى . المعتذر : مثله . المُعَذِّر : الذى يعتذر وليس له عذر ، بل يفتعله ويختلقه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول فى الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا فى الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أو لاستأذنوا رسول الله فى القعود .

ثم يقول الحق : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمنافقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلىء بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذى ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب فى القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطى رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر فى أن يتخلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعفى الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال . وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة - كما نعلم - هى أن تقدر أن تعول نفسك فى الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة . وكان على كل مجاهد أن يُعدَّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد ؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون فى عون أهل المجاهدين (١) ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التى يطلقها المنافقون فى المدينة ؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والسبيل : هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف . وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهى إليهم بلوم ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهى إليهم ، فالمرورَ أمر عادى ،

(١) عن زيد بن خالد الجهنى أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) قال النووى فى شرحه لمسلم : « هذا الأجر يحصل لكل خالف له فى أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم فى أمرهم » .

وليس هو الغـاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجـد سـبيل إليـهم ولا إلى عتـابهم ؛ لأنهم أدوا كل ما تطلّبـه الجـهاد منهم ، ولكنهـم لم يذهبـوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلّبه الإيمان .

أما إذا كان المجاهد لـديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبهـا ، فعليه أن يذهب إلى رسـول الله ﷺ ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسـول الله ﷺ : ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهذا إذن بالقعود ، وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

إذن : فالمعـفوْن من الجـهاد هم : الضـعيف والمريض ، والذى لا يجـد قـوتاً ، ولا يجـد راحـلة ؛ فيطلبـها من رسول الله ﷺ فـيقـول له رسـول الله [1] : ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ومن فى مثل هذه الحالة يحزن مـرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين فى ذلك الوقت أن يملكوا ما ينهض بنفقات المقـاتلين أو أن يجهزوا لـهم وسـائل الانتقـال إلى ميدان القتـال ، والحزن الثانى : بسبب عـدم تواجده فى مـيدان القتـال مشـاركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد فى ميدان القتال .

إنه جـهاد حمـاية القـاعدين من إشـاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محـاربة الإيمان ، بل سيرجفون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالى

---

(١) قال القرطبى : « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/٣١٥٣) .

المقاتلين ، وهم من نسميهم فى الاصطلاح الحديث "الطابور الخامس" ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهالى المقاتلين . إذن : فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقى فله جهاد آخر فى حماية الجبهة الداخلية من أهالى المقاتلين فى مواجهة حرب الإشاعات التى يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد [1] فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين : الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا فى سبيل الداعى ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثانى : أن ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعْلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، و السيف الذى حُمل فى الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أن يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان ؛ إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحرية الدين الذى يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يفرض بالسيف ، وإلا فمن الذى فرض الإسلام على الذين سبقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمى من دخل فيه ؟!

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين - إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية - إن قام به البعض سقط عن الباقين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف ؛ الضعفاء بشيخوخة أو صغَر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ،

---

(١) الجهاد يكون فرضاً عينياً إذا حصل الاعتداء من الأعداء واحتلت البلد ويكون فرض كفاية إذا حدث اعتداء ولم تحتل البلد ، وكذلك لنشر دعوة الله فيكون الجهاد بالإقناع والدليل ؛ لأن الإسلام لا يعرف السيف إلا عند الاعتداء ووقوع الظلم على المسلمين من الغير .

وقسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أى : لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التى يركبها .

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظَّفهم سبحانه فى وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا فى عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون النيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك[1] .

أما الذى يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التى تنقله إلى ساحة القتال ؛ فعليه أن يذهب إلى ولى الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله ﷺ هو قائد الجهاد فى حياته ، فإن قال لأحد : ليس عندى ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفى لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله فى حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ وكلمة " تفيض أعينهم " توضح ما فى قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هى ماء حول العين ؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفد الدمع وجمدت العين عن البكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال : " بكيت دماً " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : "بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ ، فكأن العين

---

(١) وذلك بالإعلام الدينى وتحجيم الإشاعات الكاذبة .